
شباب امرأة
أمين يوسف غراب

أمين يوسف غراب

شباب امرأة

الكتاب الذهبى
مارس ١٩٦٣

الاهـــداء

الى السابع والعشرين من اغسطس عام ١٩٦١
الى أمسية ذلك التاريخ ، التى قدر لها أن تكون بداية طريق
... ان كل طريق نسير فيه له نهاية
... وهذا الطريق لا نهاية له
... انه ليس طريقى أنا
انه طريقها هى ..
... وهذا شقاء ... وما من شقاء يعادل هذا الشقاء
.. شقاء من قدر له أن يسير فى غير طريقه

« امين يوسف غراب »

الطفولة..

الفصل الاول

قال لها هامسا ، وهـو يتلصص بعينيه على أمها التى تقف على عتبة داره فى نهاية الحارة تتحدث الى أمه :

ـ تعالى نلعب ..

فلم تجب . وانما أشاحت بوجهها عنـــه كمن لا تريد أن تسمع . فاقترب منها خطوة .. وشدها من ذراعها وهو يقول بصوته الهامس الذى يفيض حنانا ورجاء يود تحقيقه :

ـ تعالى نلعب ..

فالتفتت اليه غضبى . وقالت وهى تنظر الى يده الصغيرة التى مازالت معلقة بذراعها :

ـ أنا مخصماك ..

ـ من غيرما سبب ؟

ـ اتهمتنى بسرقة الكرة ..

ـ اننى سألتك عنها ..

ـ لا .. اتهمتنى بسرقتها ..

ـ حقك على .. وغدا سأجيء لك بكرة غيرها ..

ـ من أين ؟

فقال وهو ينظر الى ذراعها الصغيرة التى ما زالت معلقة فى يده :

ـ سمعت أبى يقول لأمى ، انه عندما يذهب الى السوق بعد غد ، فسوف يشترى له جوربا جديدا ، وعند ذلك سوف آخذ جوربه القديم وأصنع لك منه كرة جديدة .

فقالت وهي تنظر اليه .. ونور جميل يتألق فى عينيها :

ـ سوف أصنع لك كرة من عندى .. فأبى يملك أكثر من جورب .. وأستطيع أن آخذ منها ما أشاء .

ومع انه لم يفطن الى شيء ، الا انها تداركت سريعا جملتهـا الاخيرة ، وما فيها من حرج له ، لذلك عقبت ضاحـكة ، وذلك النور الجميل ما زال يتألق فى عينيها :

ـ تصالحنا ..

فقال فرحا :

ـ وسنلعب ..

ـ اسبقنى وسوف ألحق بك ..

ـ تعالى معى ..

ـ أعددت لك مفاجأة سارة . سأذهب لأحضرها .

فقال فى ابتهاج شديد :
ـ ما هى ؟
فنكست هدبيها الطويلين ، وهى تضحك ، وتضع أصبعها الصغيرة على غمازة فوق خدها المتورد ، وتقول ناظرة اليه :
ـ احزر ..
فقال مفكرا :
ـ كرة ؟
ـ لأ ..
ـ تؤكل
ـ لأ ..
ـ تشرب ؟
ـ لأ ..
ـ ما هى اذن ؟
فقالت وهى تنسرق من أمامه ضاحكة ... تقفز فى خطوات عالية كالغزال :
ـ اسبقنى وسأحضرها لك ..
فانصرف تغمره فرحة كبيرة .. ووقف ينتظرها على رأس الحارة حتى تجىء ، ويذهب معها الى الجرن يلعبان مع الصبية على ضوء القمر فى رمضان ، الاستغماية ـ وجمال المالح ـ وحلقة ومضرب ـ الى أن تدق طبلة عم نوفل المسحراتى أولى دقاتها ، فينصرف كل الى بيته ، فرحا مبتهجا بما ظفر من هـذه الليالى الجميلة من لعب .. ومرح .. ولهو برىء .

***

وبينما هو فى مكانه مر به عم نوفل ، تسبقه عصاه السنط الطويلة ، التى تهديه دائما الى الطريق ، ففزع الصبى لمرآه . وألصق جسـده بالحائط فى الظلام حتى لا يشـعر به . وقد انتابته حالة شديدة من الذعر ، وحالة أخرى من الاطمئنان أو الرضا لا يدرى . فهو ان ظفر به عم نوفل الليلة ، حرمه من الاستمتاع باللعب مع سلوى فى الجرن . وان لم يظفر به ، حرم الصبى نفسه من بعض الطيبات التى تعود عليه فى الليالى التى يقود فيها عم نوفل فى أزقة القرية وحاراتها ، يدق على بيوت الناس ليوقظهم للسحور والصلاة التى هى عند الله خير من النوم .
وظل الصبى فى مـكانه من الحائط حائرا لم يقطع بأمر . ينظر فى خوف أو رضا لا يعرف ، الى عصا عم نوفل الطويلة ، وهى تقترب منه ، متمنيا من قلبه أن تخطئه ، ومتمنيا أيضا

من قلبه أن تظفر به . بيد أن الاولى هى التى كان لها التفضيل فى نفس الصبى ، لانه كلما رأى العصا تقترب منه وخطوات عم نوفل المتعبة تدب اليه ، أطبق على شفتيه والتصق جسده بالحائط حتى ود لو انه دخل فى قلبه ، ولكن عم نوفل كانت له حاسة شم قوية ، يستطيع أن يشم بها رائحة الناس ويميزهم ويتعرف عليهم ، لذلك ما ان اقترب من مكان الصبى حتى حول عصاه الطويلة الى الجدار الذى يختبىء الصبى بجواره ، وقال على الفور :

ـ امام ؟

فاضطرب الصبى وتعالت دقات قلبه وهو يجيب سريعا :

ـ نعم ..

ـ أين كنت أمس .. وأول أمس .. وكيف تجعلنى أبحث عن غيرك ليمسك بيدى ويحمل عنى الفانوس ؟

فتعلثم الصبى وهو يقول :

ـ كنت أجود فى جزئى عم ، وتبارك ، كما قلت لى ..

ـ أنت تكذب ..

فقال الصبى خائفا :

اسأل أمى ..

ـ أمك شقية بك ، وبلعبك طوال الليل فى الجرن

وصمت عم نوفل لحظة ، ودق بعصاه على الارض ثم قال :

ـ هل تريد أن أشكوك الى أبيك ؟

ـ لا .. لا .. انه يضربنى ..

قالها الصبى فى خوف شديد وهو ينظر اليه حتى لكأنه يظن أنه يراه .. فقال الشيخ :

ـ اذن ستسرح معى الليلة .

وأراد الصبى أن ينطق .. ولكنه التفت فرأى سلوى تهل على رأس الحارة من بعيد ، كما يهل القمر الوليد فى الافق من بعيد فاضطرب ثانية وتعالت دقات قلبه ، وأحس بضيق شديد وقال خائفا وعيناه معلقتان فى عينى الشيخ الضرير :

ـ سأسرح معك الليلة وكل ليلة ، فقط لا تشكونى الى أبى .

ـ سأنتظرك فى المسجد ..

نطقها الشيخ وانصرف ، تسبقه عصاه ، تبحث معه فى الظلام عن بيت الشيخ الشافعى مأذون الشرع ليقرأ فيه بعض القرآن، الذى تعود أن يقرأه أيضا فى بيوت غيره من أهل القرية طوال شهر رمضان ، وفى غير شهر رمضان أيضا . فعم نوفل له فى القرية مكانة ملحوظة ، ويقوم فيها بأعباء كثيرة . فهو رغم انه

كهل فى الستين من عمره ، ورغم أن الأيام أتت على كل شيء فيه ، ولم تبق من جسده الا ما يشبه الصورة القديمة التى تآكل اطارها وتسلل البلى الى رسمها • فهو مقوس الظهر معوج الساقين • ومع ذلك فهو فى القرية حركة نشاط دائمة ، لا تعرف الهدوء ولا الراحة ولا الملل • فهو فقيه المسجد الذى يؤذن فى الناس للصلاة •• وهو الذى يؤم بهم الصلاة •• وهو حانوتى القرية الوحيد الذى يغسل الموتى ويكفنهم ويتلو على رؤوسهم القرآن عندما يخرجون من الدنيا •• وهو يتلوه أيضا كل صباح فى بيوت أهل القرية ـ بالمسانيه ـ أى بالسنة، نظير كيلة أو نصف كيلة من الحنطة أو الشعير كل عام •

أما اذا جاء رمضان ، فهو أيضا مسحراتى القرية الذى يجوبها كل ليلة بطبلته ، يدق بها على الابواب بابا بابا • ورغم أن هذا كان يجهده كثيرا ، الا أنه كان يسعده أيضا • وهو لايسعده وحده ، وانما يسعد معه جماعة كثيرة من الصبية والصبيات والعجائز الذين يقطنون معه دهليز « المرعشلى » • وهو دهليز كبير يضم أكثر من عشرين غرفة ••• أوقفها واقفها على الفقراء الذين لا مأوى لهم من أهل القرية كما أوقف جناحا من هذا الدهليز على ـ خولى ـ زراعة الوقف يقطنه هو ومن يشاء من أسرته • وهو الجناح الذى يقطنه امام مع أمه وأبيه •

وكان سكان هذا الدهليز جميعا ، اذا جاء رمضان وطلعت عليهم بشائره فى الافق ، غمرتهم فرحة لا حد لها ، وعاشوا جميعا فى هناء زائد وسرور مقيم • وذلك بسبب الصدقات الكثيرة التى كانت تنهال على عم نوفل فى رمضان ، وكان يوزعها على سكان الدهليز الذين كانت قلوبهم تكاد تطير من الفرح عندما يدخل عليهم نوفل بعد السحور حاملا جواله المكتظ بالخيرات ، ويفرغه أمامهم على الارض فيلتفون حوله كالقطط الجائعة ، يستخلصون بأيديهم الصغيرة الجبن من العجوة ، ومخلل اللارنج والقثاء من البلح والجوافه ، والخبز الجاف من الكحك والمنين والغريبة وعظم الدجاج وقطع اللحم من رؤوس الفجل والكرات • وما الى ذلك كله من خير عميم ، يظفر الصبى منه بالنصيب الاوفر دائما •

فكر الصبى فى هذا كله سريعا وهو فى مكانه من الجدار يشيع الشيخ الضرير ومرت به خيالاته مرورا سريعا كالنور العابر ، فغمرته لذة كبيرة سال لها لعابه وود لو أنه سبق الزمن وانطوى سريعا هذا النصف الاول من الليل • ووجد نفسه برفقة الشيخ يحمل له الفانوس ، وهو يدق على الطبلة ،

فتتفتح الابواب ، وتمتد الايدى الى الجوال بكل هذه الخيرات ٠

بيد أن هذا كله تلاشى فجأة ، وذاب كما تذوب قطرة الندى تحت وهج الشمس ٠ عندما التفت فرأى سلوى تقبل عليه وهى تحمل له فانوسا اشترته له حتى يكون مثلها ومثل بقية الصبية الذين يلعبون بفوانيس رمضان فى الجرن ، بيد أنه أحس عند رؤيته الفانوس في يدها بشيء كثير من الخجل ، وأحس بهذا الخجل يتزايد وهى تقدمه له ٠٠ وتقول فى فرحة غمرت وجهها كله وزادته بهاء ٠

ـ هذه هى المفاجأة التى أعددتها لك ٠٠

ولما لم ترتسم على وجه الصبى الفرحة التى كانت تنتظرها وأدركت بذكائها سريعا سر خجله وارتباكه ٠٠ قالت على الفور ٠٠ مسترسلة فى الضحك ٠٠ مستطردة فى الحديث :

ـ سأقول لك السر ٠٠ فقط لا تذعه على أحد ٠٠

ـ أى سر ؟

ـ خالتى آمنه ـ تقصد أمه ـ هى التى اشترته لك ٠٠ وأنكرته منك لانها غاضبة عليك ٠٠

ـ لماذا ؟

ـ لانك لم تحفظ بعد جزء عم ٠٠

فتهللت أسارير الصبى وهو يتناول من يدها الفانوس ، ويشدها من ذراعها ، ويركض معها الى الجرن قائلا فى ابتهاج :

ـ ان أمى لا تعرف شيئا ٠٠ لقد حفظت أيضا تبارك ، وقد سمع ، والاحقاف ، وفصلت ، والزمر ٠ وعما قريب سأحفظ نصف القرآن ، وأذهب الى طنطا والتحق بالمعهد الاحمدى ٠ سمعت أبى يقول ذلك ٠

ثم أراد أن يقول لها شيئا آخر ٠ ولكن ساحة الجرن الكبيرة طالعتهما مكتظة ممتلئة بصبية القرية يحملن الفوانيس المضاءة ويركضن بها فى ساحة الجرن الذى تراءى لهما من بعيد كساقية فوانيسها من النجوم الباهـــرة التى تتلألأ فى الليل ، فوقفا بفانوسيهما ينظران الى مئات الفوانيس الاخرى فى فرحة غامرة، وكل آمال الصبى والصبية أيضا أن يظل رمضان فى القرية طيلة شهور السنة بل طيلة أيام العمر ٠ حتى يدوروا فى هذه الساقية ٠

الفصل الثـــانى

لم يشعر الصبى فى حياته سعادة خالصة كهذه التى أحس بها هـــذه الليلة ، وهــو يلعب الاستغماية مع سلوى فى الجرن ، يكر معها ويفر ٠٠ يركض ويقفز ٠٠ يراوغها وتراوغه ٠٠ يهرب منها بين الصـــبية حتى لتكاد تفتقده ٠٠ ويظهر لها فجأة من بين أرجلها فتأخذها المفاجأة ٠٠ وتقفز على كتفه حتى لا يهرب منها مرة أخرى ، ويلعب معها جمال المالح فيسير على أربع ويروح يقفز أمامها مغمض العينين كمـــا يقفز الارنب الضرير فى الفضاء ، وهى تطارده من أمام ومن خلف ٠٠ وتطارده عن شمال وعن يمين ، حتى اذا ما ضيقت عليه الخناق وأدخلته تلك الدائرة التى لا يجب عليـــه أن يدخلها قفزت كالفارس على ظهره وامتطته كما تمتطى الجواد ، ولفت به حول الدائرة سبع مرات ٠ وكلما توانى ركلته فى فخذه أو ضربته على رأسه ٠٠ وهذا جزاء الذى يقع فى الدائرة ٠

وظل الصبى كذلك ناسيا كل شىء الا هذه السعادة التى هو فيها ٠ الى أن وقف فجأة مضطربا ، حائرا ، يستمع الى صوت طبلة عم نوفل التى تناديه ٠ وينظر بعينيه الى الفتاة التى تريد أن تواصل اللعب معه ٠ ان شيئا ما يلح عليه أن يبقى ٠٠ وآخر يناديه أن يذهب ٠٠ انه قد وعد عم نوفل بالذهاب اليه هذه الليلة ، وهــو يريد أن يبر بالوعــد ٠ لا من أجــل تلك الصدقات التى سوف يظفر منها بنصيب ٠٠ وانما من أجل تلك الاجزاء الثلاثة من القرآن التى لم يحفظها بعد ٠٠ ويخشى أن يتسلل خبرها الى أبيه عندما يجىء من التفتيش ليلة الجمعة ، فيثور ويغضب ٠٠ وسوف يفضح سره عم نوفل ان هو أخلف وعده معه هذه الليلة ولم يذهب اليه ٠٠ وهو ان أذاع سره هذا فلن يذيعه فقط ٠٠ وانما سيذيع معه أنه هرب منه أكثر الليالى التى مضت ٠٠ وسيذيع أيضا أنه سرق البيض من أمه واشترى به « حلاوة طحينية » ومن يدرى ربما لم يكتف بالحقائق فيضيف اليها أشياء ويختلق معها أشباه ٠٠ ويقول له مثلا أنه لم يحفظ بعد شيئا من تلك الاجزاء الثلاثة ، مع انه يعلم علم اليقين ٠٠ أنه يحفظ عم وتبارك عن ظهر قلب ٠٠ وان الذى ينقصه فقط فى جزء قد سمع هو التجويد ٠٠

ونظرت الفتاة الى الصبى الذى توقف عن اللعب فجأة ٠ والى عينيه المضطربتين وقالت فى دهشة :

ـ امام .. مابك ؟
ـ لا شيء .
ـ هل تعبت ؟
ـ لا .. فقط أريد أن أذهب الى عم نوفل ..
والفتاة تعلم مدى النفع الذى يعود على الصبى من مصاحبته عم نوفل فى هـــذه الليالى .. لذلك قالت له متهللة الوجه مصطنعة الضحك والسرور :
ـ اذهب .. اذهب اليه ..
ـ وأنت ؟
ـ سألعب قليلا .. ثم أنصرف الى البيت ..
وكأنه كان ينتظر منها أن تنصرف معه فقال :
ـ لقد دقت الطبلة ..
فقالت ضاحكة وهى تتناول فانوسها من على الارض وتهم باللحاق بالصبية الآخرين :
ـ بدرى ..
وأراد الصبى أن يقول لها شيئا آخر ولكنها كانت قد غابت عن عينيه ، فانصرف الى المسجد حيث عم نوفل الذى التقى به على باب المسجد ، يحمل جواله الذى صنعه على هيئة مخلاة علقها بحبل على كتفه ، كما علق الطبلة التى كان يحملها على صدره بحبل فى الكتف الثانية . وأمسك بيده اليمنى عصاه السنط الغليظة يدق بها الارض ، كما يدق بعصا أخرى صغيرة أمسك بها فى يده الثانية ، على الطبلة . فاقترب الصبى منه دون أن ينبس ومد اليه ذراعه الصغيرة ولفها على ذراع الشيخ .. ومن ثم سار بجانبه ، يستمع كما يستمع كل ليلة الى الشيخ وهـــو يردد مترنما بصوته الاجش المبحوح ، سجعاته المعروفة المتكررة التى لا تتغير « يا سيد فلان يا أصيل الجدود ـ يالى العطا طبعك . وأصلك يجود » وكان كل من فى القرية عند عم نوفل .. أصـــيل الجدود . وكانت لعم نوفل قدرة عجيبة فى معرفة البيوت وأسماء سكانها . فما كان على الصبى عندما يبلغ أول الزقاق .. أو الحارة .. الا أن يقف به ويهمس له باسم الحارة أو الزقاق فقط .. فيعرف هو على الفور بيوت الحارة أو الزقاق بيتا بيتا . ويردد أسماء سكانها اسما اسما . وهو يدق على الطبلة مترنما سجعاته . ويظل كذلك ولو وقف طول الليل .. حتى يفتح الباب .. ويخرج صاحب البيت أو صاحبته أو أى انسان آخر ويناول الصبى ـ ما يجود ـ به فيتناوله الصبى صامتا ويضعه فى الجوال ثم ينصرف الى بيت

آخر .. وكثيرا ما كان الشيخ يسأل الصبى بعد أن يغلق الباب، عن الذى وضعه فى الجوال فيخبره الصبى عن الصدقة التى تصدق بها صاحب البيت او صاحبته ، خيارة ، قطعة جبنة ، قطعة عجوة ، كعكة ، شقة بطيخ ، وكانت قسمات وجه الشيخ تنفرد وتنقبض وفقا لاجابات الصبى .

وظلا كذلك يسيران الى أن بلغا دوار العمدة ، وكان العمدة يتناول سحوره هذه الليلة على المصطبة أمام الدوار ورأى الصبى ما حفلت به ـ الطبلية ـ من طعام شهى . فهمس بذلك سريعا للشيخ . وقد كان الاتفاق بين الصبى والشيخ أن يهمس له الصبى بكل شيء . وما أن قال الصبى للشيخ ما قال حتى تسمر الشيخ فى مكانه .. وقد تهلل وجهه وانفرجت أساريره .. وتطلق جبينه المترهل .. واهتزت يده مرتعشة على العصا وكأنها ترقص طربا .. ومن ثم راح بصوته الاجش المبحوح يرسل فى الليل عقيرته . متغنيا بسيد القرية ، بل سيد القرى جميعا وعمدتها الذى بعث الله به اليها ، ليهديها من ضلال ، ويخلقها من عدم . معددا مناقبه وأخلاقه وصفاته وكريم سجاياه وأفضاله على الدنيا كلها . وحسناته على الناس والخلق أجمعين . ثم راح يصف كسمه ورسمه وجماله .. ثم أصله وفصله وفرعه وسلالته التى تنتمى الى الانبياء والرسل .. وظل كذلك حتى استنفد الشيخ كل ما فى جعبته . ولم يبق فيها شيء يقال لأحد ولا حتى لله نفسه . وقد أثلج هذا المديح صدر العمدة .. وملأ قلبه غرورا وكبرياء .. ومشاعره لذة وابتهاجا . فلم يصرفهما كالعادة سريعا بشيء يجود عليهما به من الذى حفلت به « الطبلية » امامه ، وانما ظل يصغى الى هذا المديح ويستمع فى نشوة الى هذا الثناء والى أصله الكريم الجدود .. وشجرته التى أصلها فى الارض وفرعها فى السماء ، وسلالته التى تتطاول على الخلق أجمعين بانتمائها الى الانبياء والرسل . حتى تعب الشيخ وتصبب العرق من جبينه المتجعد ، وسال قنوات على تلك الاخاديد التى أحدثها الزمن فى وجهه وجول عينيه ، حتى بح صوته وخفت وغدا أشبه بمواء القطط وهى تلف حولك وتبصبص لك بذنبها مستجدية وتتمسح بك لتطعمها . ولما بلغ الشيخ هذا الحد من الاعياء ، وعجز صوته عن ان يصل الى الآذان واضحا ، أشفق عليه العمدة اذ رفع يده واشار الى الصبى ، فترك الصبى الشيخ سريعا ، وقفز اليه كما يقفز كلب الصيد الى القنص ، ولما مثل أمامه ، مد الرجل يده اليه واعطاه ورك دجاجة سمينة كانت فى يده . فتلقفها الصبى

غير مصدق ، ولما عاد الى الشيخ لم يضعها في الجوال كبقية الصدقات الاخرى ، وانما حشرها في جيبه سريعا ، وحشر فوقها ايضا ورقة صفراء خشنة كانت في يده وحشر هذه الورقة جيدا وباحكام • وهو لم يفعل ذلك خشية على جيبه أن يتلوث ، وانما حرصا على ألا تنفذ رائحتها الشهية الى خياشيم الشيخ ، فيعرف الحقيقة • ومن ثم تأبط ذراع الشيخ وانصرف معـــه • وفي الطريق ، وبعد أن ابتعدا قليلا ، ارتسمت على وجه الشيخ هالة من نور ، وهو يلتفت الى الصبي قائلا :

ـ ماذا أعطاك سيدنا العمدة ؟

فقال الصبي في خبث وخوف وهو ينظر الى عيني الشـــيخ المغلقتين وكأنه يخشى أن يرجع اليهما البصر :

ـ كسرة من الخبز وبعض من عظم الدجاج •

فتلاشت تلك البسمة التي كانت تتألق على وجه الشيخ وقال مقطبا في تحسر شديد :

ـ لهم اللحم • ولنا العظم •

فقال عم فضل السقاء ، وهو يقترب منهما لاهثا يحمل على ظهره قربة ماء كبيرة ، وكأنه يحمل أعباء الدنيا وأثقالها فوق ظهره :

ـ ولهم الدنيا ولنا الآخرة يا عم نوفل •

فابتسم الشيخ ابتسامة صفراء وقال في ضيق وهو يتمتم بصوت خافت وكأنه يخاطب نفسه :

ـ ومن الذي اختار لنا هذا ؟

ـ استغفر •• استغفر يا نوفل •• وفي الســـماء رزقكم وما توعدون •

نطق عم فضل هـــذه الكلمات في سرعة ردت الى الشـــيخ صوابه ، وجعلته يفطن الى ما قال ويكفر عنه سريعا • فحوقل واستغفر وبسمل وهمهم بشفتيه وهو يتلو في صوت مسموع « قل أعوذ برب الناس • ملك الناس اله الناس • من شر الوسواس الخناس • الذي يوسوس في صدور الناس • من الجنة والناس » •

قالها الشيخ وهـــو يمسح على شفتيه ويقول مخاطبا عم فضل :

ـ صحيح يا فضل •• الخير فيما اختاره الله •

فقال الصبي للشيخ وهـــو يتحسس بيده الكنز الذي في جيبه ويحشر فوقه الورقة مرة أخرى حتى لا تنفذ رائحته :

ـ عم فضل دخل بالقربة حارة الدناصوري •

فصمت الشيخ ولم ينطق ، وظل صـــامتا ، حتى بلغ به

الصبى نهاية الحائط ودخل معه الدهليز • فالقى بالجوال فى وسطه كما ألقى بجسده المتعب بجواره • وبعد أن استراح قليلا ، دس يده فى قلب الجوال وأخرج منه بعض الطعام • أكل منه ما شاء ثم تركه كالعادة الى الذين يقطنون الدهليـــــز ، فتجمعوا حول الجوال وتهافتوا عليه ينبشون بأظافرهم فى قلبه ، كما تنبش الكلاب فى صناديق القمامة تماما • وانصرف هو الى المسجد ، ليؤم بالناس صلاة الفجر •• أما الصبى • فقد اختفى عن الانظار حتى عن أمه ، وجلس بجانب الحائط من الحارة فى الظلام وأخرج من جيبه ورك الدجاجة ، وهم أن يأكل، بيد أنه تذكر شيئا ، أوقفه عن الاكل وجعل يده ترتد بالكنز الذى فيها •

حقيقة أن سلوى سوف لا ترحب كثيرا بهذه الهدية لانها تاكلها كثيرا ، وما من يوم يمر الا ويرى امام باب بيتهـــا ريش الدجاج وعظمه ، وفى غير رمضان أيضا • وهى ربما ترفضها لانها لا تحب كبنات الاغنياء أن تشارك فى طعام يتصدق به الناس • ولكن من يدرى ربما لا ترفضها من يده هو ! وحتى لو رفضـــتها فسوف لا ترفض الاعتزاز بهذا الصــنيع الذى هو غاية ما فى طوقه ، وسوف تشعر بأنه يتذكرها دائما حتى فى الشىء الذى ياكله • ولكن أين هى الآن ؟ هل عادت من الجرن هل نامت ؟ هل ينتظر الى الصـــباح ولا يأكل ورك الدجاجة الليلة ؟ أيبقيه معه حتى يلتقى بها ؟ وبينما هو يفكر هـــذا التفكير اذ بباب بيت الناظر يفتح ويخرج منه الاستاذ الشرنوبى ابو اســـماعيل بطربوشـــه الاحمر القانى وجلبابه الابيض الناصع ، والقبقاب فى قدمه فى طريقه الى المسجد لصلاة الفجر جماعة ، وما أن اقترب قليلا ورأى الصبى حتى قال له :

ـ لماذا أنت وحدك فى الظلام يا امام ؟

فقال الصبى وعينه ما زالت معلقة بالباب الذى خرج منه الناظر :

ـ كنت أصحب عم نوفل للمسجد •

فقال الناظر مداعبا وهو ينصرف :

ـ حسبتك ستصلى معنا الفجر •

ووجد الفتى نفسه يلحق به ويسأله : ـ هل سلوى نامت ؟

فقال الرجل مستطردا فى مداعبته :

ـ وهل العفاريت تنام • ما زالت على السطح تلعب بحجة انها تنتظرنى حتى أعود من المسجد •

فغمرت الصبى فرحة لم يكن لينتظرها ورجع يركض الى الدهليز • وذهب الى السلم الخشبى الملقى على جداره من الداخل وراح يقفز عليه كما يقفز الارنب فى الليل حتى بلغ سطح الدهليز ومن ثم وقف يتلفت على سطح بيت سلوى الذى يجاور سطح الدهليز مباشرة ، وما أن رآها لاهية مستغرقة فى اللعب تقفز تلك القفزات السريعة التى يمر مع كل قفزة من تحت قدميها الحبل الذى تمسك بطرفيه فى يديها • حتى أشار اليها اشارات سريعة جدا كمن يريد أن يلفت نظرها الى أمر هام ، فتوقفت عن اللعب ، ووقفت فى دهشة تنظر اليه من بعيد • ولما عاود اشاراته السريعة لها ، أقبلت عليه • ولما لم يبق بينها وبينه سوى الحاجز الصغير الذى يفصل بين السطحين سألته متلهفة وهى تحاول أن ترى وجهه من ''ف الحاجز ، فلا تستطيع :

ـ ماذا تريد •

فقال وهو يشب على قدميه ليراها • ويشير لها بيده أن تتبعه عند قبو الطاحونه وهو الذى ينتهى بالسطحين من الخلف وينتهى عنده الحاجز أيضا • وهى طاحونة مهجورة تهدم سقفها ، وتعود سكان الدهليز أن يحفظوا فيها الروث والنفايات الجافة والتبن الذى تأكله الماشية فى الصيف ، فازدادت دهشتها وقالت :

ـ لماذا ؟

ـ معى لك هدية حلوة ••

ـ ابقيها الى الصباح ••

ـ تحمض ••

ولما عرفت أن الهدية تؤكل تلاشت الابتسامة الخفيفة التى كانت قد ارتسمت على ثغرها ، وقالت وهى تهم أن ترجع :

ـ أنا تعشيت ••

ـ أرجوك ••

نطقها الصبى فى ذلة وفى رجاء ملح يشوبه الم خفيف، استشعرته الفتاة وأحست به وأشفقت على الصبى من أن ترفض له طلبا يحزنه الى هذا الحد أن يرفض • فراحت تركض بجواره على السطح وبينهما الحاجز ، ويركض هو بجوارها فى الليل وكلما تحسس الكنز الذى فى جيبه غمرته فرحة لا حد لها • وكلما رأى الفتاة بجواره تركض لتقتسم معه ورك الدجاجة •

ووقف الصبى أمامها يرتجف يريد أن يقول لها شيئا ••

بيد أن هذه السعادة تبددت فجأة ، أو لعلها تبددت بشىء آخر

لم يكن الصبى ليعرف أن له وجودا فى الحياة · فقد حدث أنهما عندما بلغا قبو الطاحونة سقطا معا فى قلبها ، كما تعودا أن يسقطا دائما فى قلبها وهما يلعبان غير أن سقوطهما هـــذه المرة جاء فوق كومة عالية من التبن انهارت بهما معا · فتعالى صراخهما الضاحك ، وصخبهما المرح ، وكل منهما يحــاول أن يمسك بصاحبه حتى لا يسقط فوق الارض · وكادت هى تسقط فعلا فمد يده سريعا ليمسك بها ويمنعها من السقوط · وما أن فعل حتى رد يده سريعا ايضا ولكن فى غضب وقد تجهم وجهه فجأة واربدت سحنته وهو يقول لها فى صوت خشن لم يتعود أن يخاطبها به من قبل :

ـ أهكذا تكذبين على ؟

فانعقد لسان الفتاة دهشة وقالت فى استغراب شديد وهى تنظر اليه :

ـ أنا كذبت عليك يا امام ·· وفى ماذا ؟

ـ تسرقين الكرة ، وتخفينها فى ثيابك ، ثم تدعين عــــدم رؤيتها ·

فازدادت دهشة الفتاة الى حد كبير وهى تقول :

ـ أنا سرقت الكرة يا امام ··

فقال الصبى فى غضب :

ـ أيوه ··

ـ من قال ذلك ؟

فنظر اليها مشيرا الى مكان ما فى الصدر وقال :

ـ اذن ما هذا الذى تخفينه فى صدرك ؟

ونظرت الفتاة سريعا ودون وعى الى المكان الذى يشير اليـه وما أن رأت « الكرة » التى أخفتها فى صدرها حتى اضطربت أنفاسها ، واحمر وجهها خجلا وتوردت وجنتاها وغدت بلون الدم ، ولهثت أنفاسها ، كمـــــا تعالت دقات قلبها فى سرعة شديدة ، وأطبقت شفتيها فلم تجب ·

ورأى الصبى كل ذلك ، وظن أن اكتشافه « للجريمة » هو الذى أخزاها كل هذا الخزى ، وهو الذى ورد وجنتيها حتى أحالهما هكذا الى هذه الحمرة القانية ، وعقد لسانها هكذا خزيا وخجلا واضـــطرابا · فقال وهـــــو يتركها وينصرف الى باب الطاحونة الموصل للحارة ، والغضب ما زال فى عينيه :

ـ سأخاصمك ·

فتمتمت الفتاة فى حرج شديد محاولة أن تحرك ساقها التى خدرت وتسمرت فى مكانها لتلحق به :

ـ ا ... ا ... امام ..
ـ لا تذكرى اسم امام ثانية على شفتيك ..
وكانت قد لحقت به .. فوقفت مرتبكة جـــدا ، محـاولة ما استطاعت أن تخرج نفسها من هذا الخجل الذى ألم بها ، وهذا الاضطراب الشديد الذى يكتنف كل جزء فى جسدها . وأخيرا استطاعت أن تنطق متمتمة فى صوت خفيض ملتهب أحست حرارته تنساب كألسنة اللهب من بين شفتيها :
ـ أنا لم أسرق الكرة يا امام ..
فالتفت اليها الصبى ، وقد آلمه أن تغالطه الى هذا الحد ، وقال فى حدة وغضب :
ـ وتكذبين أيضا ؟
ـ ولم أكذب ..
فقال متحديا فى غضب وثورة :
ـ أأكسفك . وأمد يدى الى صدرك وأخرجها منه .
فاضطربت الفتاة فى خوف شديد ، وقالت متلعثمة تنظر اليه ، ودقات قلبها أكثر خفقانا وأكثر عنفا :
ـ ان هذه ليست كرة يا امام ..
فالتمعت عيناه فى الظلام وهو ينظر اليها فى غيظ ويقول فى نفس السرعة التى مد بها يده الى صدرها :
ـ اذن ما هذه ..
وما أن فعل حتى ارتدت يده فجأة .. مضطربة .. ترتعش فى خوف وألم كأن أحدا ضربه عليها ضربة موجعة . ومرت به لحظات ثقال راح فيها يلهث وهو مغمض العينين ، وقد أحس بدوار شـــديد جعل جسده كله أشـــبه بدوامة تلهث فيها أحاسيسه ويغلى فيها دمه ، وتصطرع فيها عواطفه .. ويختلط بعضها ببعض فى عنف وقسوة .
ووقف الصبى أمامها يرتجف يريد أن يقول لها شيئا .. يريد أن يعتذر لها عن هذا الجرم الذى ارتكبه .. عن هذه التهمة التى اتهمها بها .. يريد أن يقول لها شيئا آخر غير هذا كله .. ويعتذر لها عن شىء آخر غير هـــذا كله .. يريد ان يتحدث اليها عن يده هـــذه التى « تطاولت » دون قصد .. ولكن هل لابد ان يعتذر .. الا يكفى كل هذا الذى يعانيه ، ألا تكفى هذه النار التى حرقته .. هذه الدوامة التى يصطرع فيها كيانه كله الآن .. الا يكفى كل هذا ؟؟ وهل اذا اعتذر لها سيقول لها كل شىء ، ثم ما هو هذا الشىء الذى سيقوله لها .. يعتذر لها عنه .. انه هو نفسه لا يعرفه .. انه يحس

به فقط •• ويحس به أشبه ما يكون بثعبان كبير يستيقظ ويتثاءب ويتمطى في جسده فيشد معه الجسد كله شدا عنيفا الى شيء مجهول •• شيء جعله فجأة انسانا غير الذى كان •• انسانا يزيد عن عمره بسنين طويلة • يزيد عن قوته بقوى اخرى هائلة •• انه الآن اشبه بعملاق يستطيع ان يفعل كل شيء • وان يطبق على كل شيء • وأن يحطم ايضا كل شيء فهل يقول لها هذا •

هل يتحدث اليها به أم يتحدث اليها عن شيء آخر يعانيه الآن •• هل يحدثها عن لسعات هذه النار التى تلدغ كل كيانه حتى لتكاد تشويه •• تحرق احاسيسه حتى لتكاد تحيلها الى رماد •• تعض جسده حتى لكأنها ناب الثعبان الذى يتمطى فى كيانه ••

ولكن ما هو هذا الشيء الذى له كل هذه القوى •• كل هذا السحر ؟ فيه هذه النار •• وفيه أيضا هذا النور •• فيه الضعف والقوة •• فيه الرضا به والسخط عليه •• فيه الشوق اليه والخوف منه •

وهل هى أحست به أيضا ؟ هل تعرفه ؟ هل الم بها كما الم به الآن ؟ هل تفتحت له أحاسيسها فى نشوة كبيرة •• كما تفتحت لها احاسيسه فى نشوة كبيرة •• ام حرقتها ودمرتها كما حرقته الآن ودمرته ؟؟

مرت به كل هذه الاحاسيس سريعا وهو ما زال بجوارها مغمض العينين وذراعه التى تؤلمه مدلاة بجانبه أشبه ما تكون بثعلب صغير ميت علقه فى كتفه •• ولما رأته كذلك أشفقت عليه وجاهدت نفسها حتى أزاحت عن وجهها المتورد وعينيها المحمرتين بعض الخجل الذى ران عليهما •• وحركت شفتيها فى جهد لا حد له وتمتمت بصوت خجول جدا •

ـ امام ••

ولما لم يجب استطردت :

ـ أنا مسامحاك ••

وهم هو الآخر أن يفتح عينيه • •ويجاهد نفسه ليقول لها شيئا • ولكنه سمع غيره يقول لها :

ـ أما زلت ساهرة ؟

فارتمت الفتاة فى أحضان والدها وهى تقول ضاحكة :

ـ كنت أنتظرك حتى تصلى الفجر •

فقال الشيخ نوفل الذى كان يتوكأ على عصاه ويسير بجواره ، وكأنه يتم حديثا بدأه :

ـ وانشاء الله الاقامة ستكون فى مصر نفسها ..
ـ طبعا ما داموا قد نقلونى اليها .
ـ ومتى السفر انشاء الله ؟
ـ أغلب الظن غدا .. أو بعد غد ..
فقال الشيخ الضرير فى ألم وهو يدخل معه الحارة :
ـ ستعيش القرية حياتها تذكر ابنها البار .. فهل ستتذكرها أنت .. يا أستاذ شرنوبى .

ـ وهل ننسى الاهل .. والذكرى الطيبة يا شيخ نوفل .
وكادت تدمع عين الشيخ نوفل وهو يصافحه وينصرف الى الدهليز ، كما انصرف الاستاذ الناظر وابنته سلوى الى البيت.

الفصل الثالث

كان الصبى فى الظـــلام يصــغى
الى هـــذا بانتباه · ثم انصرف هـــو
الآخر ·· ولـــكن الى أين ؟ لا يدرى ·

هـل انصرف الى الدهليز ونـــام فى الحجـــرة مع أمــــه التى تشكو داء الكبد وتعانى من آلامه ما عجزت عنه وصـفات القرية جميعا · وعجزت عنه أيضــا تذكرة داود التى يحفظها عن ظهر قلب الاسطى شلبى ــ حلاق الصحة ــ أم نام الصبى فى تلك الليلة فى مكانه خلف جدار الطاحونة ؟ وهل نام نوما هادئا · أم ظل نائما ليستيقظ أو مستيقظا لينام ؟!

وهل داعبته فى النوم تلك الاحلام المزعجة المخيفة التى مرت به وهو نائم ·· أم هو لم ينم وانما ظل مستيقظا ·· يصغى بانتباه الى ذلك الحديث القصير الذى دار بين الرجلين والذى كان لمعانيه والفاظه فعل النار فى أذنيه ·· انه لم يذكر أبدا شـيئا من هذا كله وانما الذى يذكره جيدا انه بعـد صلاة العصر فى اليوم الثانى وهو فى المسجد يجلس أمام الشيخ متربعا بجوار المنبر يهتز ويميل ذات اليمين وذات الشمال ويده عـلى صـدغه وهو يتلو ويجود السورة الاخيرة من (قد سمع) ، اصـطدمت يده بشىء كان فى جيبه · ولما تبينه بعد أن خرج من المســـجد وجده ورك دجاجة أزرق اللون يتصاعد منه رائحة عفنه كريهـة ومد يده وألقى به لكلب كان يسير بجواره فى الطريق ·· ومن ثم واصل السير ··

ودلف سريعا الى الدهليز ودخل الحجرة التى تنام فيها أمـــه ·· ولمـــا لم يجدها اقتحم بابا صـــغيرا يفصل بـــين الحجرة و « التعريشة » وهى خلف جدار الدهليز بجوار الطاحونة ·· ذات أربعة جذران مجدولة من أعـواد الحطب والبوص وعيدان الاذرة ، وسره أنه رأى أمه معافاة متمالكة قواها ، وقد علفت الجاموسة واشعلت الكانون ووضعت القدر عليه ·· وشـــــم الصبى رائحة البخار التى تتصاعد من القدر ·· ونظر فى داخله فرأى بعض حوافر الماعز وارجلها تتناهبها النـــار فى قلبـه ،

تغوص حينا وتطفو أحيانا . فتذكر ان اليوم يوم الخميس ، وهو اليوم الذى يجىء فيه أبوه من التفتيش ليبيت معهما فى القرية تذكر الصبى كل هذا وطرب له ، وزاده طربا هذاالاهتمام الزائد الذى تظهره أمه دائما فى كل مناسبة لابيه . لذلك قال لها فرحا وهو يرتمى فى احضانها كطفل :

ـ لماذا لا تريحين نفسك وتكلفيننى ببعض هذه الاعمال ؟

فقالت ضاحكة وهى تربت على كتفه فى حنان :

ـ لو أنك فتاه لعلمتك كيف تحلب الجاموسة وتجلس أمام الكانون ، وترتق لى ولأبيك الثياب . ولكنك رجل .

فقال الصبى ضاحكا وهو يقبلها عند كتفها :

ـ وبماذا يكلف الرجل ؟

ـ أن يحفظ القرآن .. ويذهب الى المعهد .. وينال الشهادة ويصبح « خوجه » كما نريد له أمه ، ويتمنى له أبوه ..

فقال فى مرح وهو يقطب ويقفل ما بين حاجبيه مداعبا :

ـ اننى أقصد الآن ..

فقالت وهى تنحيه بعض الشىء وتمسك بملعقة كبيرة من الخشب وتديرها فى قلب القدر :

ـ أريدك ان تذهب الآن الى بيت عمك الناظر .. لتشحت لنا من خالتك الست صبرية رأسا من الثوم ..

فنهض الفتى سريعا ليقوم لامه بهذه المهمة .. بيد أنه عند الباب تذكر شيئا فوقف مترددا .. وكاد ان يرجع ثانية لولا أنه وجد نفسه أمام بيت الناظر يدق بيده على الباب دقات تكاد لا تحدث صوتا ولا يكاد يسمعها أحد ومع ذلك فقد سمعتها الست زوجة الناظر التى فتحت الباب وقالت مبتهجة للصبى عندما رأته :

ـ امام تفضل ..

نسى الصبى الشىء الذى جاء من أجله ووجد نفسه يسأل مرتبكا وهو يمد نظراته المضطربة .. ويتسلل بها خلسة داخل الدار :

ـ اين سلوى ؟

فقالت الست صبرية فى ابتهاج شديد وهى تمد يدها الى

الشال القطيفة الاحمر الذى على رأسها ٠٠ وتغطى به شيئا كان قد لاح عند الكتف :

ـ ذهبت مع عمك الناظر الى مصر ٠٠ لترى البيت الجديد الذى سنقطنه هناك ٠٠

فانعقد لسان الصبى فجأة ٠٠ وتعالت دقات قلبه حتى فاضت على أذنيه فلم يسمع جملتها الاخيرة وهى تقول له بأنها ستعود الليلة ٠٠ بيد أنه بعد جهد تمتم فى صوت خفيض جدا ووجهه الى الارض :

ـ أمى تريد رأسا من الثوم ٠٠

فظنت المرأة الطيبة القلب ان هذا الطلب الصغير هو الذى أخجل الصبى واربكه الى هذا الحد ٠ ولا سيما وانها تعلم عنه أنه كثيرا ما يرفض ان يطلب شيئا من أحد ٠٠ وكثيرا ما كانت تقدم له وهو يلعب مع سلوى بعض الحلوى ٠٠ فكان يرفضها ولا يقبلها الا بعد الحاح ، لذلك تعمدت الابتهاج والترحيب وتركته سريعا ولم تمكث غير قليل حتى عادت وهى تحمل فى يدها عدة رؤوس من الثوم ناولتها له وهى تقول :

ـ اتفضل ٠٠ غالى والطلب رخيص ٠٠

فلم يلتفت الصبى الى هذا القول ٠٠ ولم يشكرها أيضا على هذا الفضل وانما وجد نفسه يسألها هذا السؤال الذى اضحكها كثيرا :

ـ هل المسافة من هنا الى مصر بعيدة ؟

فقالت ام سلوى ضاحكة فى سذاجة وهى تربت على كتفه

ـ ان مصر لا تبعد أبدا على حبيب ٠٠

الفصـــل الرابع

أقبل المساء فى ذلك اليوم سريعا
جدا أكثر مما كان ينتظر له الصبى ان
يقبـــل ٠٠ واقبل معه والـــده متعبا
مكدودا يحمل على كتفه خرجا كبـيرا

امتلأت احدى عينيه بكيزان الذرة الجافة وامتلأت العين الاخرى بحبات الشعير المخلوطة بالحلبـة ٠٠ وثلاث اقات من الخيـــار « الصيفى » الذى يميل الى الصفرة دفنت جميعها فى عين الخرج التى يحملها الرجل على صدره ما عدا خيارة واحدة بقيت عـــلى الوجه أكل نصفها وبقى النصف الاخر ملوثا تنطبع عليه ثلاث نقاط سوداء تكاد تكون ثابتة ولكنك لو تأملتها قليلا لوجدتها ثلاث ذبابات تأكـــل فى قلب الخيارة ولعلها رافقت الرجل من أول الطريق ٠٠

وما كاد يختـرق الدهليز ويدلف الى الحجـــرة ، حتى ألقى بالخرج لاهثا وقعد بجواره محاولا فى عناء شديد ان يســـترد بعض أنفاسه ليحيى زوجته بكلمة ولكنه لم يقدر ٠ ونظـــرت اليه آمنة ورأت وجهه المصفر وعينيه الغائرتين وعنقه الذى يهتز بين عظمتين بارزتين فوق الصدر ٠ وكأنها اشفقت عـلى الرجل من كل هذا العناء ٠٠ فقالت وهى تنظر الى الخــرج وكأنهاتنظر الى شىء بغيض :

ــ أفى هذه السن وهذه المتاعب وهذا الشقاء كله وتحمـــل هذا الخرج على كتفك وتسير به ثلاث ساعات عـــلى قدميك ٠

وكان الصبى فى هذه اللحظة قد دلف الى الحجرة وارتمى فى أحضان والده الذى نسى كل شىء الا فرحته بلقائه وقـــال وهو يمد يده الى طرف ثوبه ويجفف به العرق الذى ما زال يتصبب من جبينه ، ويتساقط على عينيه :

ــ كان لابد لى من ان أجىء فقد بلغنى نبأ سار فرحت له كثيرا ٠

فقالت آمنة وقد انفرجت شـفتاها عن ابتسامة عريضة ٠
ــ خيرا ٠٠ ان شاء الله ٠٠

ـ بلغنى أن امام أتم حفظ الواجب ‥ وسوف يؤهله هـذا لدخول المعهد هذا العام ‥

فقال الصبى على الفور وهو يعانق والده ويلقى بذراعيه الصغيرتين حول عنقه :

ـ واليوم أيضا انتهيت من تجويد كل ما حفظت من القرآن، ولم يعجب هذا الحديث الام ، ولم تطرب لهذه الانبـــاء ، ولذلك قالت وهى تتحسس وجهها وتتناول الطبلية من جوار الحائط وتضعها بينهما :

ـ حسبتك ستقول غير هذا ‥

فقال الاب :

ـ ألا يسرك أن ترى ابنك يحفـظ القرآن ويحمل الشـهادة ويصبح خوجه كخوجات مدرستنا الذين ينعمون بالمنصـب والجاه ‥ ويتمتعون ببسطة فى الرزق يا آمنة ‥

فقالت ضاحكة وهى تمد يدها الى قلب القدر وتفرغ ما فيه فى طبق كبير من الفخار كان امامها على الطبلية :

ـ لو كان الامر بيدى ، لفضلت له أن يذهب معك الى الحقـل ويحمل عنك بعض العناء الذى تقاسيه ، والا لماذا يجىء الآباء بالابناء ان لم يحملوا عنهم بعض العبء يا بلتاجى ‥

فتنغص وجه الرجل ، ولمعت عيناه ، وتدهورت منهما سريعا بعض نظرات قاسية حمراء ‥ وقال وكأنه يلفظ أنفاسه مع ما يقول :

ـ انك اذن تحكمين عليــه بالموت يا آمنة . فلو أن أباه لم يكن جاهلا ، وكان يعرف حتى كيف يفك الخط لتغير مصـيره ‥ وكان الآن عـــلى الاقل فى التفتيش كاتبا للشغالة بثلاثة جنيهات بدل الجنيه والنصف الذى لم يزل واقفا منذ عشرين عاما . والذى منذ عشرين عاما أيضا يكاد يقتلنى الخـوف عليه ان ينقص ، أو يمسه القدر بسوء .

ـ انها أرزاق يا بلتاجى ‥

ـ ولكنها لم تكن عادلة يا آمنة ‥

ـ استغفر . استغفر يا شيخ ‥ لم يعد فى العمر بقيـة وكل ما يأتى به الله خير ‥

فتمتم الرجل مستغفرا . وهو يتناول قطعة من حافر الماعز ويلوكها بين شدقيه .. وما ان استشعر لذتها حتى تطلــق وجهه ، وارتسمت فرحة كبيرة فى عينيه وهو يأكل ويقــول للصبى الذى يأكل معه صامتا :

ـ لو انك كنت تحبنى حقا لدعوت لى ربك ان يمد لى فى العمر ويبقى لعينى هذا البصيص من النور ، حتى أراك «خوجه» فى مدرسة قريتنا ترتدى الكاكولة . والقفطان .. والجــورب والحمالة الاستك ..

وكأن الصبى أراد أن يقول شيئا يطمئنه به أو كأنه أراد أن يعده بتحقيق هذا الرجاء . ولكنه قبل أن ينطق كان بابالحجرة قد فتح وظهرت منه عصا الشيخ نوفل الطويلة وما ان تخــطى العتبة وشم رائحة الكوارع حتى قال :

ـ مساء الخير يا بلناجى ..

ثم هو لم ينتظر حتى يرد عليه الرجل تحيته بلواصل حديثه قائلا :

ـ كيف تأكلون الكوارع خلسة ، ولا تدعون اليها حبيبهــا المتغنى بها أثناء الليل وإطراف النهار ..

فقال الرجل ضاحكا وهو يفسح له مكانا بجواره :

ـ حماتك بتحبك يا نوفل ..

فقال الشيخ ممتعضا وهو ما زال فى مكانه :

ـ أنزل الله عليها وابلا من غضبه . لا تذكرنى بها يا بلتاجى

فقالت آمنة ضاحكة :

ـ ياشيخ . لقد ماتت من خمسين عاما . حرام عليك ؟

فقال الشيخ وكأنه يدفع قوله بعصاه التى يدقبها الارض :

ـ عشت معها خمس سنوات ، وماتت من خمســين سنة . ومع ذلك ظلت ذكراها السيئة يا آمنــة تماما كالعقرب يموت وذيله ما برح باقيا .

فقال بلتاجى وهو يكاد يستلقى من الضحك :

ـ حرام عليك .

ثم استطرد بعد أن فرغ من الضحك :
ـ اجلس .. اجلس .
فقال الشيخ جادا :
ـ بل انهض انت .
ـ خير ، لماذا .
نذهب الى بيت الاستاذ الشرنوبى لنودعه مع المودعين سيرحل الليلة مع اسرته فى قطار الليل ..
وأحس الصبى فجأة بشىء من الخوف . وهو يسأل دون وعى :
ـ الليلة ! وهل رجع من مصر .
فقال بلتاجى الذى كان يجهل كل شىء :
ـ تقصدون الاستاذ الناظر .
فقالت آمنة فى تحسر :
ـ نقلوه الى مصر ، وحرمونا منه ومن أسرته وخلقها الطيب .
فقال بلتاجى فى حزن شديد وهو ينهض سريعا :
ـ كيف حدث هذا . كيف سنحرم منه ؟
فقال الشيخ نوفل وهو يخرج مع بلتاجى ويخترق معه ظلام الدهليز .
ـ أرادة الله يا بلتاجى .
ـ ولكن كيف حدث هذا يا نوفل .
فقال الشيخ ملتاعا فى غم شديد :
ـ كما يحدث دائما لهذه القرية المنكوبة يا بلتاجى .
يمر عليها الخير ولكنه لا يلبث فيها .
وصمت الشيخان ولكن الصبى الذى كان يسير خلفهما فى الظلام قال متسائلا :
ـ وهل هناك قطار يذهب الى مصر فى الليل ؟
فقال الشيخ نوفل وهو يتحسس عتبة الدهليز بعصاه :
ـ وحتى لو لم يكن يا بنى . فثق ان الله يخلقه سريعا . طالما فيه خير سيذهب عنا .
فقال بلتاجى :
ـ ولماذا يجزينا الله هذا الجزاء ـ يا نوفل ؟

ــ من أعمالكم صلت عليكم •
ثم اقترب منه ومد شفتيه الى أذنه وهو يهمس اليه فى الظلام:
ــ العمـــدة من ثلاثة أيام اشترى عشرة أفـدنة اضافها الى الاربعين التى عنده ، وأمس وبعد ان نبح صوتى ، وجف لسانى وانا أعدد أفضاله ومناقبه تصدق على بعظمة دجاجة •
فارتعش الصبى الذى كان يصغى الى هذا الهمس وقال وهو يشد كم الشيخ وينظر الى الحارة التى غصت بأهل القرية الذين جاءوا لتوديع الناظر :
ــ صه • العمدة أمامك •

وكاد الشيخ أن يسقط خوفا وذعرا لولا أن العمـــدة الذى لم يسمع شيئا قال فى صوته الجهورى الذى يميز من بين مئات الاصوات :
ــ سلامات يا شيخ نوفل •
ــ سلمت ودمت وبوركت وعوفيت يا سيدنا وتاج راسنا •
ثم عمل بلسانه سريعا بين شفتيه المضطربتين وقال :
ــ دائما سباق للخير ، ستحفظ لك القرية جميعها هذا الفضل الكبير ، فضل سعيك على قدميك لوداع رجل بار كالاســتاذ الشرنوبى أبو اسماعيل •

وأقبل ذلك الجمع الكبير يتقدمه العمدة على بيت الناظر حتى غصت به مندرته الفسيحة • فرحب بهم شاكرا لهم جميعا هذا الفضل الكبير ، كما راح الجميع يثنون على مناقبه ويتحـــدثون عن أفضاله الكبيرة على النشء وعلى أهل القرية جميعا • ثـــم وقف الاستاذ فتوح مدرس الخط بالمدرسة وألقى قصيدة عصماء عدد فيها مناقب الناظر • ولم ينس أن يثنى فيها على العمـــدة أيضا ويعدد مناقبه ويذكر اياديه البيضاء على القرية جميعهـــا مما جعل العمدة يتيه عجبا وفخرا • الى أن اقتربت الساعة من الثانية عشرة فاقبل حنطور العمدة على الحـارة لينقل الاسرة الى محطة الدلتا فى القرية ، أما الناظر فقد سار وسط الاهلين جميعا الذين جاءوا لوداعه عن يمينه وشماله العمـــدة والشيخ مأذون الشرع ، والاوسطى شلبى حلاق القرية ثم الاساتذة أهل العلم والفضل والادب من المدرسين فى مدرسة القرية • الى أن بلـــغ

الركب المحطة • وجاء القطار الذى اقبل بشعا كريها أشبه ما يكون بثعبان ضخم يزحف على بطنه فى الليل • فاضطرب الصبى الذى كان وحده دون المودعين جميعا يقف واجما فى ركن قصى خلف كشك المحطة ، ينظر ذات اليمين وذات الشمال ، يمد نظراته فى وجوه الناس جميعا • ويشب على قدميه حينا آخر وكأنه يريد أن يرى شخصا معينا بالذات • ولم يكد القطار يقف حتى لفظ خليطا من الناس ، ثم ابتلع فى نفس السرعة خليطا آخر ، وكان من بين الذين ابتلعهم الاستاذ الشرنوبى أبو اسماعيل ، والست صبرية زوجته • وابنتهما الصغيرة سلوى

وكما اقبل القطار بشعا كريها يزحف على بطنه فى الليل ويرسل صفيره الذى يشبه عواء الكلاب الضالة • انصرف أيضا بشعا كريها يزحف على بطنه فى الليل وهو ينعق كالبومة • ولم يدر الصبى لماذا تعلقت عيناه به ، وظلت معلقة فى اذياله حتى تلاشى • واصبح القطار الضخم فى عينيه اشبه بالذبابة التى تتناهبها فى الليل عاصفة هوجاء • فوقف صامتا وكأنه يتأمل التحول السريع فى كل شىء ، فى الايام والزمن ، والانسان ، والجماد ، الضحك ، والبكاء والقرب والبعد ، وليالى اللعب الهنيئة ، وساعات الجد القاسية •

ولم يخرج عن هذا التأمل أو هذا الجمود الذى اطبق عليه الا بعد أن رفع عينيه المبتلتين بالدموع فرأى ساحة المحطة التى كانت تغص بجموع المودعين موحشة خالية الا من ـ غنيم ـ خفير المحطة الذى أحزنه هو الآخر هذا الفراق ، يقبل من عند الصهريج بعد أن أقفل الطريق وراء القطار وأعاد التحويلة بالخطر • وهو يردد مغنيا فى الليل بصوت موحش حزين استمع اليه الصبى ، ووقف يصغى اليه جيدا والدموع تتساقط من عينيه ••

زُعق الوابور ، على السفر   قلت رايحين فين
رايحين تغيبوا سنه   ولا تغيبوا اتنين
ياللى ملكتوا الفؤاد   يا كحله جو العين

الفصل الخامس

لم تكن حياة الصبي في المعهد •
شقاء كلها • ولم تكن بؤسا كلها •
وانما تخللتها لحظات كثيرة من
السعادة ، غمرته وفاضت عليه ، وأسته كل شيء دونها • هذه
اللحظات هي لحظات نجاحه المطرد وقدرته الدائمة على الدرس
والتحصيل • ولذلك كان لتفوقه في العام الاول الاثر الكبير
في حياته • وفي نفسيته وفي مشاعره نحو نفسه ونحو
الآخرين • فقد تغيرت نظرته لكل شيء حتى نحو نفسه • فكلمة
الصبي أصبحت في خبر كان • وحلت محلها كلمة ـ الشيخ ـ
الشيخ امام ذهب والشيخ امام جاء • وساعده على ذلك بسطة
في الجسم وهبها الله له • حتى انه سبق سنه بسنوات • وغدا
فارع الطول عريض المنكبين قوى البنية ضخما عملاقا ، كما
وهبه الله أيضا جمالا في الوجه وصفاء في العين حتى خافت
عليه أمه • وراحت تحمله مالا يطيق من الاحجبة والتعاويذ التي
تقيه شر العين • وراح يقضي أيام الاجازات في القرية • لا كما
كان يقضيها فيما مضى يلعب في الجرن الاستغمانية وجمال
المالح ، وحلقه ومضرب او يسرق البيض من امه ويشتري بثمنه
الحلاوة الطحينية لتأكلها سلوى • أو يقود الشيخ نوفل في ليالي
رمضان ويطوف معه على الابواب مستجديا الصدقة • وانما كان
يقضي أيامه في القرية • اما في المسجد يصلي ويتعبد أو في
المدرسة يتحدث الى أساتذتها الذين سوف يكون معهم في القريب
العاجل • ويتفقد بعض الفصول ويصغي الى الاساتذة وهم يلقون
دروسهم على الطلاب • أو يذهب الى كتاب الشيخ عليش الذى
قضى فيه زمنا وتعلم فيه أحرف الهجاء ، وأحيانا كان يجلس في
الكتاب بدل الشيخ عليش ويلقي هو الدرس على الصبية • أو
يذهب الى المسجد ويؤذن في الناس بدل الشيخ نوفل • حتى
اذا ما انقضت أيام الاجازة وعاد الشيخ امام الى المعهد •
ترك فراغا كبيرا في كل أنحاء القرية • في المدرسة وفي الكتاب،
وفي المسجد ، وفي قلب أمه التي كانت تغمر الفرحة قلبها

كلما رأته مقبلا على الحارة يخب فى الكاكولة الكشمير والحذاء الاصفر الفاقع • وفى قلب والده الذى كلمـــا رآه وكان متعبا مكدودا أو يعانى مرض الشيخوخة التى داهمته سريعا • سعد وابتهج • وشفى من كل أمراضه • وظل ــ الصبى ــ أو الشيخ أمام هكذا من نجاح الى نجاح حتى جاء اليوم الفصل وهو امتحان المعهد الاخير الذى سينال فيه الشيخ تجهيزية الازهر وينتقل بعدها الى القاهرة • وكان نصيب الشيخ أكثر مما كان ينتظر وأكثر مما كان يتمنى ••

فقد نجح بتفوق كبير • لقد كان امـــام من الخمسة الاوائل الذين من حقهم على الدولة أن يدخلوا معاهدها الكبيرة ويتعلموا فيها بالمجان • ولم تكن فرحة امام بهذا النجاح العظيم من أجل نفسه ولا من أجل مستقبله الذى تحدد وانما من أجل أبيه الذى حقق له بعض آماله •• وحقق له مع هذا النجاح أشياء أخـــرى لا تقل اهمية على النجاح نفسه • وهى ان الدولة سوف تتكفل به • وسوف تريح والده من عناء كان لابد مجهده اذا ما ذهب الى القاهرة واحتاج الى نفقات العلم بجانب نفقات الحياة • لذلك ما ان علم امام بهذه النتيجة السارة حتى رجع الى القرية سريعا تسبقه أشياء كثيرة •• كثيرة جدا يريد أن يزفها لأبيه • بيد أن الله الذى يرأف بالصالحين من عباده ويهيىء لهم من أسباب النجاح والهناء والسعادة أكثر مما يقدرون ، يعود لحكمة يعرفها فيقسو عليهم ويصيبهم دون أن ينتظروا بشقاء ليس من سبيل الى احتماله ، وليس من سبيل أيضا الى الصبر عليه •

فقد رجع الفتى الى القرية عصر ذلك اليوم فرحا مسرورا •• وما أن أقبل عـــلى الحارة تسبقه هـــذه الفرحة الغامرة ، حتى استوقفته الحـــاجة مقبولة وقالت له وهى تذب بمذبتها اللوف أسراب الذباب المتجمعة فى قلب صندوقها الفارغ وبصوت يذوب أسى ولوعة وحزنا :

ــ كن لامك المسكينة عوضا لها عن أبيك • ومن أنجبك يابنى لم يمت ••

الشباب..

الفصل السادس

قال خاله لامه ، بعد أن شيعوا جثة والده وعادوا الى البيت :

ـ ان عليك أن تخلى حجرتك فى الدهليز يا آمنة ليقطنها الخولى الجديد.

فامتقع وجه آمنة وقالت وهى تمسح بعض الدموع التى على شفتيها المقرورتين :

ـ أهكذا سريعا يا عبد العزيز .

ـ انه سكن الخولى يا آمنة .. وقال لى الناظر اليوم ونحن نشيع الجنازة أن خوليا جديدا قد عين خلفا للمرحوم .

ـ لعلهم كانوا ينتظرون موته .

نطقتها آمنة وهى تغمض عينيها المقرحتين .. ثم عادت وفتحتهما وقالت وهى تنظر الى الارض ، وكأنها تبحث عن شىء عند قدميها :

ـ ولكن أين سأقيم وأنا مريضة كما ترى ؟

فصمت شقيقها لحظة ، ثم تمتم وكأنه ينتزع الكلمات انتزاعا من بين شفتيه :

ـ فى بيتى يا آمنة .

فاضطربت فى خوف شديد وقالت :

ـ فى بيتك ؟

ـ أجل .. ألست شقيقك .. وبيتى هو بيتك يا آمنة ...

فنكست آمنة رأسها وقالت ومازال الخوف يلازمها :

ـ أبعد أن حرمت عليك زوجك حتى زيارة القرية التى أنا فيها ، تعود وتقبلنى فى بيتها ؟

ولم يسمع امام بقية الحديث الذى دار بين خاله وأمه أو بين الشقيقين .. لأن الدموع كانت قد غمرت عينيه .

وأحس بالدموع تطمس المرئيات جميعا فى عينيه ، وتحيلها

الى خيالات متعددة تتراقص أمامه ٠٠ جثة أبيه مسجاة عـــلى « طبلية » خشب كبيرة ويصب عليها المـاء ٠٠ ثوب أبيض تلف فيه الجثة ٠٠ حفرة كبيرة فى قبر مهجور ٠٠ كومة من التراب تنهال ٠٠ امرأة تلطم خديها ٠٠ امـرأة تشق ثوبها ٠٠ وجـــه المرأة يغبر ويكتئب حتى يصبح كقطعة من الفحم٠٠ نفس الوجه يمتقع ويصفر ويكتنفه الشحوب حتى يصبح كالرقعة الصفراء الفاقع لونها ٠٠ بيت سيخلى ٠٠ غرفة عزيزة ستهجر ٠٠ صبى يلعب فى الجرن ٠٠ شيخ يرتدى الكاكوله والعمامة البيضـــاء ٠٠ المعهد ٠٠ تجهيزية الازهر ٠٠ القاهرةسنوات التخصص ٠٠ خبز٠٠ نقود٠٠ جوع٠٠ دموعتنساب٠٠ أرض تدور ٠. رأس يكاد يتحطم ثم شىء ثقيل يسقط على الارض ولم يفطن اليهأحد ٠٠ لحظات تمر ٠٠ باب يفتح ٠٠ أم تدخل ٠٠ يد رحيمة تمتد ٠٠ صدر خافق يحنو ٠٠ قلب حنون يتفتح ٠٠ احضان ترتجف ٠٠ ذراع ترتعش تنهضه ٠٠ تحنو عليه ٠٠ وثغر كأنه الدنيــا يغمر وجهه بالقبلات ٠٠

الفصل السابع

ومرت بعد ذلك أيام كان لابد لها أن تمر •• وحدثت خلالها احداث كان لابد لها أن تحدث • انتقلت آمنة الى دار عبدالعزيز وعاشت هناك تستجدى اللقمة وتنتظرها من يد المرأة التي تبغضها وتحقد عليها وتريها صنوف الهوان ألوانا •

وذهب الشاب الى القاهرة الواسعة التى بهرته طلعتها •

وأقلقته الحياة فيها •• فراح يهيم على وجهه فى الطرقات طول النهار وأغلب الليل • يقطع الازقة ، ويجوس خلال الدروب والحارات لعله يظفر بغرفه متواضعة بأجر زهيد يمكنه سداده •

كان كل الذى يحمله فى جيبه تميمة أعطتها له أمه وقالت له أن أباه كان يحملها لتوسع له الرزق •• وتجلب له الخير وتهيىء له من أمره رشدا •• وخطاب أملته عليه أمه ، وأملاه عليه ايضا الشيخ نوفل وذيله بسطرين من عنده الشيخ بسيونى مأذون الشرع •• يرجون فيه رجل البر والتقوى والصلاح والعلم الشيخ الشرنوبى أبو اسماعيل • الذى مازالت القرية تذكر أيامه بالخير •• يرجونه خيرا بالشاب ويوصونه أن يكون له عونا اذا احتاج الى العون وأن يكون له فى غربته نصيرا اذا عز النصير ويحمل الفتى مع ذلك أيضا ثلاث جنيهات •• بعضها تصدق به عليه خاله من وراء زوجته ، وبعضها كان ثمن الخلخال الذى باعته أمه ، وبعضها الآخر كان يملكها من قبل • وثلاثة جنيهات ثروة كبيرة من غير شك •• ولها فى حساب الفتى شأن أى شأن • ولها أيضا فى تقديره قيمة كبيرة يشكر الله عليها ويحمده اذ أتاحها له • ولكن أليست الايام هى الاخرى لها عنده كل هذا الشأن ، ولها فى تقديره كل هذه القيمة • هل سيتاح له أن يظفر بمثل هذا المبلغ مرة أخرى ؟ وهل خاله سيتصدق عليه بشىء مرة ثانية ؟ أم هل ستجد له أمه خلخالا آخر تبيعه ؟

كان التفكير فى هذا يرهقه ارهاقا شديدا ويسبب له قلقا اذا أمسى •• ويسبب له قلقا اذا أصبح •• واضطر مرغما كل يوم ان يدفع الخمسة قروش أجر نومه فى لوكاندة المدينة المنورة الكائنة خلف مسجد سيدنا الحسين • أما ما عدا ذلك كله فهو عنده ميسور وميسر•• فالطعام قد دبر الله له أمره ••

اذ صنعت له أمه « قفة » كبيرة ملأتها « بالمرحرح » وهو خبز من الحلبه والشعير وبعض الاذره ٠٠ علم الفقر اهل الريف كيف يصنعونه بطريقة فنية ماهرة تجعله يعمر طويلا دون أن يلحق به عطب فيتغير طعمه ، وهو عدا ذلك يمتاز بأنه رقيق جدا بحيث تتسع القفة الواحدة لأكثر من ألفى رغيف ٠ وهذه الزوادة تكفي الشاب لعدة شهور ٠٠ يقضى الله بعدها أمرا كان مفعولا ٠ وكذلك أيضا يسر الله له أمر ملابسه « فالكا دولة الكشمير » التى كان أبوه رحمه الله قد صنعها له ، ما زالت زاهية اللون تحتفظ بجدتها ، ولا يهمه بعد ذلك ما يرتديه تحتها من ثياب ، سواء كانت جديدة أم قديمة ٠٠ مرتقة أم غير مرتقة ٠

وظل الفتى كذلك عدة أيام يطوف على الحارات والازقة فى النهار يبحث عن غرفة يقطنها بأجر متواضع يستطيع سداده ٠ اما اذا جاء الليل وذهب الى لوكاندة المدينه المنورة لينام ويستريح من عناء النهار ٠٠ خاصم النوم عينيه ، كلما تذكر الخمسه قروش التى سيدفعها فى الصباح أجرا للوكاندة ٠ بيد أن لكل شيء نهاية وكما قالت له أمه ان عين الله ساهرة ، وانه من وراء الخلق ييسر لهم أمورهم ، ويفرج لهم كروبهم ، وان الامور اذا تعقدت كان هذا ايذانا بحلها ٠٠ فقد بعث الله له بقلب حنون أشفق عليه ورثى لحاله ٠ وهو قلب محمدين خادم اللوكاندة الذى هداه الى غرفة يقطنها بأجر زهيد يقدر على سداده ٠

كانت الغرفة التى اهتدى اليها ، فى بيت قديم فى زقاق الجنابينية المتفرع من حارة درب المسرات ٠ فى حى حوش الشرقاوى بباب الخلق ٠٠ خلف ديوان المحافظة تملكه الست شفعات الخربوطلى الشهيرة بالمعلمة وقد لاقى الشاب عناء كبيرا حتى اهتدى الى هذا البيت الذى كتب له عنوانه محمدين ٠٠ لانك لكى تبلغ هذا البيت يتحتم عليك أن تصعد عشر درجات من الحجر القديم المتآكل تغمرها المياه القذرة صيفا وشتاء وتعرف فى الحى الى الآن ب « سلالم السبيل » ثم تنحدر منها يمينا الى حارة درب المسرات وتسير شوطا كبيرا وسط عدة أبنية متلاحقة ، تكاد تكون متصلة شرفاتها المصنوعة من خشب البغدادلى على الطراز العربى القديم المعروف « بالمشربيات » ولابد أن تجد أمام كل شرفة صنفا من القلل القناوى ذات الالوان المختلفة ، والاغطية النحاسية وعدة أقبية مهجورة ٠٠ وعليك أن تسير فى هذا الزقاق الذى يمتاز بطول غريب جدا

حتى تقطعه الى نهايته .. وعند ذلك تبلغ « السـيرجة » وهى المعروفة فى الحى ب « سيرجة المعلمة » فتغمر أنفك رائحة الزيت والكسب والبذور العفنة .. فتسترد أنفاسك لانك تكون قد بلغت البيت .. وطالعك بابه الفولاذى الضخم الذى انتصب بين بعض الاقبية المهجورة والجدران المهدمة أشبه بتمثال ضخم قام بين الاطلال من عدة قرون .

كان البـاب من السمك والضـخامة .. بحيث لا يمكن زحزحته أو تحريكه .. تزين جوانبه بعض نقوش نحاسية قديمة أكل الصدأ بعضـها وبقى بعضها الآخر يغالب الزمن ويتوسطه باب آخر صغير ، ذو « سقاطة » حديدية ضخمة ، ما أن ترفعها بيديك حتى تسمع صوتا مزعجا بالداخل أشبه بأصوات الاوانى النحاسية عندما تسقط على الارض فتنزعج وتخاف .. بيد أن هذا الخوف يزول عندما تتبين أنه صـوت الجنزير الطويل المعلق فى طرف السقاطه من الداخل . ثم بعد ذلك ينفتح الباب . أو بمعنى أصح تنفتح ـ الخوخة ـ فتحنى رأسك ، وتقوس ظهرك لتدلف منـه . فاذا بك أمام دهليز فسيح ، ولكنه رطب مظلم ، لا تستطيع من الظلام أن تتبين بسهولة محتوياته ، أو ترى ما يشبه الاشباح تطالعك فى الظلام منتصبة على جوانبه . فاذا ما تبينتها جليا ، عرفت أنها أبواب الغرف الثلاث التى يتكون منها البيت . أو بمعنى آخر هى التى يتكون منها نصف البيت فقط . لان النصف الآخر ، وهو الذى فى مواجهة الداخل . قبو كبير تتوسطه ـ السيرجة ـ وهى عبارة عن بئر فوقه حجر ضخم فى وسطه دائرة كبيرة كدائرة الساقية يدور فيها حمار متعب هزيل مغمض العينين يجر خلفه حجرا كبيرا و كأنه يجر خلفه متاعبه وشقاءه .

ثم بجانب مدخل السيرجة وعلى يمين الدهليز نصف برميل قديم امتلأ بالمـاء الآسن القذر . تعلوه طبقة خضراء لزجة . تتصاعد منها رائحة كريهة . تشبه رائحة الكسـب والبذور العفنة التى تتصاعد من السرجة . وعلى رأس نصف البرميل ، حنفيةصغيرة تتساقط منها بعض نقاط الماء فى هدوء حـزين كما تتسـاقط فى الليل دموع الثكالى . أما الغرف الثلاث فكانت احداها وهى على يمين الداخل مباشرة خلف الخوخة .. ذات باب نظيف يميل لونه الى البياض . يعلوه شباك زجاجى مختلفة الوانه . وكانت تمتاز هذه الغـرفة عن غيرها بسرير كبير من النحاس قام فى وسطها كالطختروان . تزينـه ملاءة

محلاوى ذات مربعات بيضاء وحمراء • وتعلوه۔ ناموسية ــ من
التل البمبى انعقدت فى قلبه فغدت كالقبة المنقلبة فى الهواء •
ويمتاز هذا السرير أيضا بعلو غريب • بحيث لا يمكنك اعتلاء
سطحه الا بواسطة سلم دائرى وضع أمامه • وحليت درجاته
الثلاث المبطنة بالقطن والحرير بغطاء من القطيفة الخضراء الباهتة
وحول كل درجة من الدرجات الثلاث ــ برقع ــ من القطيفــة
أيضا تتدلى منه عدة شراريب ذات ألوان متعــددة •• ويقابل
السرير ــ بريه ــ كبير وضع خلف باب لم يســتعمل • كان
فيما مضى يوصل الى الغرفة الثانية التى تلى هــذه الغــرفة
مباشرة وهى الغرفة التى قطنها الشاب • والبريه يــكاد هــو
الآخر يكون فى ضخامة السرير له عدة أدراج وخزانة كبيرة
وفوقه تحت المرآة رخامة كبيرة زرقاء تكسرت منذ سنوات •
وقد امتلأ قلبه بعلب الثقاب الفارغة والأبر والدبابيس القديمة
وعدة قطع من الفاسوخ والجاوى وعين العفــــريت • وبذور
الكسبرة والشيح •• وقد تلوث هذا كله بسائل الشمع مما
يدل على قدمه ، حتى غدا منظره قذرا مشــوها • وبجــوار
الشمعدان قلة بيضاء من الزجاج عليها باقة من الورد الصناعى
الذى بليت أوراقه • وتآكل بعضها ولوث الذباب بعضهــا
الآخر • وحول عنق القلة عدة حبال رفيعة من الخرز الابيض
والاصفر والاحمر ، علقت بها عدة حلقات نحاسية ، ونصف
مفتاح حديد قديم ، وحجاب مغلف تغليفا جيدا • ثم بجــوار
القلة كوز نحاسى ، تزينه عدة نقوش عربية قديمة • وضعت
عليها قطعة من اللوف ، وصابونة حمراء ــ ممسكة ــ وبجانبه
ــ مكحلة ــ ذات مرود نحاسى أيضا منقوشة بنفس النقــوش
العربية المرسومة على الكوز ••

هذه الغرفة تقطنها المعلمه شــــفاعات • صــــاحبة البيت
والسيرجه وهى امرأة فى منتصف العقد الرابع ، ذات جمــال
أخاذ تبهر العين طلعته • وقوام سمهرى ممشوق عرفت كيف
تغذيه وتتعهده فغدا كالفرع المياد الذى يتهادى مع النسيم •
ووجه يفيض بالبشر يعلوه جبين وضاح يشبه فلق الصبح •
تزينه دائما ــ قصة ــ من الشعر الفاحم يتوسطها ــ فــرق ــ
صغير انطبع على الجبين كالهلال الوليد • وفوق هذا كله منديلها
المطرز بالترتر وخرج النجف ، وزهور القرنفل البيضــــاء •

انعقد حول رأسها ، وتدلت أطرافه بين ـ المقصوص ـ الطويل المنساب حول الاذن التى يزينها قرط ذهبى كبير على هيئـــة نصف دائرة ، يروح ويجىء فوق الكتف المرمريه البيضـــاء ، التى حجبتها ملاءة ســـوداء رقيقة من الحرير الخفيف الرقيق الملمس عرفت كيف تحكمها فى مهارة فائقة حول جسدها ‥ وتضغط نسجها الرقيق على قوامها الفارع وقدها الممشوق ٠ بحيث فصلته تفصيلا وأبرزت محاسنه وجعلت كنوزه تتوهج نورا فى عينيك ٠ تماما كما تتوهج كنوز الماس والجواهر فى قلب فترينه من زجاج ‥

وهى امرأة عصبية المزاج جدا شرسة الطباع الى حد كبير ٠ بحيث أنها اذا ثارت أو غضبت أو عكر صفوها : ينقلب هذا الجمال كله ، وهذه الفتنة التى لا حد لها وهذا الخفر والحيـاء الذى يشبه حياء العذارى وخفرهم ٠ الىعنف وقسوة ووحشية ‥ مما جعل سكان الحارة بل والحى كله يخافونها ويخشبونها ويعملون لها ألف حساب وحساب ٠ ولذلك فالقول ما قالت المعلمة ، والامر ما أمرت به المعلمة ٠ وقد ساعدها هذا بعــد أن مات زوجها من سنين وأشرفت هى على الثروة التى تركهـا لها ٠ البيت والسرجة وثلاثة دكاكين فى حارة الســطوحى ، وحوش فى درب سعادة ‥ ساعدها على أن تدير كل هــذا بنفسها دون أن تفكر فى الزواج ‥ أو فى أحد يساعدها فى الاشراف على السرجة اللهم الا الاستاذ حسبو ٠ وهو الـــذى يقطن الغــرفة الثـالثة من الدهليـز التى يقع بجـانب السرجة تمـاما وحســبو هــذا أو الأسـتاذ حسبو ، كما كان يصر على أن يسمى نفسه كهل فى الستين من عمره ، رغم أنه كان يصر على أنه مازال فى دور الشباب وأنهفى العقد الرابع وأن سن الاربعين هى سن الشـباب المكتمل والرجولة الناضجة ، وكان منظره يبعث عــلى الغرابة والدهشة بحيث يلفت نظرك بمجرد أن تراه ٠ وتقف عيناك عليه لا تتحـول ٠ فهو يرتدى بذلة لا يعرف لها عمر ولا لون ولا حتى طراز ‥ فهى عدة ألوان ٠ اذ كلما تآكل جانب منها رتقه بلون جديد ‥ وهو يرتدى دائما ياقة منشاة عالية من الطراز القديم ذات

فتحات أفقية بارزة ورباط رقبة ، تآكلت أطرافه حتى بلغ التآكل عقدة الرقبة وصديرى من الحرير - الالاجه - زى أصحاب اليسار فى الزمن القديم • وقد بلى هذا الصديرى أيضا وتمزق وتآكل حتى لم يبق منه سوى أزراره الصدفية الغالية التى تدل على أصله وترمز الى مجده القديم • ويضع على عينيه دائما منظارا سميكا ذا أسلاك نحاسية صدئة تلوث زجاجه الابيض وتشقق بحيث أنك لا تستطيع أن ترى من خلفه لون عينيه • وبحيث لا يستطيع هو أيضا أن يرى من خلفه شيئا • وهو رغم نحافته وضموره وشحوب لونه الدائم الذى يشبه وجوه الاموات يتمتع بحيوية غريبة ونشاط دائم ، ونفس صافية مستبشرة دائما يضحك دائما ولايعبث أبدا • ويرسل الفكاهة تلو الفكاهة • والنكتة تلو النكتة حتى ليجعلك تستلقى من الضحك •

وكان لا يبالى اذا واتته النكتة أن يلقى بها ولو كان فى حضرة النساء مهما كان مرماها • وهو يشغل فى الحى عدة وظائف غير وظيفته الاصلية وهى ادارة السرجة • وادارة اعمال المعلمة جميعا والاشراف عليها • فهو - عرضحالجى - الحى • ويعتبر نفسه من أشهر رجال القانون وقد كتب لافتة كبيرة يعلقها فى الليل على باب غرفته فى الدهليز ، ويعلقها فى النهار على الحائط فى الحارة حيث يجلس الى ترابيزته الخشب • وقد كتب عليها بخط بارز واضح « الاستاذ حسبو القط خبير بشئون المحاكم الاهلية والشرعية وجميع القوانين على اختلاف أنواعها • وباشكاتب محكمة سابق • ووكيل محام سابق •• وعضو نقابة وكلاء المحامين سابقا » • وقد اتخذ له مكتبا على رأس الزقاق عند أول حارة السطوحى • حيث يجلس فى الطريق بجانب الحائط الى ترابيزة خشب قديمة عليها محبرة نحاسية مستطيلة صفراء اللون يضع فى قلبها عدة أقلام من البسط • وبعض بقايا من أقلام الرصاص وفى طرفها فجوة بداخلها قطعة من القماش مبللة بالحبر الازرق الذى يميل الى السواد • وبجانبها بعض العرائض البيضاء • وهو يعتز جدا بهذه المحبرة النحاسية التى لها عنده تاريخ قديم معروف فهى

المحبرة التى كان نابليون يوقع منها أوامره اليومية الى جيشه أيام احتلاله ـ قاهرة المعز ـ تم آلت من بعده الى قائده العظيم ـ كليبر ـ ثم بعد قتل كليبر • أغتصبها بعض الفرنجه الذين استوطنوا مصر بعد جلاء الفرنسيين • ثم انتهت فى النهاية الى جده الثانى • أى جد الاستاذ حسبو الذى كان يشغل وظيفة مهمندار السلطنة • وظلت في حوزته الى أن ورثها هو• وكان يجلس الى مكتبه هذا طول اليوم ، ومن حوله بعض النسوة يستشرنه فى شئونهن ، وحل مشاكلهن • وهو بدرايته الواسعة ، يصرف لهن الامور ، ويحل لهن المشاكل العائلية أو يعقدها ، حسب ما فيه صالح موكلته من حيث الطلاق ، أو النفقة ، أو الطاعة أو الزواج •

وكان للاستاذ حسبو وظيفة ثالثة أهم بكثير من هذا كله وهى كتابة خطابات الغرام للعشاق والمحبين ، وقد برع فى هذا براعة فائقة ، حتى اشتهر فى الحى بذلك ، وصارت له سمعه واسعة ، ومقدرة لا تدانيها مقدرة •• فخطاب واحد من خطابات العشق والهيام يدبجه بيراعه يكون له فعل السحر ، بحيث يلين الحجر ، ويذيب الحديد • ويجعل الحبيب القاسى القلب •• يخر ساجدا عند قدمى المحب من أول سطر •• ان لم يكن من أول كلمة ، ولذلك فهو كل ليلة وبعد صلاة العشاء بالذات لابد أن يكون فى مكتبه على رأس الحارة •• حيث توافيه خلسة بعض بنات الحى ، ونساؤه ، وشبابه ، هذا يكتب للمحبوب يستجدى الوفاء ويرجو اللقاء ، ولو مرة عند سلالم السبيل • وتلك تصف لزوجها الغائب كيف أضناها الشوق ، وطال بها البعاد • وهذه الحبيبة تصف للحبيب كيف كانت فرحة اللقاء ، ولذة العناق ، وسعادة القلب عندما وافاها الحبيب فى الظلام خلف السرجة • وهو يعتز بمقدرته هذه الفائقة فى تدبيج الخطابات ولا يسمح لاحد أن يعارضه فى لفظ • أو يعترض على معنى •• ومن يفعل فالويل له •• وقد حدث ذات مرة أنه كان يقرأ خطابا غراميا كتبه لخادمة جميلة لتبعث به للحبيب المتجنى عسى أن يلين قلبه ، وراح الاستاذ حسبو يقرأ عليها بصوت منغم ما جادت به قريحته وما دبجه يراعه •

أبعث اليك مع الليل سلامى ، وابثك مع الفجر هيامى ، وأرسل اليك مع النسيم كتاب غرامى ، كتبته وأنا على الجمر أتقلب ، وفى نار الحب أتعذب ، وفى جحيم الشوق غارقة ، والى طلعتك البهية وامقة » ..

وعند ذلك استوقفته الفتاة وسألته قائلة :

ـ وامقة يعنى ايه يا أستاذ ؟

فثار الاستاذ حسبو لهذه المقاطعة ، وهذا السؤال وغضب غضبا شديدا حتى كاد يمزق الخطاب . لولا أن الفتاة اعتذرت له ، واسترضته ، وقدمت له القروش الخمسة وهى الثمن الذى حدده لكل خطاب غرامى يكتبه . فهدأت ثائرته ، وعلت ثغره ابتسامة وهو يتناول منها القروش الخمسة .. ويخرج لها الخطاب من درج الترابيزة الذى كان قد أعاده اليه ، كما أخرج زجاجة الخمر وشرب منها بعض الشىء ، ثم أخرج أيضا كتابا قديما باليا أصفر الصفحات ، كتب على غلافه السميك « جنة الاشواق فى رسائل العشاق لمؤلفه أمير المحبين وحبر العاشقين سيدنا عبد الله بن القيروان .. طيب الله ثراه .. وجعل الجنة مثواه ، ونفع المحبين بذكراه . »

وبعد أن راجع الفهرس طويلا فتح الكتاب على صفحة بعينها ، كتبت على رأسها العبارة التالية « بين الاحبة والاحباب فى رسائل الهجر والعتاب » وراح يقرأ فى سره قليلا فى هذا الباب حتى وصل الى كلمة « وامق » فراح يقرأ شرحها على الفتاة : وامق بمعنى عاشق أى مشتقة من العشق كما يشتق العاشق من المعشوق . والله أعلم » .

الفصل الثامن

ذهب الشاب كما قال له محمدين الى حارة السطوحي وانحدر منها الى زقاق درب المسرات ، وسر سرورا كبيرا عندما عرف من صبى صغير كان يلعب أمام البيت أن الغرفة الخالية فى منزل « المعلمة » مازالت خالية ، ولم تؤجر بعد • وكان الصبى الصغير أطيب خلقا مما كان ينتظر الشاب •• لانه ذهب معه الى حيث يجلس الاستاذ حسبو وكيل المعلمة •

وتقدم الشاب من الاستاذ حسبو فى خطى وئيدة وبسمل وحوقل كعادته كلما هم بأمر ، ثم ألقى عليه السلام ، فرد الاستاذ حسبو التحية ولكن دون أن ينظر اليه فقد كان منهمكا فى تدبيج عريضة دعوى طلاق • فقال الشاب :

ـ أريد أن استأجر الغرفة الخالية عندك فى البيت ••

عند ذلك رفع الاستاذ حسبو رأسه ونظر الى الشاب وتفحصه جيدا من خلف منظاره السميك الملوث ثم قال :

ـ اسمك ؟

ـ امام بلتاجى حسنين ، من البتانون مركز المنوفية •

ـ صنعتك •

ـ طالب علم •

فعاود الاستاذ حسبو النظر اليه وقال ساخرا :

ـ كل هذا الجسم الطويل العريض ، وطالب علم ؟

فصمت الشاب فى خجل ولم يجب • فقال الاستاذ حسبو فى نفس السخرية :

ـ وطالب علم فى أى كتاب يا أستاذ امام •

ـ فى الازهر الشريف •

فصمت الاستاذ حسبو لحظات مد خلالها يده الى حقيبته الجلد ، وأخرج زجاجة الخمر وأفرغ منها شيئا فى جوفه • ولما لاحظ أن شيئا من الامتعاض ارتسم على وجه الشاب ، قال وهو يعيد الزجاجة الى مكانها ، وما زالت شفتاه ترتعشان تقززا من طعم الخمر الرخيصة ومذاقها المر :

ـ دواء ··· دواء يا بنى ·

ثم مسح على شفتيه وقال وهو ينظر الى الشاب :

ـ هل تعرف الماكينة التى تدار بالسولار · أى بالغاز القذر ؟

فاندهش الشاب لهذا السؤال الغريب وقال :

ـ أجل أعرفها ·

أنا مثلها تماما ·· هى لا تدور الا بالغاز الوسخ ·· وأنا ايضا لا أسير الا بهذا الدواء الوسخ ··

قال ذلك واستلقى ضاحكا فى قهقهة كبيرة · فجاراه الشاب فى الضحك تأدبا ·· بيد أنه اعتدل فجأة وقال جادا وهو يعاود النظر اليه وكأنه يراه لأول مرة :

ـ قلت لى انك مجاور فى الازهر ، وانك تريد أن تستأجر الغرفة ·· فهل عرفت قيمة ايجارها ··

فقال الشاب :

ـ مهما كانت فهى مقبولة منك ·

فقال الاستاذ حسبو وهو ينظر اليه وكأنه يسدى اليه نصيحة :

ـ هذا كلام فارغ · القربة لا تخر الا على رأس من يحملها والنار لا تحرق الا من يمسكها · وانت الذى ستدفع · فهل تقدر على ثلاثين قرشا لا تنقص دانقا ؟

فقال الشاب على الفور فرحا كأنه ظفر بكنز :

ـ أقدر ·

ـ وتدفعها مقدما ؟

ـ مقدما ··

ـ وبصفة دائمة ؟

ـ دائمة ·

ـ وبلا ابطاء أو اهمال أو تأخير ؟

ـ وبلا ابطاء أو اهمال أو تأخير ··

ـ وان لا تراوغ فى الدفع بحجة المرض ، أو ضيق ذات اليد او سرقة نقودك ، أو فقد بعض الاهل أو الصحاب ، كما يفعل الطلبة أمثالك ؟

ـ أبدا .. أبدا .. اننى لست من هؤلاء .

فقال الاستاذ حسبو مبتسما وهو يرفع منظاره من على عينيه وينفخ فيه ويمسحه بخرقة كانت بجانب المحبرة النحاسية ملوثة بالحبر :

ـ ومن الذى يضمنك . يا سيد امام يا بلتاجى يا حسنين ؟

فارتج الامر على الشاب وصمت حينا . ثم قال متلعثما فى خوف شديد :

ـ ليس لى غير الله ..

ـ ونعم بالله .

نطقها الاستاذ حسبو فى ايمان زائدوهو يفتح الدرج ويخرج منه عقدا مطبوعا ويقول :

ـ وحتى ان لم تدفع يا بنى بعد هذا . فسوف اتكفل أنا بالسداد عنك .

الفصـــل التاسع

كانت فرحة الشاب بهـذه الغرفة التى ظفر بها وبهـــذا الايجار القليل الذى لم يكن ينتظره • وبصداقته التى توطدت من أول لقاء بالاستاذ حسبو • فرحة كبيرة أنسته كل متاعبه التى عاش فيها منذ أن هبط القاهرة • ولذلك ذهب من فوره الى محمدين فى لوكاندة المدينة المنورة ، وشكره على هذاالجميل الذى لن ينساه وأعطاه خمسة قروش نظير هذه الحسنة التى أسداها اليه ونظير أن ينقل له القفة وبعض متاعه الآخر الى هناك • كما استطاع الشاب وبواسطة محمدين أيضا أن يحصل على سرير ينام عليه بأجر زهيد جدا من مخلفات أسرة اللوكاندة وهو عبارة عن ـ حمارين ـ من الخشب تنقلهما كما تشـــاء ، وتضعهما فى أى مكان تشـــاء ، وفوقهما شبكة من خشـــب البغدادلى ـ سكونه ـ تعلوها مرتبة عبارة عن كيس فارغ من أكياس القطن محشو بالقطن وفوقها ملاءة محلاوى نصـــف عمـــر • وكذلك بطانية صوف خشـــنة من مخلفات الجيش البريطانى وقد نقل له محمدين كل هذا الى السكن الجديد •• وما أن أقبل المغرب حتى كان الشاب فى غرفته مبتهجا كـــل الابتهاج ، ينظفها ، ويرتبها ترتيبا جميلا • ثم بعد أن اطمـأن اليها والى ترتيبها ووضع الكاكوله على المسمار الذى أعده لها فى الحائط • ووضع العمامة فى السفط الذى أعده لها وغلفه جيدا بالورق السميك حتى لا تنفذ اليها الصراصير • ارتدى جلبابه ووضع القبقاب الخشب فى قدميه وانصرف الى باب الخلق يتريض وينظر الى القاهرة لاول مرة والى الناس والاجنـــاس الذين يروحـــون ويجيئون أمامه • وظل كذلك الى أن أحس بالجوع وفكر أن يعود الى بيته لتناول العشاء ، ولكن رائحـــة السمك المشوى التى تنفذ الى خياشيمه من سماك الملوك الذى فى الميدان جعلته يقف يفكر قليلا •

ثم انتهى به التفكير الى أن يأكل سمكا هذه الليلة ، فاشترى ربع رطل بقرش ونصف ، كما ذهب الى طرشجى الامراء الذى بجانبه واشترى بنصف القرش • ومن ثم ذهب الى غرفته وهو

يحمل نعيم الدنيا جميعا بين يديه . وما أن بلغ الغرفة ، واشعل مصباحها الزجاجي ، الذى صنع له برنيطة من الورق المجفف حتى يحتبس نوره ويتركز فى مكان واحد هو الذى يذاكر فيه ، ووضع كومة السمك الصغيرة أمامه وما أن تطلع اليها حتى غمرته الفرحة ، وانهال عليها يلتهمها التهاما . ثم بعد أن أ نلها جميعا أفرغ نصف القلة فى جوفه ، واستلقى بعد ذلك على السرير ناعم البال ، هادىء النفس . مطمئن الضمير .

انه الآن يستطيع أن يطمئن الى كل شىء .. الى مستقبله والى حياته الجديدة . وأن يذهب الى الكلية كما يريد . ويستذكر درسه فى بيته كما يريد . ويستطيع أن يدفع ايجار غرفته هذا الزهيد دون مشقة أو عناء . ويستطيع أن يأكل من حين الى آخر سمكا طازجا شهيا من سماك الملوك ويستطيع بنصف القرش أن يقف أمام طرشجى الامراء غير هياب أو وجل . وغير ذلك كله . بل أهم من ذلك كله ، فهو يستطيع الآن وبخطى ثابتة وعزم قوى ورأس مرفوعة أن يذهب الى العباسية ويسأل عن الوايلية الصغرى وعن شارع البرجاس والمنزل رقم (٨) ويزور الاستاذ الشرنوبى أبو اسماعيل . والست صبريه زوجته . وابنتهما سلوى . زيارة الصديق للصديق . أوالاهل للاهل ، دون خجل أو تردد أو خوف . ما دام لا يريد معونة ولا يريد مساعدة فى شىء . وأن يقابل سلوى ويتحدث اليها حديث الصديق للصديق أيضا ، والزميل للزميل ، والند للند . انه لن يقابلها كما كان يقابلها وهو فى القرية حافى القدمين . ممزق الثياب يغمض عينيه عما فى يديها أو فى جيبها من حلوى ، وغير الحلوى حتى لا تفضحه عيونه التى تتهافت نظراتها وتذوب على ما فى يدها من طعام شهى وأصناف الحلوى اللذيذة ..

أنه سيقابلها الآن رجلا مكتمل الرجولة ممتلىء العين مرتديا زيه الجديد الانيق . الكاكولة . والعمامة . والحذاء اللامع .

ولكن هل ستذكره سلوى وترحب به وتطرب للقياه كما كانت تفعل فى الماضى .. ؟ أم أن السنوات السبع التى مرت وغيرت من كل شىء غيرتها هى أيضا ؟ وهل حدث لها كما حدث له . فرع طولها وامتشق قوامها وغدا جسمها ذاك النحيل

فارعا فارها ملتفا ، تزينه الثياب ، كما تزين الكاكوله الآن جسمه الكبير وطوله الفارع. ونظر الى الكاكولة الزرقاء اللامعة، المعلقة على المسمار بجانب السرير وذلك السفط الصغير المبطن بالورق المجفف والعمامة البيضاء الناصعة التى فى قلبه . ثم نظر الى الحذاء الاصفر اللامع الذى وضع بجانب السفط يحليه ذلك ـ الابزيم ـ الاصفر الفاقع الذى نام على جانب الحـذاء ، فزانه وزاده بهجة ورواء ، نظر الى كل هذا وابتسم . وغمرتـه نشوة فاضت على كيانه . وجعلته وهو مستلق على ظهره فوق السرير يحملق بعينين سعيدتين فى سماء غرفته . كما يحملق العصفور الطروب فى سماء الربيع بين الازهار . وظل كذلك الى أن داعب النوم عينيه فقرأ الفاتحة . وآية الكرسى وعديه ياسين . كعادته كل ليلة عندما ينام . وزاد عليها هذه الليلة . سورة ـ الفلق ـ وكرر من شر حاسد اذا حسد مرات حتى غلبه النوم فنام سعيدا لاول مرة . منذ أن نزح الى القاهرة .

الفصل العاشر

وكما سعد الشاب فى هذا اليوم كل هذه السعادة • سعد أيضا الاستاذ حسبو واطمأن اطمئنانا كبيرا • فقد كان بقاء هذه الغرفة التى استأجرها الشاب خالية لا يسكنها أحد • يسبب له قلقا كبيرا وآلاما لا حد لها • اذ كان يعرضه دائما الى غضب المعلمة • وايذائها وسخريتها المريرة • والغلظة له فى القول كلما رأته أو حدثته حتى أنها من يومين فقط ثارت عليه ثورة عنيفة • وكادت يدها تمتد اليه بالاذى لان الغرفة ظلت خالية • ولم تهدأ ثائرتها الا بعد أن أنذرته بالطرد من البيت والسرجة والدكان والحارة والحى كله ان لم تسكن الغرفة خلال الايام القليلة الباقية على الشهر • فوعدها بذلك • مؤملا الخير كله فى السماء والارض • أن تسكن الغرفة حتى لا يتعرض فى كل ساعة من ساعات النهار والليل الى هذا الاذى الكبير ولهذا كانت فرحته لا تقدر فى هـــذه الليلة عندما استأجر الشاب الغرفة • وراح ينتظر عودة المعلمة من درب ســـعادة • فقد تعودت أن تذهب الى هناك من حين الى آخر • وتقضى اليوم كله • ومن فرحته لم يشأ أن ينتظرها فى البيت ولا فى المكتب على رأس الحارة وانما انتظرها عند سلالم السبيل فى الظلام حتى أقبلت تتيه وتخب فى ملاءتها الحريرية السوداء الرقيقة التى أحكمتها حول جسدها الفارع وقوامها الممشوق • وتدل عجبا بذراعها العارية التى حلت معصمها بالذهب الخالص والثعابين الثلاثة الذهبية التى التفت حول المعصم وزانت الذراع البيضاء العاجية التى أخرجتها من قلب الملاءة السوداء • كما يخرج عامود النور من قلب الظلام • وما أن رآها الاستاذ حسبو حتى أسرع باخفاء زجاجة الكونياك فى جيبه الخلفى • ومسح على شفتيه سريعا وتقدم اليها ونور الفرحة ينبعث من عينيه ويشع من خلف زجاج منظاره الملوث • وزف اليها البشرى وهـــو ممسك بعقد الايجار فى يده •

وما أن ســألته بعض أسـئلة وعرفت بأنه أجر الغرفة الى ـ مجاور فى الازهر ـ حتى غضبت وثارت وانقلبت سحنتها فجأة الى ما يشبه الوحش المفترس • وقالت صارخة فى صوت كالرعد وهى تمسك بعقد الايجار من يده وتمزقه وتلقى به فى وجهه :

ـ لابد أن تطرده الآن • أن تلقى به الليلة الى الخارج • أنا لا أريد أن أجلب المتاعب الى نفسى • قلت لك ألف مرة ان المجاورين وطلاب العلم لا يجدون قوت يومهم فكيف بهم يدفعون الايجار • الق به الى الحارة الليلة •• الآن •• والا ألقيت بك أنت •• أسامع •

وسارت وسار خلفها الاستاذ حسبو يرتعش • كما يسير الكلب الخائف الذى تشده وراءك فى حبل • وكلما حاول أن يقول شيئا أرغت وأزبدت ودوى صوتها فى الليل • الى أن بلغت نهاية الزقاق • ووقفت عند الخوخة • ونزعت ملاءتها ووضعتها على كتفها كما لو كانت تريد أن تخوض معركة • وقالت له ثانية بأعلى صوتها :

ـ قلت لك ان لم تطرده الآن وتلقى بعفشه الى الحارة • طردتك أنت وألقيت بسحنتك هذه القذرة فى مرحاض •

ثم فتحت باب غرفتها فى ثورة وردته خلفها فى عنف كاد يرتج له البيت كله • ووقف الاستاذ حسبو فى قلب الدهليز المظلم الا من نور خافت ينبعث من قلب السرجة يرتجف • وينظر الى باب غرفتها الذى أغلقته خلفها فى عنف ، وباب غرفة الشاب المجاور لبابها تماما • وفكر ماذا يقول له الآن • وأين يبيت الفتى الليلة • والمعلمة لم تشأ أن تبقيه الى أن يطلع النهار • وهل هكذا تتحكم بالناس وهل هكذا ستظل هذه المعلمة تسومه هذا العذاب • وتكيل له كلما رأته بهذا الكيل الذى لا يتحمله انسان • وهل سيظل قلبها بهذه الغلظة وهذه القسوة • بحيث تطرد شابا فى هذا الوقت من الليل وتلقى بعفشه الى الطريق • وهو ان لم يطرده الآن كما أمرته ، وأبقى عليه الى أن يطلع النهار ، فسوف تطرده هو وتلقى به فى الطريق • أو تبقيه لتصب عليه جام غضبها وتسلط عليه سوط عذابها الذى تعب منه جسده الهزيل •

وأحس الاستاذ حسبو بشىء من الضيق يجثم على صدره ويكاد يخنق أنفاسه فأسرع الى زجاجة الكونياك وأخرجها من جيبه الخلفى وتجرع منها عدة جرعات • ثم أعادها ثانيةالىجيبه ومن ثم مسح على شفتيه • وفى هدوء كبير جدا اقترب من باب غرفة الشاب • وظل ينقر حتى استيقظ الشاب وفتح الباب وما أن رأى الاستاذ حسبو أمامه حتى رحب به ترحيبا كبيرا جدا وهو يدعوه الى الدخول • ووقف الاستاذ حسبو وسط

الغرفة يتأمل محتوياتها لأول مرة . ويفحصها بعينه وينظر الى الحمارين الخشب والحشية التى يحملانها ، والبطانية الصوف القديمة المتآكلة المتكومة عليها كالكلب الاجرب المتكوم فى الطريق وقدر المش والمخلل الذى تجمد من الرطوبة . وخرجت من قلبه الديدان الصغيرة هائمة تسبح حول جدرانه . والى بعض لقيمات المرحرح التى انتشرت على الحشية والى رؤوس السمك المقلى وشوكه الذى بقى فى الورقة الصغيرة الملوثة بالزيت المحروق . ثم الى القميص الزفير الممزق الذى يرتديه الشاب وينام فيه . نظر الاستاذ حسبو الى كل هذا ثم الى الشاب الذى يتصبب أمامه عرقا وخزيا من كل شىء وقع عليه نظره فى الغرفة . وأحس الاستاذ حسبو نفس الخزى والخجل الذى أحس به الشاب . ان هو أنبأه بالمهمة التى جاء من أجلها . انه أحس بالعطف على هذا الشاب منذ المرة الاولى التى رآه فيها . منذ أن قال له ان لاأحد له فى الوجود غير الله وهو يحس بهذا العطف يتضاعف الآن ويزداد ويكاد يبلغ أقصاه عندما رأى غرفته ، ومنامته ، وبؤسه هذا البائس ، وفقره هذا الذى لا يماثله الا فقره هو وبؤسه . فكيف يطرده الآن من الغرفة ؟. كيف يلقى بمتاعه فى الحارة . ثم أين هو المتاع الذى سيلقى به . انه ان ألقى بشىء الى الخارج ، فلن يلقى الا بالشاب نفسه .. وفى هذا قسوة وظلم .

وأحس الرجل بحرج شديد . وبشىء من الضيق يكاد يجثم على صدره . فأخرج زجاجة الكونياك ، وتناول منها عدة جرعات ثم قال للشاب مبتسما بعد أن مسح على شفتيه :

ـ جئت أطمئن عليك .

ـ أشكرك . وهذا ما كنت أنتظره منك .

فعاود الاستاذ حسبو النظر الى الغرفة ومحتوياتها مرة أخرى ثم قال :

ـ أأعجبتك الغرفة ؟

ـ نعمة كبيرة وفضل من الله .

فارتبك الاستاذ حسبو بعض الشىء . ولكنه قال :

ـ أخشى أن تكون الغرفة رطبة عليك .

ـ أبدا .. أبدا ..

ثم ابتسم الشاب وقال :

ـ فرق كبير بينها . وبين غرفتنا السابقة فى دهليز المرعشلى .

فاغتاظ الاستاذ حسبو وقال :

ـ الحقيقة أن جميـــع الذين قطنوها خرجوا منها مرضى ومصــابين بالروماتزم • وأنا كما قلت لك احببتك منــذ ان رأيتك • ولذلك فانا اخشى عليك المرض يابنى •

ـ المرض والصحة بيد الله • وطالما أن هذه الغرفة منك • وعن طريقك • فلن أبرحها حتى ولو كان فيها مماتى •

فأخرج الاستاذ حسبو زجاجه الكونياك مرة أخرى • وتجرع منها عدة جرعات ثم أعادها الى جيبه الخلفى ونظر الى الشاب وقال له هامسا بعد أن مسح على شفتيه مرة أخرى •

ـ اذن تعاهدنى على أن تكون معى دائمــا • وتفعل كل ما أشير عليك به •

ـ أعاهدك ••

ـ وأن تتخذ منى صديقا مخلصا لك •

ـ بل سأتخذ منك والدا •

فرفع الاســتاذ حسبو ذراعيه المرتعشتين وطوق بهما عنق الشاب وقبله • ثم أمسك بيديه ورفعهما مع يديه الى أعلا وهو يقول :

ـ ردد معى هذا الدعاء • قل من قلبك ـ اللهم انصرنا على القوم الظالمين ـ اللهم انصرنا على القوم الظالمين • اللهم انصرنا على القــوم الظالمين • اللهم اجعل انتقامنا منها بقدر اساءتها الينا •

فقال الشاب فى دهشة كبيرة بعد أن ردد الدعاء :

ـ من هى ؟

فقال الاســتاذ حسبو وهــو يضحك ويخرج من الباب • ويغلقه خلفه على الشاب :

ـ الدنيا الظالمة يا بنى •

ثم انطلق الى فناء الدهليز • ووقعت عينه على باب غرفة المعلمة ورآه مفتوحا انها مازالت تنتظره وستسأله ماذا فعل ، ولماذا لم يطرد الشاب ويخرجه الآن • فماذا سيقول لهــا ؟ وحقيقة لمــاذا لم ينفذ رغبتها • ويطرد الشــاب كما أمرته • أليس بيتها ؟ •• أليست هى صاحبة الحق المطلق فى ملــكها تبقى من تشاء وتطرد من تشاء • وتعز من تشاء وتذل من تشاء فلماذا هو يوقع نفسه فى هذا الحرج الشديد ويعرض نفسه الى سخطها وايذائها الكبــر • لقد ذهب الى الشــاب • ليقول له بأمر المعلمة أخرج الليلة • فماذا قال له • عاهده على أن يكون له عونا • عونا على من ؟• على هذه المرأة !! ان رجال الزقاق جميعا ، بل رجال الحارة أيضا ، بل رجال الحى كلهم مجتمعين

لو تكاتفوا وتعاونوا وتعاهدوا وكانوا يدا واحدة على هـذه المرأة ، لبطشت بهم جميعا . فكيف هـو وهـذا الشاب الذى لا حول له ولا قوة . سيقفان أمامها ؟. وكيف يبلغ به الجنون أن يفكر فى هذا . أن يوقع نفسه فى هذا الشر الكبير . أن المثل يقول : « اربط الحمار فى المكان الذى يأمر به صاحبه » وهى قد أمرت أن يطرد هذا الشاب فليطرد الشاب كما أمرت.

وأخرج من جيبه الخلفى زجاجة الكونياك . وتجرع منها عدة جرعات وأعادها الى مكانها . ثم مسح على شفتيه واتجه سريعا الى غرفة الشاب ووقف على بابها ورفع يده المرتعشة لينقر عليها من جـديد . ولـكن ماذا سيقول له ؟ المعلمة تريد أن تطردك من الغرفة وتأمرك بالخروج الآن ؟ لماذا ؟؟ حقيقة لماذا ؟ لماذا هـذه المرأة القاسية القلب تريد أن تطرده . لقد كانت هذه الغرفة تؤجر بخمسة وعشرين قرشا . فاستأجرها هـذا الشـاب بثلاثين وكان الايجـار يدفع مؤخرا . وفى نهاية كل شهر . ودفعه هـذا الشاب مقدما وفى أول الشهر . فلماذا يطرد ؟ لا .. لا .. لن يطرد هذا الشاب ولن يطرده هو أبدا . ولن تطرده أيضا هى . واذا طردته سيتعرض هو لها سيمنعها حتى ولو أدى به الامر الى أن يغرس أظافره هـذه الطويلة المدببة فى عينيها وليكن ما يكون . ان ما سيكون مهما كان سواده فلن تبلغ حلكته هذا السواد الذى يعيش فيه مع هذه المرأة . هذا البؤس الذى يتمرغ فيه . وأنزل يده التى كان قد رفعها لينقر بها على باب غرفة الشاب . وهم أن ينقل قدمه ليرجع من حيث أتى بيد أنه فجأة وقف فى مكانه مرتعشا . وجلا متدهور الانفاس فقد سمع صوت المعلمة ينبعث مدويا من غرفتها تناديه باسمه .. حسبو .. حسبو فأسرع اليها فى ذعر شديد ووقف أمام باب الغرفة فقد كان محرما عليـه أن يدخل عليها غرفتها . ولما رأته قالت له وغضب الدنيا جميعا يرتسم على وجهها :

ـ هل طردت هذا الفتى ؟

ـ أجل .. أجل .. طردته ، طردته .

ـ وخرج نهائيا ؟

ـ أصدرت اليـه الاوامر المشددة بالخروج فورا . فذهب لىأتى بحمال يحمل له متاعه الى لوكاندة المدينة المنورة حيث كان .

ـ مدينة منورة . مدينة مظلمة . فقط يخرج الليلة .

قالت له ذلك وهمت أن تدخل وترد الباب فى وجهـه بعنف شديد كما تعودت أن ترده دائما فى وجهه بعنف شديد .

بيد أنها لم تكد تفعل حتى سمعت فجأة صوت الشنوانى وهو أحد عمال السرجة ينادي ويستغيث ويولول صارخا :

ـ بهلول ·· بهلول ·· أغيثونى ·· الحقونى · بهلول سقط فى البئر · بهلول سقط فى البئر ·

فانطلقت كالسهم ومن خلفها الاستاذ حسبو يقطع فناء الدهليز وما أن أقبلت على السرجة ورأت الحمار فى قلب البئر غارقا وسط عصير الكسب والبذور اللزجة ، يكاد يموت وتختنق أنفاسه ·· وقد غطس كله فى قلب البئر ولم يظهر منه سوى رأسه وأذنيه فقط حتى انفجر مرجل غضبها وتعالى صراخها فى الليل كما انطلق الاستاذ حسبو مهرولا الى الزقاق هائجا مناديا بأعلى صوته على أهل الزقاق أن يهبو لانقاذ بهلول من البئر · وما هى الا لحظات حتى اجتمع أهل الزقاق جميعا رجالا ونساء فى قلب السرجة ، الكل يحاول أن يهدىء من ثورة المعلمة والكل يحاول أن يخرج بهلول من قلب البئر وتعالى الصراخ والهرج والمرج · هؤلاء يحاولون بكل ما أوتوا من قوة أن يزحزحوا الحجر الضخم الذى انزلق من مكانه فوق فتحة البئر وسدها على الحمار فلا يستطيعون · وهذا ينادى بأعلى صوته طالبا حبلا أو جنزيرا ليحزم به الحمار ثم يتعاون الجميع على رفعه ، وهذا ينزع ثيابه ويغطس فى قلب البئر ، محاولا ان يحرك الحمار من مكانه فلا يقدر ·· وهذه تصرخ مولولة على الحمار الذى يكاد تختنق أنفاسه · والمعلمة تنذر بالويل والثبور لسكان الزقاق ، وعمال السرجة وعلى رأسهم الاستاذ حسبو ان مات الحمار أو أصيب بسوء · وبينما الجميع كذلك يكاد يأخذهم الفزع واليأس ·· اذا بالشاب وقد خرج من غرفته على هـذا الصراخ والعويل يقف فيهم ويستأذن من الجميع أن يبتعدوا قليلا · ونظر الى الحجر الضخم ثم ثبت ظهره على جدار السرجة وقدميه الاثنين على الحجر ومن ثم ضغط عليه بكل قوته ·· وهـو يبسمل ويتمتم بشىء من القرآن · فاذا بالحجر الضخم يتدحرج أمامه كالكرة ، ثم شمر عن فخذيه وعقد حول خصره أطراف قميصه الممزق الذى يرتديه ومن ثم سقط فى قلب البئر وما هى الا لحظات تكاد تشبه الغمض حتى خرج بالحمار محمولا على كتفيه ممسكا به بذراع واحدة قد لفها حول ظهره ووقف الجميع ينظرون فى دهشـة ، ووقفت المعلمة مدهورة جاحظة العينين تنظر الى كتف الشاب العريضة الضخمة التى تحمل الحمار ، وذراعه المفتولة القوية ، التى تلتف حوله ، ثم تنظر الى جسمه هذا الفارع القوى وهو يسير بالحمار حتى بلغ

به فناء الدهليز ووضعه على الارض بين الحيـاة والموت حتى ظن الجميع أن الحمار قد مات بيد ان الشاب طمأنهم اذ طلب رأسا من رؤوس البصل ، ولما جيء بها اليه شطرها شطرين ، ومن ثم ضغط عليها بين أصابع يده الواحدة فتساقط عصير البصل نقاطا سكبها الشاب في منخاري الحمار الذي ما لبث أن فتح عينيه وحرك أذنيه وهز رأسه ثم نهض واقفا كأنه لم يحدث له شيء •• ولما رآه الشاب كذلك ورأى أن مهمته قد انتهت ، مد يده وأزال عن قميصه بعض الاوحال التي تلوث بها • وهم أن ينصرف بيد أن المعلمة ، التي ما زالت نظراتها المبهورة ، وعيونها الجاحظة عالقة بذراعه وكتفيه لم تتزحزح •• اقتربت منه وسألته قائلة :

ـ أتقطن أنت في هذا الحي ؟

فنظر الشاب الى باب الغرفة الذي يجاور باب غرفتها تماما وقال :

ـ انني أقطن هذه الغرفة ••

فأخذتها المفاجأة وهي تزم على شفتيها سريعا ، وتكاد تغمض عينيها حتى لا تفضحها دهشتها :

ـ اذن انزع هذا القميص لكي أغسله لك •

فقال الشـاب دون أن ينظر اليها وهـو يفتح باب غرفته ويتوارى خلفه :

ـ شكرا •• سوف أغسله بنفسي !

وهمت أن تدخل وراءه الغرفة وأن تقـول له شيئا ولـكن صوتا خفيضا جـدا يكاد يشبه الهمس أقبل من وراء ظهرها يقول :

ـ أأنفذ الحكم وأطرده •• أم ستراجع المحكمة نفسها ؟

فلم تلتفت الى الاستاذ حسبو الذي كانت الابتسامة العريضة تغمر وجهه وترقص على شفتيه •• وانما تركته وانصرفت الى غرفتها صامتة تنظر الى شيء بعيد •

الفصل الحادى عشر

كان من الاشياء التي أخذها الشـاب عن أبيه وتمسك بها وعاهد نفسه وربه عليها ، أداء فريضة الصلاة في مواعيدها ٠٠ وأن لا يصـلى الفجر قضـــاء أبدا مهما كانت الاسباب ٠ وقد أصبحت هـــذه عادة عنده ، فهو مهما كان متعبا ومهما كان مستغرقا في نومه ، لابد أن يستيقظ فى ســاعة محددة من الليل تسبق صلاة الفجر دائما بنصف ساعة على الاقل ٠ ثم هو لا ينام بعدها ثانية ٠

وقد استيقظ من تلقاء نفسه قبيل الفجر فى تلك الليلة ، ونهض من فراشه وأشعل المصباح الزجاجى ذى البرنيطة التى صنعها له من الورق المجفف ، ثم وضـــع القبقاب فى قدميـه وخرج الى الدهليز وفتح الحنفية التى أحدث صوت الماء المنساب منها فى البرميل صوتا مزعجا فى الليل أقلق المعلمة شفعات فى فراشـــها ٠ ففتحت عينها فى الظلام ، ومدت أذنيها فى الليل ٠ فسمعت صـوت الشاب عنـد الحنفية يتوضأ ويردد الشهادتين بصوت عال ٠ فضايقها هـــذا بعض الشيء ولكنها مدت يدها وسحبت الغطاء على وجهها ونامت ، بيد أنها عادت فاستيقظت ثانية عندما انتهى الشـــاب من وضوئه وعاد يدق بلاط الغرفة بالقبقاب الخشب الذى فى قدمه ٠ فأحدث القبقاب صوتا مزعجا أيضا نفذ الى أذنيها مبـاشرة ، فازداد ضجرها ، وزاد من هـــذا الضجر صوت وابور الغاز الذى أشعله الشـــاب ووضع عليه ابريق الشاى لكى يغلى الماء فى الفترة التى يقضيها فى الصلاة ، وضايقها هـــذا كله ضيقا شديدا وأقلقها وأثار سخطها الى حد أنها راحت فوق الفراش تحدث نفسها وهى تتقلب كالسمكة فى الماء وتنام حينا على جنبها الايسر ، وحينا على جنبها الايمن ، وحينا آخر تســـد أذنيها ، ومرة تغمض عينيها ٠ وظلت كذلك حتى انطفأ وابور الغاز ٠ وتلاشى صوته المزعج ٠ فهدأت ثائرتها ومدت يدها الى الغطاء وسحبته على وجهها مرة أخرى ، وأغمضت عينيها ونامت ٠ بيد أن هذا النوم لم يمتد بها طويلا هذه المرة لان الذى فعله الشاب ـ وكما تعود أن يفعله كل ليلة ـ أنه بعد أن خلص من صلاة الفجر وصنع الشـــاى وافرغه فى كوب أمامه جلس أمام المصباح ليذاكـــر فتناول ألفية ابن مالك ٠ وكان حفظها بالنسبة الـــه عسيرا للغاية ٠ وقد زادها عسرا الشيخ زناتى ـ وكيل الكلية ـ الذى

حتم على طلبة اللغة العربية ضرورة حفظها فى خلال خمسة عشر يوما • حفظا جيدا مجودا وأن تفهم فهما •• مفهما •• ومعروفا معرفا • كما كان يقول ـ رحمه الله ـ لذلك جلس الشاب بعد أن خلص من صلاة الفجر متربعا أمام المصباح ، وراح يبدأ ويعيد ، ويتلو ويرتل ، وهو يهتز أمام المصباح ذات اليمين وذات الشمال ناسيا نفسه وهو يقرأ بصوت عال مسموع :

كلامنا لفظ مفيد كاستقم   واسم وفعل ثم حرف الكلم

واحـده كلمة والقول عم   وكلمـــة بها كلام قد يؤم

ونفذ صوت الشاب الى أذنيها من ثنايا الباب الذى يصل بين الغرفتين والذى وضعت أمامه الدولاب لكى تسده نهائيا وتفصل بين غرفتها والغرفة الاخرى • فنفذ الى أذنيها خشنا أجشا بغيضـا • أطار النوم من عينيها • وأقلقها قلقا كبـيرا فثارت ثورة عنيفة وهبت من فراشها ساخطة • وفتحت باب غرفتها فى عنف • ووقفت فى فناء الدهليز تنادى بأعلى صوتها على حسبو ، لكى ينقذها من هذا الكرب • ولكن الاستاذ حسبو كان فى فراشـــه ، نائما ببذلته الخالدة وصديريه الممزق ذى الازرار الصدفية الغالية أشبه بتحفة أثرية يرجع عهدها الى عدة قرون • يغط فى نوم عميق • ليس من سبيل الى ايقاظه منه ، حتى ولو انهدم الدهليز • أو سقط بهلول فى البئر مرة أخرى •

ولما بح صوتها دون مجيب • وغاظها ذلك جـدا • وزادها سخطا على سخطها ، اندفعت فى ثورة هائلة ودفعت باب غرفة الشاب فانفتح على مصراعيه فأحدث دويا هائلا • ذعر منـه الفتى ذعرا شديدا • وزاده ذعرا عندما وجد أمامه امرأة شبه عارية الا من قميص نوم رقيق • كاد يكشف عن الجسد كله • تدخل عليـــه غرفته فى الليل • وتسبه سبا مقزعا • جارح اللفظ قبيح المعنى :

ـ أنت تخرج الآن • فورا •• أين تظن نفسك فى ـ مضبه ـ حنفية تفتح طول الليل •• قبقاب يدق على البلاط • كما تدق أرجل البغال • وابور غاز يشعل بصوت مزعج •• تقرأ بصوت كصوت الحمير ، وما تعيده تزيده كفقهاء الجبانة • حرف يؤم فى قلبك وكلام يعم فى عمك • وعن الذين خلفوك •

واستمع الشاب الى كل هذا ذاهلا مأخوذا • حتى أنه من شدة دهشته البالغة لم يسمع أو يفطن الى بعض العبارات التى

صدرت منها • بيد أنه نظر اليها بعد أن انتهت من هذا السباب ولكنــــه ما أن رفع عينيه الى صدرها العارى وقميصها الذى انشق من أمام عن قبة الثديين ، حتى رد البصر سريعا وأغمض عينيه • وهو يحوقل ويتمتم بألفاظ من القرآن وكأنه يستغفر عن ذنب كبير • ثم بعد جهد وبعد لحظات مضت استطاع أن يسترد فيها أنفاسه • قال وهو يفتح عينه دون أن ينظر اليها :

ـ من حضرتك ؟

فقالت ســـاخرة وصدرها ما زال يعلو ويهبط من شــــدة الغضب :

ـ عاشقة لك • مغرمه بك • متيمة لم تنم طول الليل من أجل عيونك السوداء •

ثم استردت أنفاســها سريعا وقالت فى نفس الثــــورة والغضب :

ـ أتريد أن تعرف من أنا • أنا صاحبة البيت •• صاحبة هذه الميضة التى تسكن فيها •

فقال الشـــاب وعينه لم تهبط الى أكثر من وجهها الثائر وشفاهها المضطربة • ولكن فى غيظ شديد :

ـ وهل صاحبة البيت تكون على هذا الجانب من الوقاحة ؟

فغلى الدم فى عزوقها وهى تقول :

ـ أنا وقحة ياكلب •

ـ وغير مؤدبة •

فاربدت سحنتها اربدادا مفزعا وانحنت فى سرعة خاطفة على قدمها اليمنى وتنــاولت الشبشب ذى الكعب العــالى والوردة الحمراء • ورفعت ذراعها به فى وجهه وهى تقترب منه كلبؤة مفترسة وتتمتم بشفتين مرتعشتين :

ـ أنا قليلة الادب • يا ابن الكلب •••

بيد أن الشاب لم يمهلها تتم • فقد كانت يده أســـبق الى ذراعها التى تريد أن تنهال عليــــه • وأمسك بها فى عنف • وضغط عليها فى قوة وغضب حتى كادت الذراع تختنق بين أصــابعه الخشنة المتوترة • فاضطربت المـــرأة ووقفت خائفة ترتجف تنظر الى تلك الذراع القــوية المتحجرة التى أمامها • وتلك اليد التى تضــغط على ذراعها حتى تكاد تعصرها عصرا • وحانت منها التفاتة الى كتف الشاب العريضة الصلبة التى تشبه الفولاذ والتى رأتها منــذ ساعات تحمل الحمار فى يسر وكأنها تحمل دجاجة ، فارتعبت وخافت • وسقط الشبشب من

يدها وعند ذلك تركها الشاب • وقال وهو يبتعد عنها قليلا وينظر اليها شزرا :

ـ لو أن امرأة في قريتنا فعلت هذا ، ورفعت الشبشب في وجه رجل • أيا كان هـــذا الرجل • لكان نصيبها القتل ، ولكنني أكتفي الان بطردك •

ثم نظر الى باب الغرفة وقال وهو يشير اليها بالخروج :

ـ تفضلي •

فلم تجب بشيء أو كأنها كانت تريد أن تجيب بشيء ، ولكنها انفجرت على الفور باكية ترتعش ، وجسدها كله يضطرب ويهتز وكأنها خشيت أن تســـقط ، فارتكنت الى الحائط وارتفقته بذراعيها العاريتين ودفنت رأسها الصغير الجميل بينهما • ومن ثم راحت تبكي بكاء مكتوما • وتضـطرب اضـطرابا عنيفا • ونظر الشـــاب اليها ، والى جســدها الذى يغلى كالمرجل أمام عينيه • والى الدموع التى انسابت من عينيها وتساقطت على القميص فبللته • فخاف وارتبك بعض الشيء ، وانقلبت ثورته الى شفقة وغضبته العنيفة الى عطف كبير على المرأة المستضعفة أمامه • فاقترب منها وهو يحوقل ثانية ويتمتم بألفـــاظ من القرآن مرة أخرى ، ويغمض عينيه ، حتى لا يبيح لنفســـه ما حرم الله • ويرى ما أمر به الله أن يستر • اذا ما وقعت نظراته على ردفيها البارزين الرجراجين اللذين أنسدل عليهما نسج القميص الرقيــق • فزادهما وضــوحا كمــا يزيد غطاء المصباح نوره توهجا • ولذلك قال وهــو ينظر الى بعيد وكأنه يخاطب شخصا آخر :

ـ مم تبكين •

فلم تجب وانما استرسلت في بكائها المرير • فقال الشاب وهو أشد ما يكون أسفا :

ـ ان كنت في لحظة غضبي • قد أسأت اليك • فاني أعتذر وأرجو من الله ومنك المغفرة على هـــذا الذنب الذى لم تكن لى يد فيه •

فرفعت صدرها الملتصق بالحائط ، ونظرت اليـــه بعينيها المحمرتين الغارقتين في الدموع وقالت بصـــوت حزين أثار شفقة الشاب الى حد كبير :

ـ انني أبكي حظي العاثر ، وبختي المائل ، ونصيبي الذى هو أشد سوادا من الليل • انني امرأة شرسة الطباع ما في ذلك شك • أسيىء الى من يحسن الى • وقد أسأت اليك رغم الحسنة التى قدمتها لى ، ورغم أنك أنقذت بهلول من الموت •

ولكن هكذا أنا فاعذرني • ان الايام ، والليالى ، وسوء الطالع الذى يلازمنى دائما ، وحظى العاثر مع كل الذين يحيطون بى • كل ذلك جعلنى مرهقة دائما ، مجهدة الاعصاب دائما • آتفه الاشياء تثيرنى وتقلقنى ، وتسبب لى النكد الشديد • وكذلك أيضا أتفه الاشياء تضحكنى وتسعدنى ، وتطربنى طربا شديدا• أنا أشبه ما أكون بطفلة ، بامرأة لا عقل لها • ان الذى يعرفنى لا يغضب منى أبدا • وانما يشفق على دائما •

ثم استرسلت فى بكائها حينا آخر ، واستطردت :

ـ ولكن لا أحد يعرفنى ، ولذلك الكل يسىء الى ، والكل يغضب منى •

ثم صمتت لحظات أخـرى ، جففت فيها دموعها وقالت فى صوت خفيض جدا ، حزين جدا :

ـ أنا امرأة شقية • أنا أشقى امرأة قدر لها أن تعيش فى هذه الدنيا •

وتأثر الشـاب ، وقال وهـو يمد يده ويتناول الكاكولة الكشمير من على المسمار ويطرحها على جسدها • الذى كاد أن يتعرى أمامه بعد أن سالت الدموع على قميصها ولصقت نسجه الرقيق على البطن دون أن تفطن هى الى ذلك :

ـ انك مسكينة •• الى هذا الحد تشقين فى حياتك •

ـ وأكثر من هذا الحد •

ـ وما السبب فى ذلك •

ـ كل شىء • كل شىء •

ـ أسرتك مثلا :

ـ لو كانت لى أسرة • ما كان هذا حالى •• قلت لك أنى شـقية • لا أب • ولا أم • ولا أخت • ولا حتى قريب أتفيأ بظله •

ـ وزوجك ؟

فانفجرت باكيـة بكاء عنيفا ، حتى راح جسدها يضطرب ويعلو ويهبط تحت الكاكولة المنطرحة عليه • وظلت كذلك الى حين دون أن يجرؤ الشاب على أن يقول لها شيئا ، أو يخرجها من هـذه الحمى التى انتابتها الى أن رفعت اليه وجهها الغارق بالدموع ونظرت اليه بنفس العينين المحمرتين اللتين بلون الدم وتمتمت بصوت يكاد يحترق ، وهى تزيح الدموع التى تجمعت على شفتيها :

ـ زوجى مات •

ـ عظم الله أجرك •

نطقها الشاب في حزن شـديد ، وألم ارتسمت معالمه على وجهه وهو يصغى اليها وهي تتحدث مستطردة :

ـ مات من سبع سنوات كاملة وأنا أعيش فى ظلام ، أرى كل شيء ولا ارى شيئا · أضحك لكل شيء وما عرفت الابتسامة طريقها الى قلبي · وأعيش فى الدنيـا ، ومع الناس وليس لى أحد في الوجود · كان هو الفرحة ، والابتسامة ، والدنيـا · والحيـاة · كان هو النور الذى أفتح عليه عينى والهناء الذى يعيش عليه قلبي كان هو الوجود كله · ولكنه مات ·

فنظر اليها الشاب وقال لها :

ـ انك طيبة القلب الى حد كبير ·

ـ ولكنهم يقولون غير ذلك ·

ـ لهم ما يقولون · ولله القول الفصل ··

ـ ترى هل سيغفر لى الله هـــذه الاخطاء وهـــذه المعاملة القاسية للناس ؟

ـ طالما أنك تحملين هـذا القلب الطيب · وهـذه السريرة التقية وهذا الوفاء الذى لا حد له لزوجك فثقى ان الجنة مثواك انشاء الله ·

ـ هل ستغفر أنت لى خطاى معك اليوم ، وتهجمى عليك ، وغلظتى لك فى القول ؟

فقال الشاب فى ابتسامة صادقة تألقت على شفتيه :

ـ وهل يملك الابن الا أن يغفر لأمه كل شيء ··

فنظرت اليه وقد أثارها على الرغم منها هذا التشبيه · وكاد ينفجر معين غضبها مرة ثانية · ولكنها أسرعت وخنقت هذه الثورة فى صدرها وقالت مبتسمة :

ـ وهل أنا مثل أمك ؟

فقال الشاب فى سذاجة لا حد لها :

ـ ثقى انه من الآن لا فرق عندى بينك وبين أمى ··

فقالت ناهضة وهى تضحك فى غيظ · وتزيح الكاكولة من على كتفيها وتعيدها اليه :

ـ اذن أمك عجوز جدا ·

ففطن الشاب الى الخطأ الذى تورط فيه · وقال على الفـور يجاريها فى ضحكتها وهو يغمض عينيه ويشيح بوجهـه حتى لا تقع نظراته على القميص الملتصق على البطن :

ـ أقصد فى المعاملة · وليس فى السن طبعا ·

فقالت وهى تمد يدها لتصافحه وتنصرف :

ـ انك أنت أيضا طيب القلب جدا ·

ثم قالت وهى تشير بيدها الى الباب المغلق الذى يفصل بين الحجرتين :
ـ اننى جارتك وهذه هى غرفتى ، وأى شىء تحتاج اليه تجده فى الحال •
فقال الشاب :
ـ هذا فضل منك • والله أرجو أن يجزيك عنه خير الجزاء •
فنظرت اليه وشىء يلتمع فى عينيها • ثم قالتضاحكه وهى تخرج وترد الباب :
ـ أهكذا كل المجاورين لابد أن يتكلموا بالنحوى •
وأحرج الشاب هذا القول ـ المجاورين ـ واحمر له وجهه خجلا • وأراد أن يهم خلفها ويقول لها شيئا ويصحح لها الوضع • ويفهمها بأنه ليس مجاورا فى الازهر كما تظن ، وانما فى سنوات التخصص • وعما قريب سيصبح مدرسا للنشء معترفا به من وزارة « المعارف » ويفهمها غير ذلك أيضا • يفهمها أن المجاور فى الازهر لا يستحق منها هذه السخرية فهو رجل علم ، ودين ، وصلاح ، وتقوى • وليس هو كما تظن ـ فقى ـ من الذين يتسولون بكلام الله وآياته المحكمات •
وراح بينه وبين نفسه يعجب من هؤلاء الذين يحملون فى نفوسهم كل هذه السخرية للمجاورين فى الازهر الشريف وطلاب العلم والدين • وكيف أنهم بهذه السخرية وهذه النظرة المزرية له ، يرتكبون اثما كبيرا وهم لا يشعرون • وراحت هذه الافكار تلم به ، وتثقل عليه وهو يرتدى ثيابه ليخرج بيد أنه قبل أن يخرج سمع طرقا على الباب وسمع صوت الاستاذ حسبو يناديه فأسرع وفتح الباب ، وما أن رآه الاستاذ حسبو مرتديا ملابسه حتى اندهش • وسأله لماذا استيقظ هكذا مبكرا وارتدي ثيابه أيضا ، وأين هو يريد أن يذهب فى هذا الوقت المبكر • فأخبره الشاب بأنه تعود دائما أن يستيقظ هكذا كل يوم ليصلى الفجر ، وأن يخرج أيضا مبكرا لانه تعود كذلك أن يذهب الى الكلية مشيا على قدميه • ليوفر أجر الترام الذى لم يدخل أجره فى حسابه • فاندهش الاستاذ حسبو وقال مشفقا وهو ينظر اليه :
ـ ولكن المسافة طويلة جدا يابنى • ولا أحسبك قادرا على أن تقطعها على قدميك فى الذهاب والاياب كل يوم •
ـ الله يعين •
ثم قال فى ثقة وايمان :
ـ وهو سبحانه وتعالى ، قد وهبنا الصحة من أجل ذلك من أجل أن نستعين بها على هذه الصعاب •

فقال الاستاذ حسبو وهو يتناول نصف رغيف كان أمامه على انطبليه بجوار كوب الشاى الفارغ ويقضم منه :
ـ ادن فلى نصيحه ، يتوقف عليها مصيرك فى هذا البيت ، بعد أن ثبت الله أقدامك فيه بفضل بهلول :
ـ خيرا ٠ ما هى ؟
فقال الاستاذ حسبو وهو لايزال يقضم من نصف الرغيف:
ـ ما دمت تستيقظ كل يوم مبكرا هكذا ، فعليك أن لا تحدث ضجيجا فى الغرفة ولا فى الدهليز ٠ فمثلا الحنفية لاتفتحها الا بمقدار حتى لاتحدث صوتا ، ولاتسير بالقبقاب على البلاط ، وان ذاكرت بعض دروسك فبصوت خافت ٠ حتى لا تقلق المعلمة فى نومها ، فتقلب لنا البيت رأسا على عقب ٠
فقال الشاب ضاحكا على الفور :
ـ وكادت أن تقلبه فعلا انيوم ، لولا أن الله سلم ٠
فقال الاستاذ حسبو فاغرا فاه :
ـ هل أقلقت المعلمة ؟
ـ لم أقصد ٠
ـ وماذا فعلت ٠ قل ٠٠ أسرع ٠
ـ اقتحمت على الباب وأغلظت لى فى القول وبلغت بها القحة بأن رفعت الشبشب فى وجهى ٠ ولم تلق به الا عندما هممت بضربها ٠
فارتعشت شفتا الاستاذ حسبو وهو يسأل ذاهلا :
ـ تضربها ٠ تضرب من ؟
فقص عليه الشاب كل الذى حدث ٠ وكيف انهما تصالحا٠ وخرجت راضية وكيف انها ست طيبة القلب ٠ لا تضمر سوءا ٠ وان كان مظهرها يدل على غير ذلك ٠ الى أن أنهى الشاب حديثه قائلا :
ـ انها فعلا ٠ سيدة طيبة القلب الى حد كبير حتى أننى وضعتها فى منزلة أمى ٠
ـ أمك ؟!
نطقها الاستاذ حسبو وهو يتلفت حواليه كمن يريد أن يستغيث ٠ ثم أسرع الى الشاب وأمسك بذراعه ، وسحبه الى ركن قصى بعيد عن البابين حتى لايسمعه أحد ، ثم همس فى أذنه وهو ما زال يتلفت حواليه فى خوف شديد :
ـ انك مغفل ٠
ولم يدع الشاب يقول شيئا لانه استطرد :

ـ انها أفعى · ثعبان كبير · حشرة مؤذية · سم بطيء · مرض خبيث ·

ثم تلفت حواليه مرة أخرى وهـــو ممسك بذراع الشاب وواصل قوله :

ـ انها تماما كالقنبلة التى لم تنفجر · من الخير للنـــاس جميعا أن يبتعدوا عنها · أن يتجنبوا خطرها وأذاها · لو أدى بك الامر أن تبطل صلاة الفجر هذه ، حتى لا تفتح الحنفية ، وتدق بالقبقاب على البلاط فتقلقها ، فسوف يغفر الله لك · لانه أشفق بعباده من ان يكتووا بنارها ·

ثم تلفت حواليه ثانية وأراد أن يقول شيئا آخر · ولكن الكلمات وقفت فى حلقــه ، وجحظت عينـــاه وارتعشت يده الممسكة بذراع الشاب وهـــو يصغى الى صوتها الجهورى فى الدهليز · وهى تنادى فى عصبية :

ـ حسبو · ياهباب يا حسبو · يازفت · يا حسبو ·

وكما ينطلق السهم ، انطلق الاستاذ حســـبو متدهـــور الانفاس ·

الفصل الثاني عشر

خرج الشاب بعد هذا الحديث القصير بينه وبين الاستاذ حسبو . يفكر بعض الشيء لا في هذه المرآة وما قالته له أو قاله عنها الاستاذ حسبو .. لأن الامر سواء كان هذا أم ذاك فهو لايعنيه في شيء وانما الذىفكر فيه هو معاملتهاهذهالقاسية للاستاذ حسبو . وثورتها دائما عليه . وغلظتها له في القول كلما رأته أو تحدثت معه . بيد أن التفكير في هذا سرعان ما نسيه أيضا . اذ شغل عنه بألفية ابنمالك التى راح يقرأها في سره وهو يسير في الطريق . وسره أن وجد نفسه قد حفظها وحفظها جيدا مجودا وفهمها أيضا فهما مفهما كما يريد الشيخ زناتي . وقد أبهجه ذلك الى حد كبير .. وجعله يتذكر أمه ، ودعواتها الصالحة اليه .. والتميمة التى طلبت منه أن يحتفظ بها في جيبه وفكر في أن يكتب لها خطابا .. يطمئنها عليه . وعلى النجاح الذى أصابه حتى الآن . في السكن . وفي معرفة الاستاذ حسبو وصداقته به ، وحبه له . وفي الكلية وتعلقه بدروسه . وحفظه لالفية ابن مالك حفظا جيدا مجودا . فكر أن يكتب اليهابكل هذا ولكنه تذكرالاستاذ الشرنوبى أبا اسماعيل . وزوجته الست صبرية . وابنتهما سلوى . وفي الخطاب الذى في جيبه اليهم ، والسلام الذى حملته أمه للرجل وأسرته . فكر في كل هذا . وفي ضرورة الكتابة الى أمه . ولكن بعد أن يقوم بهذه الزيارة عصر اليوم . ولذلك عندما خرج من الكلية لم يذهب الى البيت . وانما ذهب الى العباسية وراح يسأل عن الوايلية الصغرى وشارع (..) والبيت رقم (..) بيد أنه عندما عثر على البيت . وبدأ يصعد السلم انتابته أحاسيس كثيرة وأحس بشيء من الاضطراب ، حتى أنه وقف لحظات على السلم . وفكر في أن يرجع من حيث أتى . وأن يرجيء هذه الزيارة الى فرصة أخرى . لانه لم يطمئن الى أشياء كثيرة . ولانه يخاف أيضا من أشياء كثيرة .. هلسيستقبله الاستاذ الشرنوبىبالترحاب الذى ينتظره . أم أن السنين الطويلة التى فاتت . والمركز الكبير الذى يشغله في وزارة المعارف العمومية .. والايام التى

من طبيعتها أن تغير كل شيء ، ستغير من الرجل • وستجعله يستقبله ـ ان استقبله ـ في فتور وعدم ترحاب • وسينظر اليه ـ ان نظر ـ من أعلى ، كما ينظر أهل السماء الى أهل الارض ؟ والست صبريه زوجته • هذه السيدة الطيبة القلب الكريمة الخلق ، هل ستلقاه كما كانت تلقاه وهو طفل في الحارة • هاشة باشة مرحبة • تأخذه بين أحضانها وتقبله• وتملا له جيبه بالحلوى . أم غيرت الايام حالها • وترفض حتى مجرد الترحيب • وسلوى •• وما أن ذكر الاسم وجرى به لسانه • حتى اضطرب وتعالت دقات قلبه وشعر بما يشبه الخوف يلم به ويطبق على أنفاسه • ترى ألم تزل هي الاخرى كالعهد بها طفله لم تزد عن أمس الا اصبعا كما قال الشاعر • أم كبرت ونضجت ، وأينع فرعها • ورق عودها • وغدت ست ـ مصراوية ـ متحضرة • فيصعب عليها معرفته ان رأته ، أم ستذكره وتذكر أيامه والقرية والزقاق والحارة • وليالى الجرن • وفوانيس رمضان • والاستغماية • والحلقة والمضرب وو ••• وأحس بأنفاسه تطبق عليه مرة أخرى •• أم أنستها الايام والسنون هذا كله •؟ هل ستعرفه هل ستلقاه • هل سيعرفها هو • هل سيلقاها ، ويتحدث اليهاوتتحدث هي اليه ؟ وحانت منه التفاتة وهو يصعد السلم متخاذلا الى قدمه فرأى الحذاء الاصفر الفاقع والابزيم الذى ينام ملتمعا على جانبه • فشعر بشيء من الارتياح •• وزادته هذه الراحة اطمئنانا وهو ينظر الى الكاكوله الكشمير الفضفاضة التى تزين طوله الفارعوقوامه الممشوق وازداد اطمئنانا أيضا عندما رأى على مرآة خاطره • عمامته البيضاء التى تزين رأسهوشالها المزهر الابيض الناصع البياض الذى يلفه حولها • وكان قد وصل الى باب الشقة •• ووقفأمامه • فبسمل وقرأبعض آيات قصار منسورة الحجرات تعود أن يقرأها ، كلما أراد أن يخرج من حرج ، ومد يده وضغط على الزر الكهربائى ووقف ينتظر • وكل حواسه عيون متجهة الى الباب . ومد يده مرة أخرى ليضغط على الجرس ثانية ، بيد أن الباب فتح فجأة وظهرت عليه غادة حسناء لم تر العين أجمل منها • وما أن رأت أمامها رجلا عملاقا فارع الطول • حتى اضطربت وردت الباب سريعا في وجهه وهي

تسأله من خلف الباب • ماذا يريد • فلم يجب على الفور •
بل لم يجب اطلاقا لانه ارتبك ارتباكا شديدا وشعر بالخجل
والخزى يكتنفانه لانه ظن نفسه قد أخطأ فى العنوان • بيد أنه
عندما سمعها تعيد عليه السؤال مرة أخرى وتسأل من هو
وماذايريد • وهل هو فعلا يتصدهذا البيت بالذات • استطاع
أن يحرك شفتيه ويتمتم بصوت خفيض كاد أن يتلاشى قبل أن
يبلغ أذنيها الواعيتين :

ـ أليس هذا هو منزل الاستاذ الشرنوبى أبو اسماعيل •

فأجابه الصوت الانثوى الرقيق من خلف الباب :

ـ أجل • من حضرتك ؟

ـ أنا • امام ••

ـ من •• امام •.

فاضطرب الشاب اكثر وهو يقول :

ـ امام بلتاجى حسنين • من الباتنون مركز المنوفيه •

فعقدت الدهشة لسان الفتاة وهى تفسح لعينيها فرجة فى
الباب وتنظر اليه دهشة مستغربة :

ـ امام ابن خالتى آمنة !؟

ولم ينطق الفتى بشىء لانها كانت قد اندفعت اليه ناسية
نفسها حتى كادت ترتمى فى أحضانه وتعانقه فى شوق زائد
وحرارة • وهى تسحبه من يده سريعا الى الداخل • والفرحة
تكاد تطير صوابها • حتى أنها تركته واقفا فى قلب صالة
البيت الفسيحة حائرا أين يجلس • وراحت تركض فى طفولة
وهى تنادى صارخة فى فرحة لا حد لها :

ـ ماما • ماما • امام ابن خالتى آمنة •

وخرجت الست صبرية التى تقدمت بها السن بعض الشىء
من المطبخ وكانت تحمل فى يدها مصفاة تلوك فيها بعض حبات
الطماطم وهو الشراب المفضل عند الاستاذ الشرنوبى • وما
أن رأت امام حتى ألقت بالمصفاة سريعا • ومسحت يديها سريعا
أيضا فى ثوبها المنزلى الفضفاض • وتلقفت الشاب فرحة بين
أحضانها وعانقته وقبلته كما كانت تعانقه وتقبله وهو صبى
يلعب مع سلوى فى الحارة • ثم راحت مرة أخرى تعانقه وتقبله

وهى تقول فى غبطة وسرور وعيناها تتفحصانه من الرأس للقدم :
ـ صلاة النبى • صلاة النبى • شباب وجمال • وطول وعرض •
فقالت سلوى وهى لا تكاد تملك نفسها من السعادة :
تصورى يا ماما أننى لم أعرفه عندما رأيته • وكدت أغلق الباب فى وجهه .
وكان هذا اللقاء الكريم قد أطرب الشاب الى حد كبير فقال مسرورا وهو ينظر الى سلوى • وكأنه ينظر الى شئ ينير عينيه :
ـ أنا أيضا لم أعرفك حتى اننى خشيت أن أكون قد أخطأت العنوان •
فقالت الست صبرية وهى تجلسه بجوارها على الكنبة مرحبة :
ـ عمر • سبع سنوات • من أيام إلباتنون للآن •

وجلس الثلاثة يتحدثون ، عن الزمن والايام ، والسنوات السبع التى مرت وقفزت بسلوى وامام ، من الطفولة الى الشباب • كما راح الشاب يحدث الست صبرية وسلوى عن القرية وأهلها ووفاة والده • ومرض والدته ، وداء الكبد الذى يعاودها من حين الى آخر • وكلما امتد الوقت بالشاب وأراد أن ينصرف ألحت عليه سلوى فى البقاء ، وأقسمت الست صبرية عليه أن يظل حتى العشاء ، وحتى يحضر الاستاذ الشرنوبى الذى سيسر كثيرا لرؤيته والذى كان دائم السؤال عنه ، وعن أخباره ، وبلغ من حرص سلوى على بقائه أنها غافلته • وسرقت منه ـ العمامة ـ التى كان يضعها بجانبه على أحد المقاعد حتى لا يخرج • وظلوا كذلك الى أن أقبل المساء •

وعاد الاستاذ الشرنوبى من الخارج وما أن دق الجرس وعرفت سلوى انه والدها حتى راحت فى طفولة وسرور تعد له مفاجأة •• اذ تركت الشاب الذى كان يجلس معها فى الصالة • وأسرعت تفتح الباب لوالدها ثم اختبأت خلف الباب دون أن يراها والدها أو يراها الشاب وما أن دخل الوالد الى الصالة

ورأى رجلا غريبا فى البيت حتى وقف مبهوتا • يسأل من هو ولولا الضحكات التى لم تستطع أن تكتمها سلوى وانطلقت منها مدوية خلف الباب ، لتحرج موقف الشاب • وكما استقبلته سلوى ، واستقبلته أمها ، استقبله أيضا الاستاذ الشرنوبى • وراح يهنئه على نجاحه الكبير فى الدراسة • وكيف أنه حقق رجاء والده رحمه الله فيه • وكيف أن الاستاذ الشرنوبى كان يحرص دائما على تتبع أخباره أولا بأول • ولذلك ساءه جدا عندما عرف من الشيخ فراج عمدة الباتنون ـ الذى قابله مصادفة فى ميدان الخازندار وشرب معه فنجانا من القهوة ـ ان امام هنا فى القاهرة منذ زمن ولم يتصل به • وراح الاستاذ الشرنوبى فى حنان الاب ووفاء الصديق ، يرحب بالشاب ويسأله عن مدرسته ودروسه وسكنه الجديد • وعما يحتاج اليه من مساعدة ولما قدم له الشاب الخطاب الذى كان قد أملاه له الشيخ نوفل • وأوصته فيه أمه خيرا بابنها ، وذيلته بكلمتين من عند الشيخ بسيونى مأذون الشرع • وقرأه الاستاذ الشرنوبى • وتأثر جدا ، اذ استشعر من ثناياه مدى ما يعانيه الشاب من فقر بعد وفاة والده ، ومدى حاجته الى المعونة الصادقة فى القاهرة الواسعة ، التى يتخبط فى خضمها كل فقير معوز يطلب العلم فى معاهدها • وود الرجل أن يقرض الشاب قرضا حسنا يعينه على حياته الشاقة وضيق ذات اليد الذى يقاسيه • بيد أنه خشى أن تؤلم هذه المعونة الشاب وأن تحدث جرحا فى نفسه وكرامته وعزته الريفية التى يفخر بها • ولذلك عرض الامر على زوجته الست صبرية وتفاهما فى الامر •• ثم اتفقا على حل يجنب الشاب هذا الحرج ويحفظ له كرامته وعزته وكبرياءه • وهو أن سلوى فى حاجة الى دروس فى النحو واللغة والدين ، وأن الشيخ الخزرجى يعطيها هذه الدروس مرتين فى الاسبوع نظير مائة وخمسين قرشا . فلماذا لا يستعاض بالشاب عن هذا الشيخ • والشاب أقرب صلة بهم وأكثر مودة لهم • وهو للفتاة بمثابة الشقيق وللبيت بمكانة أحد أفراد أسرته • ورحب الاستاذ الشرنوبى بفكرة زوجته الصائبة •• وشكرها عليها ومثلها لها ضاحكا كما كان يمثل لها دائما

أفكارها الصائبة التى كانت تواتيها من حين الى حين • بأنها كالساعة المعطلة دائما تمر عليها لحظة ما تكون فيها أضبط ساعات العالم • وأسرع من فوره وعرض الفكرة على الشاب ، بدون أن يشعره بالهدف الذى يرمى اليه من ورائها فرحب بها الشاب ترحيبا كبيرا وأعدها مفخرة له وشرفا كبيرا أن يكون أستاذا لابنة استاذه ومربيه •

وقضى السهرة فى تلك الليلة فى بيت الاستاذ الشرنوبى وتعشى مع الاسرة وظل معها الى وقت متاخر من الليل • يتحدث ويسمر • كما كان يتحدث ويسمر بين أمه وأبيه • ثم انصرف على أن يعود أول الاسبوع القادم ليبدأ دروسه مع الفتاة •• وودعته الاسرة بحرارة ، كما استقبلته • فرحة به كما لو كان ابنا لها عاد من غيبه طويلة • وبعد ان انصرف الشاب ، وجدت الست صبرية نفسها تسأل زوجها عن مستقبل الشاب ومركزه فى البيئة الاجتماعية • بعد أن ينال شهادة التخصص والوظيفة المحترمة التى سيتقلدها • والمرتب الذى ستلتزم به الدولة اليه ولما أجابها الاستاذ الشرنوبى على كل سؤال • وكانت اجاباته جميعها فيها ما يطربها ويثلج صدرها • أطرقت قليلا ثم نظرت اليه وكأنها واتتها فكرة من تلك الافكار الصائبة التى تواتيها من الحين الى الحين • والتى هى عند الاستاذ الشرنوبى فى أحكامها واصابتها أشبه بالساعة المعطلة دائما • وما أن أشرقت عيناها نورا بالفكرة • حتى أحست سلوى بما ترمى اليه الام • فتورد خداها • وانصرفت خجلة الى مخدعها متعثرة الخطوات مضطربة الفؤاد وتسللت الى فراشها الدافىء الوثير وانطرحت عليه مغمضة العينين • مسبلة الهدبين الطويلين •• ومن ثم راحت تستعيد حوادث كثيرة وأحداثا جمة • يرجع العهد بها الى ما قبل سبع سنوات أيام ان كانت طفلة تعيش فى قرية الباتنون وتقطن زقاق المرعشلى وتلعب فى الحارة ليالى رمضان ساهرة فى الجرن تلعب الاستغمايه •• وجمال المالح •• وحلقه ومضرب والكرة والجورب •• والكرة التى • وفجأة زمت شفتيها وجحظت عيناها وظلت كذلك جاحظة العينين • الى أن غلبها النوم فنامت مطبقة العينين على هذه الاحلام الجميلة وعلى هذه الذكريات التى يعيش عليها دائما الانسان أكثر العمر ان لم يكن العمر كله •

الفصـل الثالث عشر

فى حياة بعض الناس ، فى أحاسيسهم ومشاعرهم أشـياء كثيرة غريبة الشأن . أشياء ليست مجهولة لديهم . وليست أيضا معروفة عندهم فهى أشياء تعرف ولا تعرف نحبها ونحس بها ونكاد نلمسها بأيدينا ونراها بأعيننا ولكننا لا نعـرف شيئا عنها . ما هى . ما سرها .. ما حقيقتها أنها أشبـه بالخيوط الدقيقة التى لا ترى .. والتى تربط بعض النـاس بالبعـض الآخـر . وتصـل بينـك وبين الآخـرين فى المشاعر والأفكار والأحاسيس . وهى التى نعبر عنهـا أحيانا بقولنا بين القلب والقلب رسول . وهذا الرسول دائما مايكون رسول حق وصدق ، لايعرف الكذب ولا النفاق وهو أن همس فى أذنك بشيء . انما يهمس لك بمافي قلب الآخر . فان كان صدقا واخلاصا نقله اليك صادقا . وان كان بغضا وكراهيـة نقله اليك أيضا صادقا . لايزيده شيئا . أو ينقص منه شـيئا وأحس الفنى وهو يسير فى الطريق ، بأن شـيئا ما يبهجـه . ويفيض عليه . ويغمر فؤاده ومشـاعره . ويـكاد يربط تلك المشاعر وذلك الفؤاد بسعادة ضخمة . سعادة جعلته يسير فى الطريق مرحا . خفيفايكاد يطير بجناحين .. انه يضحكويبتسم ويسير ويقفز وينظرذاتاليمينمرة ، وذاتالشمالأخرى انهيريد أنيقطع كلالطرقات . ويرىكلالمارة . ويمتععينيه بكل شيء، بالمركبات التىتروح وتجيء ، بالانوار التىتتألق فىعينيه . انه لايريد أنينام . انه لايريدلهذا الليل أنينقضى انهيريد الآنأى يرىأمه . أنيرى الشيخنوفل . الشيخبسيونى مأذونالشرع، كل من يحب . يريد أنيرى الذينيحبونه جميعا . ولكنهم الآن فى الباتنون . وهو فى (مصر) . مصر الواسعة مصر أمالدنيا .. مصر التى كان يسمـع عنها فى الكتب ، وتذكر الذين عرفهم من أهلها . وذكر عدة أسماء .. وتذكر محمدين .. ولوكانتالمدينة المنورة . ومسجد سيدنا الحسينالذىيجاورها .. وكان قد بلغ ميدان ـ العتبة الخضراء وأحس برغبة شديدة

فى أن يرى محمدين وأن يجلس اليه • ويتحدث معه وهـو يشرب الشاى • وسأل أحد المارة فدله عـلى الطريق • وراح وحده فى الليل يقطع شارع الازهر الى أن بلغ المسجد • فعرف اللوكانده من تلقاء نفسه •• واستقبله محمدين استقبالا جميلا •• وجلس معه يتحدث ويشرب الشاى ويقص عليه قصـــة اللقاء الاول بعد سبع سنوات لسلوى ووالدتها الست صبرية •• ووالدها الاستاذ الشرنوبى • ورأى محمدين النور الـذى يتألق فى عينيه وهو يتحدث ، والفرحة التى تغمر فؤاده وهو يذكر اسم سلوى • ففطن الى شىء • ولذلك قال له وهو يناوله كوبا من الشاى أخرى :

ـ عليك اذن أن تسهر الليل بطوله • ولا تنام فى النهـار الا قليلا ••

فأجاب الشاب مستغربا :

ـ لمـــاذا ؟

ـ لكى تستطيع أن تحصل على الشهادة •

فأندهش أكثر لهذا الحديث الدخيل الذى لا صلة له بمـــا كانا يتحدثان فيه وقال وهو ينظر اليه مستغربا جدا :

ـ وما الصلة بين حصولى على الشهادة • وحديثى معـك عن سلوى وأسرتها ؟

فقال محمدين ضاحكا :

ـ اذا استطعت أن تحصل على الخمسة قروش • استطعت أن تنام فى لوكاندة المدينة المنورة • أما اذا حصلت على الشهادة استطعت أن تحصل على سلوى •

فارتبك الشاب واحمر وجهـه خجلا • وكاد كوب الشـاى يسقط من يده ، لولا أن محمدين فطن الى ارتباكه فقال وهـو ينهض وينهضه معه :

ـ ما رأيك لو صلينا الفجر فى سيدنا الحسين ؟

فزالت ربكة الشاب • وظهر الارتياح على وجهه • وراح يســير بجواره فى الظلام • ويخترق معـــه فى صمت زقاق الفحامين الممتد خلف المسجد مباشرة • الى أن دخلا المسجد ، وذابا فى زحمة المصلين • ولما انتهت الصلاة ، وودع الشاب صديقه محمدين • وجد نفسه وهو يودعه يضغط على يده ،

ويشكره من كل قلبه شكرا حارا • لا على اللحظات الجميلة التى قضاها معه ولا على كوب الشاى الذى قدمه اليه • وان كان محمدين ظن ذلك • ولكن حقيقه هذا الشكر الحار كانت لاشياء أخرى كثيرة هامة لفت نظره اليها محمدين بكلمة عابرة •

ــ اذا حصلت على الشهادة • استطعت أن تحصل على سلوى •

فانطبعت على ثغره ابتسامة عريضة كادت تنير وجهه كله • وتنير أيضا الطريق أمامه • بيد أنها سرعان ما أخذت فى المغيب اذ اكتنفها بعض الغمام الذى تمثل له فى الشهادة نفسها • والطريق اليها • وسبيل الحصول عليها • وتلك الطلاسم العديدة ــ الكنز على الدر المكنون ــ الرسالة التفسيرية فى التوحيد ــ حاشية اليازجى فى المنطق « هذه الكتب التى ليس فيها من الجمال أو اليسر غير أسمائها فقط » •

وأراد أن يقول لنفسه شيئا ، بيد أنه كان قد بلغ البيت ، فمد يده الى ذلك الجنزير الطويل ، ورفع به سقاطة الخوخة فى حذر شديد حتى لا يسبب للمعلمة المستغرقة فى نومها فى الغرفة المجاورة قلقا أو ازعاجا • ثم اخترق الدهليز على أطراف قدميه فى الظلام • حتى بلغ باب غرفته ، فأدار مفتاحها فى حذر ورفق • وما أن عاد فأغلقه أيضا فى حذر • ورفق • حتى تنفس الصعداء ، وراح فى ظلام الغرفة لانه لم يشأ أن يشعل مصباحها الزجاجى • ينزع ملابسه رويدا فى هدوء واطمئنان وسعادة طاغية لم يستشعرها فؤاده منذ زمن بعيد • ولما وضع ملابسه فى أماكنها المعدة لها • العمامة فى السفط المغلف بالورق السميك ، والكاكولة على المسمار • والحذاء فى مكانه من الارض • ولما اطمأن الى ذلك كله ، استلقى على سريره كما تعود أن ينام عاريا الا من سرواله الطويل الذى تنسدل أطرافه الى ما بعد الساقين • وبقى صدره العريض عاريا تغطيه تلك الطبقة السوداء من الشعر الكث الخشن • ومن ثم راح وهو مستلق على ظهره يسبح فى دوامة من الاحاسيس الجميلة والآمال العراض • والامانى العذاب • وهو يستعرض بعينيه الواسعتين المعلقتين فى الهواء بسقف غرفته الرطبة المظلمة • شريط حياته الطويل •• القرية •• دهليز المرعشلى •• الزقاق •• عم نوفل •• طبلة المسحراتى •• الجرن •• فوانيس رمضان •• سلوى •• الثلاث بيضات التى سرقها •• الحلوى الطحينة التى ابتاعها لسلوى •• الضربات التى سددتها له أمه •• طبلية العمدة •• ورك الدجاجة •• السطح ••

كومة التبن . وفجأة ، زم على شفتيه وتصلبت أصابعه الخشنة وهو يغرسها فى الوسادة النائم عليها . وعيناه تبرق بريقا خاطفا . وأنفاسه تترى لاهثة متقطعة . فيعلو منها صدره وينخفض . وهو يستعرض حادث الكرة التى سرقتها سلوى ، وخبأتها فى صدرها ذات يوم .

وظل كذلك لحظات يعلو فيها صدره ويهبط . وتبرق عيناه وتلتمع . وتترى أنفاسه وتنقطع . الى أن اكتحلت عيناه بالسواد وغامت نظراته خلف سحابة من الخيالات المتشابكة التى لم يستطع أن يتبين منها شيئا . الى أن أطبق عينيه وأطبق أيضا شفتيه وسبح فى نوم عميق . وما زالت أصابعه الخشنة مطبقة على الوسادة مغروسة فى حشيتها .

الفصل الرابع عشر

المرء بأعصابه . هــذه حقيقة مقررة ولكنها أبدا لم تكن الحقيقه كلها . لأن هناك قوة غير عاديه هى التى تتحكم فى هذا العضو المادى ، أو هذه الاعضاء التى يتكون منها العصب على حد قول الاطباء .

وهذه القوة غير العادية لم يعرف لها اسم محدد حتى الآن . فتارة هى الاحساس ، وتارة هى الشعور ، ومرة هى الفؤاد ، وأخرى هى العواطف . ولعل هــذا الاسم الاخير هو اقرب الاســماء اليها . لاننا فى حقيقة الامر نعيش بعواطفنا . وان عواطفنا هى التى نتحكم فى اعصابنا هذا التحكم المرير ، وهى التى تجعلها بلا أدنى سبب ترغي وتزبد وتثور الى درجــة الغليان ، وهى نفســها ايضــا التى تجعلها تهدأ أو تطمئن وتهبط الى درجة الصفر .

ونقــول بلا أدنى سبب . لان نظرة عابرة تلقيها عينك مصادفة على شيء ما كفيلة بأن تقلب حياتك رأسا على عقب . وتجعلك تعيش فى ضيق وفى قلق . وفى جحيم أيضا . وهذا ما حدث بالذات لشفاعات أو للمعلمة شفاعات التى لا ترضى بغير هذا اللقب بديلا . فهى منذ اللحظة التى وقعت عيناها على هــذا الشاب الريفى الساذج وهى تشعر بانها فى ضيق . ضيق تبعده عنها أحيانا فيبتعد . ولكنــه سرعان ما يعود متسللا اليها من حيث لا تدرى . وهو لا يلم بها فى أول الامر مظلما مقبضا بحيث يثيرها ويقلقها ، وانما هو يلم بها كما يلم نسيم الفجر الرقيق العليل بالزهرة الجافة الظامئة فينديها ويرطبها ويرويها ويفتح أفواهها للحياة . وأوراقها للدنيا . وعبيرها للخلود . ثم فجأة تطلع الشمس القائظة فتحيلها الى الجفاف والقحط والظمأ الذى لا يستشعر حرقته الا من عرف نعيم الارتواء .

كانت هــذه هى حالها تماما منــذ أن رأت امام ، تذكره وتذكر اللحظة التى رأته فيها ، وكتفه العريضة التى رأتهــا تحمل بهلول ، ويده الخشنة الغليظة التى شاهدتها قابضة على معصمها فى عنف فتضطرب ، وتسر ، وتشعر بقبض من الرضا ثم فجأة تذكر أشياء أخرى كثيرة ، هذا الانسان العابر ، هذا الطالب الذى لا يعدو أن يكون واحدا من آلاف الطلاب الذين تمتلىء بهم القاهرة كــل عام ، سنه سذاجته ، الفــرق الهائل

الذى بينها وبينه ، كبرياؤها ، غطرستها ، سطوتها فى الحارة والزقاق والحى كله ، القاصى والدانى الذى يرهبها ويخشاها تذكر كل هذا ، فتبعده عنها سريعا ، والغريب انه يبتعد ، ويبتعد سريعا كما تريد له ولكن هذا الضيق الذى تشعر به ، هذا الحرمان الذى تعيش فيه ، هذه الجفاف الذى يكاد يقتلها ، هذا الظمأ الذى يكاد يحيل كل جارحة فيها الى رماد ‥ هذه النار التى تكاد ألسنتها تأكلها أكلا ‥ ماهذا ؟ وما هو ؟ وأين كان ‥ ولماذا لا يأتيها الا اذا ذكرت هذا الشاب ، ورأت صورته ماثلة لعينها ، أو بمعنى أصح لماذا هى لا تستشعر كل هذا الظمأ الا اذا أبعدت صورته عن خاطرها ‥ انها من غير شك

تريد منه شيئا ، وهى تعرف جيدا هذا الشىء الذى تريده وتعرف أيضا كيف تحصل عليه ، وتعرف كذلك أن لها من الوسائل ، وعندها من الاسلحة التى زودتها بها الطبيعة مايجعلها تظفر دائما بما تريد ، وانها فى تاريخ حياتها الطويل لم يستعص عليها أمر ، فما بالها اليوم تتعقد أمورها كل هذا التعقيد وتضيق بحياتها وبنفسها كل هذا الضيق وتستشعر كل هذا التعلق الذى يشبه تماما الخوف من الفشل ، ألأنه لم يستقبلها كما تعودت من الرجال أن يستقبلوها ؟ ألأنه أغلظ لها فى القول ؟ ألأنه كاد يضربها ويطردها من غرفته شر طردة ، ألأنه لم يطر جمالها ولم يأخذه هذا الجمال ويستحوذ عليه ، ويجعله يسجد أمامه ، كما سجدت أمامه جميع الرجال الذين رأتهم وأطروه وأخذوا به ؟ أم لسنه الصغيره ، وعمره هذا الذى لم يتجاوز الثمانية عشر عاما ، ولكن هل هى من البلاهة بحيث يستهويها رجل بهذه السن ، وتشتهى انسانا فى عمر أولادها لو أنها أنجبت وكان لها أولاد ؟ ‥ أم ترى هذه السن نفسها هى التى تغريها به وتحببها فيه وتقربها منه ؟ وشعرت بشىء كثير من الضيق يلم بها ، وازداد هذا الضيق عنفا عندما جاء الليل ولم يجىء هذا الشاب معه الى غرفته كما تعود أن يجيىء ، وراحت فى قلب فراشها الدافىء الوثير ، تنقلب ذات اليمين وذات الشمال ، تدفن رأسها فى الوسادة حينا ثم تريحها عليها حينا آخر ، وتلقى بالغطاء من على جسدها مرة حتى يتعرى جسدها تماما ، ثم هى مرة أخرى تشد الغطاء عليها وتلف جسدها فيه كأنها تخاف من شىء يتربص بها وكلما سمعت حركة خارج غرفتها أو أحست بدبيب فى الدهليز شعرت بشىء من الراحة وفتحت عينيها ومدت أذنيها مدا طويلا فى الظلام ، وكلما أدركت أنه دبيب بهلول فى السرجة

أو خطوات الاستاذ حسنبو يدخل غرفته أو يخرج منها عاودها الضيق ورفست الغطاء بقدمها في عنف ، ثم عادت ثانية وفي نفس العنف وسحبته عليها ولفت جسدها فيه ثانيــة ، وفجاة تذكرت شيئا أطربها وهدأ من أعصابهـــا ، وجعل الابتسامة الجميله ترتسم على شفتيها الغليظتين ، انه لم يأت حتى الان لانه تعود أن يصلى العشاء فى المسجد ، واذن فهو سيأتي توا وبعد صلاة العشاء مباشرة ، وســـوف تنتحل عذرا أى عذر لتراه وتلتقى به ، لا لشيء ولكن لترى هذا الشـــاب الذى مجرد طيفه يقلقها كل هذا القلق ، ويحيرها كل هذه الحيرة ، حتى كانها ترى فيه شيئا لم تره فى غيره من الرجال ، ولكن ماهو هذا الشيء •• انها تريد أن تعرفه ، تريد أن تراه ، وتراه الآن بل وفي هذه اللحظة •• انه لابد وأن يكون شيئا ، هاما •• هائلا •• ولكن الى هذا الحد تمتد بالناس صلاة العشـــاء فى المساجد وأرادت أن تعرف الوقت ، كم هى الساعة الآن ، وهل الناس فرغت منذ زمن بعيد من صلاة العشاء ، أم هى ما زالت فى المساجد تصلى •• ونفضت الغطـــاء من على جسدها للمرة العشرين أو المائة بعد العشرين لا تدري ، وغادرت الفراش ومدت يدها الى المصـــباح الزجاجى الذى كان على البـــوريه وأشعلته ، وألقت على نفسها نظرة فى المرآة ، فرأت أشـــياء كثيرة رضيت عنها بعض الشيء ، وأشـــياء كثيرة أخـــرى رضيت عنها كل الرضا ، ثم ألقت نظرة على ذلك الشـــحوب الذى ارتسم على وجهها ، وتلك الحمرة التي فى عينيها وكادت هذه النظرة تطول وتطيل وقوفها أمام المرآة ، غير أن شيئا آخر لا تدريه على وجه التحقيق ولكنها تدرى بأنه أهم عندها من هذا الاصفرار والشحوب ، وأهم عندها أيضا من هذا الاحمرار الذى أحال لون عينيها الى مايشبه الدم ، جعلها ترتد سريعــة من أمام المرآة •• ووقفت لحظات حائرة وسط الغرفة تنظـــر

الى لا شيء ، ثم مدت يدها الى الباب لتفتحه ، وأحســـت انها تمدها فى حذر ، وحذر شديد أيضا ، وضايقتها هذه الحـــركة الحذرة منها ، انها لم تتعود الحذر فى حياتها ، انها دائما المغامرة الجسور ، انها كثيرا ما ألقت بنفسها فى النار ، فلم تحترق • وانما احترق الذين حاولوا انقاذها • فما بالها اليوم خائفــة وجلة تكاد يدها ترتعش ، وصدرها يعلو ويهبط

وحانت منها نظرة أخرى الى المرآة ، بيد انها لم تكد تفعل حتى وقفت فجأة جاحظة مسمرة العينين على شيء أمامهـــــا لم تره الا الآن ، ولم تكن لتقدر انها ستراه •• وراحت تنظر

اليه وتدقق النظر فيه وتتفحصه جيدا ، وتتفحص أيضا عينيها لعل نظراتهما خطئه .. لعلهما تتوهمان ، ولكنها تراه فعلا وتراه مخيفا هائلا رغم دقته ورقته .. انه تماما أشبه بالخيط الرفيق الدقيق الذى لا يكاد يرى .. ولا تكاد العين تقع عليه الا اذا كانت قوية الابصار .. انه يتسلل الى رأسها خلسة وفى مهارة فائقة ، حتى لا يراه أحد ، انه يختفى بين خصلات شعرها الاسود الفاحم حتى غدا بينها .. بين تلك الخصلات الفاحمة الناعمة ، وفوق هذا الرأس الصغير الجميل الذى يتوج أجمل وجه عرفته امرأة ، انه يبدو فوق هذا الرأس تماما أشبه بالكسر الذى لا يكاد يرى فى آنية غالية ومدت يدها التى تقلصت أصابعها وارتعشت .. مدتها الى هذا الثعبان الدنىء الذى اختفى فى طيات شعرها ، وقطعت تلك الشعرة الدخيلة التى لم تكن أبدا لتقدر انها ستراها بيضاء

انها اذن تلعب لعبة خطرة لم تأمن عاقبتها ، اذن هى تخشى الفشل ، ولكن لماذا تخشاه هذه المرة ، وهى التى لم تجربه أبدا فى حياتها ، بل ولماذا ذكرته الآن ، وما الذى جعل هذا الخاطر يمر بخيالها ، أو هذه الكلمة حتى تمس شفتيها ؟ ، ورنت فى أذنها كلمة .. بل كلمات فراحت فى انتباه شديد تصغى اليها وكأنها تصغى الى حديث يدور بين اثنين يتحدثان على مسمع منها ..

ـ وهل ستغفر انت لى خطأى معك اليوم .. تهجمى عليك .. وغلظتى لك فى القول ؟ ..

ـ وهل يملك الابن الا أن يغفر لامه كل شىء ؟

وزمت شفتيها ، وزوت أيضا مابين عينيها ، ووقفت لحظة فى مكانها خلف الباب جاهدة لا تطرف .. ولكن ما الذى يضايقنى فى هذا القول .. وما الذى أريده منه حتى يضايقنى منه هذا القول .. ان الذى أريده منه شىء واحد .. واحد فقط هو أن يخرج من بيتى فورا الليلة .. هذه اللحظة بالذات .

واتخذ وجهها الذى مازال يكتنفه بعض الشحوب ، واتخذت أيضا عيناها اللتان بلون الدم ، صورة اللبؤة العجوز الثائرة التى فقدت وعيها ، ومدت يدها بعنف وفتحت الباب ، وما ان توسطت الدهليز الذى اكتنفت الظلمة كل جوانبه حتى صرخت بأعلى صوتها صرخات مدوية .. فى رعب وخوف شديد .. حسنو .. ولما لم يجب عاودت النداء عليه مرة ثانية فلم يرد حينئذ اقتحمت عليه الباب فى عنف ، ودخلت منه كالهول الكبير ، وما ان رأته نائما ، ورأته مخمورا بترنح والزجاجة على صدره حتى دوى صوتها فى الليل كالصاعقة :

ـ أطرش ، هل فقدت سمعك •• هل أصبت بالصمم ؟ ••
وروع الاستاذ حسبو وهو فى مكانه وأطبق عليه الخوف وتدور اشبه بالقنفذ محاولا ما استطاع أن ينهض من مكانه وينتصب واقفا وينحنى أمامها احتراما ، ولمـــا تمكن من هذا كله بعد جهد ، تمتمت شفتاه المرتعشة ، واضطربت عينــــاه التى لا تكاد تبصر شيئا من فرط الخمر وقال :
ـ لم أسمع النداء يا معلمة ••
ـ سمعت الرعد ، قل لى كم الساعة الآن • •
ـ كما تريدين لها أن تكون يا معلمة
فاحتدم غيظها وقالت :
ـ انت الذى يجب أن يدور فى الساقية بدل بهلول
ـ أدور ، يا معلمة ••
ـ انت حيوان ••
ـ ولكنه حيوان أليف ، يا معلمة ؟ ••
فصرخت فى وجهه صرخة مفاجئة ، أرعبتــه وجعلتــــه يرتعش فى مكانه ، ويرتعش أيضا وهو يبحث عن الساعةالتى أخطأ مكانها تحت الوسادة ، ولما نفذ صبرها وغاظها بحثــه الطويل عن الساعة ، قالت تنظر اليه فى ضيق لا حد له :
ـ هل حان موعد صلاة العشاء ؟
فتراخت يداه التى كـــانت مازالت تبحث عن الســـاعة والتفت اليها مبتسما فى دهشة كبيرة :
ـ سلامة عقلك يا معلمة ، أى صلاة عشاء ، لقد انتهىالناس من صلاة الفجر أيضا ••
ـ ماذا تقول ؟ • •
نطقتها ذاهلة مطبقة الشــفاة وقد اكتنفها خجل شــــديد تراجعت على أثره وخرجت ، وما أن بلغت غرفتهـــا وأغلقت الباب خلفها ، حتى ارتمت لاهثة على السرير ودفنت وجههــا الذى أغرقته الدموع فىالوسادة ، انها مجنونة •• مجنونة ••
لابد أن تكون قواها قد اختلت ، عقلها قد ذهب ، حتىاستأهل منها التفكير فى هـــذا الشاب كل هـــذا الوقت الطويل •• كل هذه اللوثة التى جعلتها تسأل الناس عن صلاة العشاء ، بينمـــا صلاة الفجر قد انتهت أو أوشك الليل على المغيب وأجهشت باكية تنتحب وراحصدرها على الفراش يعلو ويهبط •• وظلت كذلك الى حين ••
ولكنى ذهبت الى حسبو لكى يطرد هذا الشباب فورا ، فمالى نسيت ذلك ورحت أسأله عن الساعة وهل فرغ الناس من

صلاة العشاء ·· ومع ذلك لم يحدث شيء ، سوف أطرده أنا اليوم ، سوف لا أجعله يبيت فى هذا البيت ليلة أخرى ·· ان هذا هو أسلم الاشياء ·· ان هذا لابد أن يكون ·· لابد أن يحدث ·· ويحدث قبل أن ينقضى النهار ··

واطمأنت الى هذه الفكرة الصائبة ، وارتاح اليها قلبها ·راحة أضفت على كيانها كله الكثير من الهدوء والاطمئنان الذى كانت تعيش فيه قبل يومين ، قبل أن يأتى هـــذا الشاب الى بيتها ويقطن فيه ، وتقع عيناها عليه ، ولما اطمأنت حقيقة الى هذه الفكرة ، وأحست بكل هذه الراحة اليها ، أحست أيضا انها فى حاجة الى أن تنام فأغمضت عينيها ، واستغرقت فى نوم هادىء عميق ، بيد انها لم تمكث طويلا حتى استيقظت ولم تدر ما الذى أيقظها أهى الشمـــس التى طلعت سريعا ، أم ضجيج السابلة فى الزقاق ، ولكن الذى تدريه انها بقيت فى مكانها فى الفراش تسترق السمع الى غرفة الشاب من خلف الجدار ·· ولكن لماذا لم يستيقظ هو الآخر مبكرا كعادته · لماذا لم يذهب كعادته ليغتسل ويتوضأ ؟ ، ولماذا لم تحــدث خطواته بالقبقاب هذا الضجيج الذى تعودته ؟ ·· لمـــاذا لم يشعل وابور الغاز الذى تعود صوته أن يزعجها فى النوم ؟

لماذا لم يقرأ فى كتبه ، وينفذ صوته الى غرفتها واضحا وان كانت لم تعرف لفظا واحدا مما يقول ؟ ولا معنى لحرف ممـــا يقرأ ؟ ·· هل لم يجىء بعد ؟ ولكن أين ذهب وأين سيبيت ان لم يكن فى غرفته ··

وتسللت من فراشها فى حذر دون أن تحدث أدنى حركة وأتت بمقعد وضعته أمام الدولاب الذى وضع خلف الباب الذى يفصل بين الغرفتين ووقفت عليه ، ومدت عنقها مدا طويلا كما مدت أيضا نظراتها مدا طويلا ، وراحت تنظر من خـلال ثنايا الزجاج المغبر الذى عششت عليه العناكب وأقامت بيوتها فوق شراعة هذا الباب المعطل من عدة سنين واستطاعت أن ترى ·· وأن ترى أشياء كثيرة منها جسده الضخم الفتى الذى استلقى نصف عار على الفراش ، كما يستلقى الوحش المفترس على العشب ، ورأت أيضا صدره العارى ، وتلك الظلة الكثيفة من الشعر الاسود الخشن التى عششت على الصدر ، ورأت الذراعين القويتين الغليظتين اللتين التفتا بجانبى الصدر العريض كما رأت أصابعه الخشنة الغليظة التى تشابكت فوق تلك الظلة من الشعر الكثيف ، وكأنها اللجم الفولاذية التى تكبح جماح الجواد القوى من الانطلاق حتى وهو نائم ·· رأت هذا كلـــه

ودققت فيه وأدامت النظر اليه طويلا ، ولكن ماله مازال مستغرقا في نومه حتى الآن •• وهبطت من على المقعد وأسرعت الى الشال الأسود الخفيف ووضعته على كتفيها العاريتين وهمت بالخروج سريعا ، بيد انها توقفت لحظات عند الباب ثم عادت

الى البوريه وفتحت أحد أدراجه وأخرجت منه بعض أدوات التجميل ووقفت حينا أمام المرآة تتزين وتتجمل ، ولما اطمأنت الى كل شيء ، تسللت من الغرفة تخطر على مهل ، وتسير على أطراف قدميها ، الى أن بلغت باب غرفته وراحت فى حذر شديد تنقر عليه نقرا هينا حينا ، وأقرب الى العنف حينا آخر ، حتى استيقظ الشاب وما أن فتح الباب ورآها أمامه وجها لوجه حتى أخذته المفاجأة ، واضطرب اضطرابا شديدا ، وراح فى خجل زائد ينظر الى نصف جسده العارى ويحاول أن يختفى به خلف الباب • ويحاول أيضا أن يحرك شفتيه ليقول لها تأدبا :

ـ تفضلى ••

وما ان رآها استجابت ودخلت حتى ازداد اضطرابه ، وراح يركض كطفل باحثا عن أى شيء يغطى به هذا النصف العارى من جسده ، ووجد أمامه تلك البطانية فالتف بها ، ونظرت هى اليه والى خجله الزائد ، وارتباكه الذى لا حد له ، وقالت:

ـ رأيت الشمس تطل من النافذة ، وسمعت الناس يروحون ويجيئون فى الزقاق ، وانت لم تستيقظ كالعادة لتذهب الى المعهد

ـ أشكرك ••

قالها الشاب فى امتنان ، وشكر حقيقى ، فسرها منه ذلك كما سرها البشر الذى رأته مرتسما على وجهه ، وقالت :

ـ لعلك لم تتأخر كثيرا عن موعد المدرسة ؟

فقال ممتنا وهو ينظر اليها :

ـ اليوم جمعة ، وهو يوم العطلة الاسبوعية ••

فبلعت أنفاسها ، وارتبكت بعض الشيء ، بيد انها تمالكت نفسها وقالت فى شيء من الخجل :

ـ لم أكن أعرف ذلك ••

وصمتت لحظات ثم قالت :

ـ الايام ، والليالى ، والدنيا ، والشقاء الذى أنا فيه ، كل ذلك أنسانى نفسى •• أنسانى حتى اسماء الايام وان اليوم هو يوم الجمعة •

ثم تهدج صوتها وقالت فى أسف :

ـ أنا متأسفة اذا أزعجتك ، وأقلقتك وأيقظتك من النوم
ـ أبدا ، أبدا ، أنا أشكر لك هذا الاهتمام
فقالت وهى تتجه الى الباب محاولة الخروج :
ـ سأتركك لتنام بعض الوقت ، طالما أن اليوم عطلة ٠
ـ لا ، اننى أريد أن أخرج الآن
فالتفتت اليه ، ورفعت مع التفاتتها بعض خصلات ناعمة من الشعر كانت تنسدل على الظهر ، وقالت :
وأين ستذهب فى يوم عطلتك
ـ تعودت كل يوم جمعة ، أن أقرأ الفاتحة لابى فى ضريح أم هاشم ، ثم أصلى الجمعة فى مسجد سيدنا الحسين رضى الله عنه ٠٠
فزوت مابين حاجبيها وقالت وكأنها تذكرت شيئا هاما :
ـ فكرتنى ، أنا أيضا متعودة كل صباح جمعة أن أزور قبر المرحوم ، أقرأ له الفاتحة وأوزع على روحه الصـــدقات ،
فتطلق وجه الشاب بشرا وقال وهو ينظر اليها نظرة تقدير :
ـ هذا عمل جليل ، يحفظه لك الله ويثيبك عليه ويجزيك عنه الجزاء كله

فرفعت ذراعيها الى الحائط ، فارتفع مع الذراع شىء ماعلى الصدر ، ولاح من طوق الثوب ثم قالت وهى تسند رأسها على الذراع المتكئة على الحائط ، وتنظر اليه بعين واحدة لأن عينها الاخرى كانت مختبئة خلف ذلك الشىء الذى برز عـــلى الصدر :
ـ أحقيقة ؟ أن الله يجزينا خير الجزاء اذا ما زرنا مقـــابر موتانا ٠٠
ـ وأمرنا رسوله صلى الله عليه وسلم بأن نزورها : دائما اذ قال ٠٠
والتفت اليها سريعا ليذكر لها نص الحديث الشريف بيد أن عينه ماكادت ترى ذلك الشىء الذى ارتفع مع الذراع الى أعلى وبدت قمته عارية فوق الصدر ، حتى ارتدت نظراته خجـلى تضطرب ، وأدار وجهه بعيدا عنها ، وقال متمتما نص الحديث فى خجل شديد وكأنه يخاطب شخصا آخر :
ـ « زوروا القبور ٠ فانها ترق القلب ٠ وتدمع العـــين ، وتزهد فى الدنيا ٠ وتذكر بالآخرة »
فقالت وقد فطنت الى اضطرابه الشديد ٠ متعمدة أن تنزل ذراعها :

ـ حديثك جميل •
ـ انه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ••
فاقتربت منه بعض خطوات وقالت :
ـ كم أنا فى حاجـة الى رجل مثلـك • يخفف عنى آلامى •
فقال وهو ما زال ينظر الى بعيد :
ـ آلام الدنيا •• تكتب حسنات لنا فى الآخرة ••
فاقتربت منه خطوات أخرى وقالت :

ـ اننى جاهلة •• اننى أريد أن أعرف • قل •• اضرب لى مثلا • كيف ان هذه الدموع ، تنقلب فى الآخرة ضحكات •
ـ مثلا حزنك هذا الدائم على زوجك • وحفظك لذكراه ، وحرصك على زيارة قبره كل يوم جمعة • هذه كلها حسنات يضاعفها الله لك يوم القيامة •• ويجزيك عنها جزاء طيبا ••
فصمتت حينا ثم رفعت عينها الى وجهه وقالت :
ـ واللواتى يتزوجن بعد وفاة أزواجهن •
ـ لكل فى الحياة ظروفه • وكثيرا ما تحتاج المرأة للرجل ، ولا تستطيع أن تستغنى عنه •
فتهدج صوتها وهى ترنو اليه وتسأله متلهفة :
ـ قلت لك اننى جاهلة فوضـــح لى ماتقـــول • كيف لا تستطيع أن تستغنى عن الرجل ؟

فاضطرب بعض الشىء وهو يقول :
ـ لأنها بطبعها ضعيفة • وفى حاجة الى من يعينها •
ـ وماذا أيضا ؟
ـ ولآن الرجل يكفل لها دائما الرزق •
ـ وماذا أيضا ؟
فازداد خجلا وهو يقول :
ـ ولأنه يسعى فى الارض من أجلها •
ـ قل • قل • وماذا أيضا ؟
ـ ولأنه •••
وصمت ولم يجب ••
فقالت لاهثة مضطربة الانفاس تتطلع اليه :
ـ وماذا أيضا • قل •• قل ••

فهمهمت شفتاه لحظة ٠٠ وهو يتمتم بشىء من القرآن كان يحفظه ثم وجه الحديث اليها :

ـ قال الامام على كرم الله وجهه (الرجل الصالح للمرأة ظل ٠ والمرأة الصالحة للرجل ظل ٠٠ فحافظوا على ظلالكم ، يحفظ الله لكم الدنيتين »

وفجأة انسابت الدموع من عينيها ، وفجأة أيضا ألقت بنصفها الاعلى على سرير الشاب دافنة وجهها بين ذراعيها وراحت معولة تبكى وتنشج نشيجا موجعا ، وكل جارحة فيها تهتز وتضطرب ٠ فارتاع الشاب وارتبك ارتباكا شديدا وراح حائرا يتلفت حواليه ٠ وكلما ألقى نظره عليها ورأى ما بدا عاريا من جسدها ٠ ورأى ظهرها يعلو ويهبط والدموع التى أغرقت وجهها وذراعيها العاريتين ازداد خوفه واضطرابه ٠٠ وكلما حاول أن يسألها من بعيد دون أن يقترب منها عما بها لا تجيب بل تمعن فى البكاء والعويل ، تضاعفت حيرته وارتباكه ٠ وأخيرا أسرع ناحية الباب محاولا أن ينادى على الاستاذ حسبو ٠ ولكنها صرخت فيه صرخة مدوية وهى تنشج وترتعش :

ـ دعه ٠ ٠٠ لا أريد أن أراه ٠٠ لا أريد أن أرى أحدا ٠

فارتد الشاب اليها وكل شىء فيه هو الآخر يرتعش ٠٠ واستطاع أن يجاهد نفسه حتى اقترب منها ووضع يده المرتعشة على رأسها ، وهو يقول فى نفس الخوف والاضطراب :

ـ ماذا بك ٠ ماذا بك ؟

فمدت أناملها وأمسكت بيده وتمتمت وهى ترفع اليه وجهها الذى أغرقته الدموع :

ـ اننى أبكى الظل الذى فقدته ٠٠

فتأثر الشاب تأثرا شديدا جدا ٠ وتمتمت شفتاه وهو يمد يديه الى كتفها لينهضها :

ـ اللهم لا حول ولا قوة الا بالله ٠٠

ثم أنهضها وأجلسها بجواره على الحشية ، وراح فى حنان جم يجفف لها دموعها ٠ كالابن الحنون الذى يجفف دموع أمه الثكلى وهو يقول وكأنه يخاطب نفسه :

ـ انك طيبة القلب حقيقة · ان من تحمل مثل هذا القلب الكبير · وتحس هذا الاحساس النبيل ، لن تتخلى عنها عناية الله أبدا · وحسب المرء أن يكون الله عونا له ·

فقالت وهى ما زالت تبكى وتنظر اليه :

ـ اننى متعبة جدا · فهل لك أن تصنع معـــــروفا · اذ تصحبنى معك لزيارة المرحوم · اننى أخشى ان ذهبت وحدى أن أصاب بسوء ·

فقال سريعا وهو ينهض محاولا أن يستعد للخروج :

ـ وسوف أصحبك كل يوم جمعة الى هناك · وسوف أكون دائما كما قلت لك بمثابة الابن البار ·

فاضطربت ثانية بعد أن هدأت بعض الشىء ونهضت سريعا فى ضيق شديد محاولة الخروج · بيد أنها عند الباب وقفت لحظات وقالت دون أن تنظر اليه :

ـ الى أن ترتدى ثيابك · سأنتظرك عند السلالم بجـــوار السبيل ··

فقال الشاب فى اهتمام زائد :

ـ دقيقة واحدة وألحق بك ··

الفصل الخامس عشر

أسرع الشاب بعد أن خرجت فاغتسل . وحرص على أن يتوضأ . فقد قرأ فى كتاب « بهاء الضوء فى الصلاة وفرائض الوضوء » أن الامام على كرم الله وجهه . كان لا يذهب الى زيارة مقابر الموتى ، الا اذا تطهر وتوضأ وارتدى ثيابا نظيفة .. وكذلك فعل هو . ثم لحق بها عند سلالم السبيل كما وعدته . وهناك وجدها تنتظره داخل عربة حنطور ، فاندهش وتردد قبل أن يركب ، وأفهمها بأنه كان يفضل السير على الاقدام ، ففيه فائدة للصحة ، وتوفير للمال . فضحكت فى ابتهاج كبير وهى تمد اليه يدها ليركب بجانبها بعد أن قالت له انها متعبة كما يعلم ولا تستطيع أن تذهب من باب الخلق الى المحمدى سيرا على الاقدام . فاقتنع وركب بجوارها ولكن دون أن يمد يده الى يدها الممتدة اليه . ولما جلس بجوارها داخل العربة ، لاحظت انه يتعمد الابتعاد عنها بشكل ظاهر . فضايقها هذا وضايقها الى حد الغيظ ، ولكنها تظاهرت بالسرور وقالت ضاحكة تنظر اليه وهو منزو فى ركن العربة يتمتم بكلمات من القرآن .

ــ لماذا تجلس هكذا . استرح فى جلستك .

ــ مستريح الحمد لله ..

فنظرت اليه مرة أخرى ، والى المسافة التى تفصل بين ثوبيهما وقالت وهى ماتزال تضحك :

ــ تأكد أن ثيابى نظيفة . وليس فيها ما يلوث ثوبك اذا جلست مستريحا .

فخجل الشاب وقال :

ــ العفو .. لم أقصد ذلك ..

فقالت وهى تنظر اليه نفس النظرة :

ــ ولكنك قصدت متعمدا ألا تلمس يدى التى امتدت اليك وأنت تركب العربة .

فتضاعف خجله وقال وهو ينظر اليها مبتسما :

ـ أيضا لم أقصد ذلك ، وانما تحاشيت أن ينتقض وضوئى اذا صافحتك ووضعت يدى فى يدك ٠

فقالت وقد ارتسمت بعض علائم الدهشة على وجهها :

ـ أأنقض وضوءك اذا صافحتك ووضعت يدك فى يدى ٠٠

فصمت قليلا وقال :

ـ الدين يقول ذلك ٠٠

ـ وهل اذا صافحك رجل أيضا ؟

ـ الرجل لا ٠٠

ـ ولماذا اذن المرأة ؟

فارتبك وأراد أن يقول شيئا ولكنه لم ينطـــق ٠ وأحست بسرور داخلى لهذا الحرج الذى أوقعتـــه فيه ٠ فصمتت هى أيضا لحظات ٠ ثم قالت وكأنها تخاطب نفسها فى دهشة :

ـ شيء غريب ٠٠

ـ ما هو ؟

ـ أن يصافحك رجل فلا ينقض وضوءك ٠٠ وتصافحـك امرأة فتنقض هذا الوضوء ٠٠

فقال الشاب فى سذاجة كبيرة :

ـ هذا شيء طبيعى ٠٠

ـ وما الطبيعى فيه ؟

ـ ان هذا رجل ٠ وهذه امرأة ٠

فتهدج صوتها وهى تقول :

ـ وما الفرق بين الاثنين ؟

ـ كبير جدا ٠٠

فقالت بنفس الصوت المتهدج الخافت الذى يكاد يشبـــه الهمس :

ـ ماهو ٠٠ حدثنى عنه ٠ قلت لك اننى جاهلة ٠٠ وأريد أن أتعلم ٠٠ قل ٠٠ تكلم ٠٠

ثم أمعنت اليه النظر وهى ما زالت تتمتم :

ـ تحدث ٠٠ قل ٠٠ ما هو الفرق ٠٠

فقال الشاب :

ـ لا أستطيع أن أوضحه لك ٠٠ ولكن الذى أعرفه ٠٠ أن

أصحاب المذاهب لم يتفقوا على رأى • فمثلا ابن حنبل ••
يحتم وجوب الغسل اذا لامس الرجل المرأة • ومالك يكتفى
باعادة الوضوء •• أما الشافعى فيجيزه اضطرارا ما دامت
النيات خالصة والنظرات طاهرة •• والملامسة بريئة ••

ـ رجل طيب الشافعى هذا ••

ـ الفاتحة لروحه •• الفاتحة ••

ومد الشاب يديه الى أمام وراح يقرأ الفاتحة بصوت عال ،
واضطرت هى الى أن تجاريه فقرأتها معه ثم قالت وهى تنظر
اليه وهو يمسح على وجهه بعد أن قرأ الفاتحة :

ـ وانت مامذهبك ؟

ـ حنبلى ••

ـ يا ساتر •• ولماذا لم تكن شافعيا ؟

ـ هكذا كان أبى رحمة الله عليه ••

وكانت العربة قد بلغت بهما نهاية الطريق فهبطا منهما •
وراحت هى تسير وسط القبور • والشاب يسير خلفها
مغمض العينين ، يقرأ آيات من القرآن فى تأثر شديد ••
وزاده تأثرا ذكره لأبيه ، حتى اخضلت عيناه وراح من حين الى
آخر يجفف دمعة تسقط هنا وأخرى تسقط هناك • الى أن
بلغت به قبر ـ المرحوم ـ فدارت حوله مرات وهى تقرأ
الفاتحة وتبكى • فى حين جلس الشاب بجانب القبر متربعا
وأخرج من جيبه مسبحة طويلة سوداء كان قد ورثها عن والده
•• وراح يقرأ سورة الحجرات بصوت مرتفع ويجود ما يقرأ
وهو يهتز ذات اليمين وذات الشمال • كما كان يهتز وهو
يجود القرآن على يدى الشيخ نوفل فى القرية وهو صبى ••

وراحت هى تنظر اليه مبتهجة مسرورة مقدرة له هذا الخلق
الطيب وهذا التدين الكبير • .وهذه الصحبة التى أنستها الكثير
من متاعبها • حقيقة هى لم تزر قبر المرحوم منذ سنوات • بيد
أنها كانت اذا زارته مرة أحست بانقباض شديد وضيق يكاد
يجثم على قلبها • أما اليوم فهى أشبه بما تكون فى رحلة
جميلة ، وزادها سرورا أنها التقت عند القبر ببعض النسوة
التى كانت على صداقة قديمة بهن • ورحن يتحدثن اليها

وتتحدث اليهن ويلمنها لوما شديدا لأنها بقيت أرمل حتى الآن ولم تتزوج وكيف انها ستقضى على جمالها بهذا الحــزن الذى تعيش فيه . وتقضى على شبابها بهذه الحياة الجافة التى تحياها . وان المرأة ان لم يكن لها خير فى شبابها ونفسها لم يكن لها خير فى أحــــد . وان الذى مات ، مات وانتهى . وأطربها هذا القول وراحت تصغى اليه فى سرور ، وكلمــا أوشك هذا الحديث أن ينتهى ، مدته بكلمة عابرة ، أو نظرة ساهمة ، أو حسرة على فقد المرحوم الذى لم تعوضه .. وطال الحديث بينهن . بيد أن واحدة منهن لم تكن مشتركة فيه .. ضايقها هذا القول الممل وهذه النصـــائح التافهة ، وكانت لا تعرف شيئا كثيرا عن شفاعات فقالت وهى تنظر الى أمام الــذى كان قد فرغ من قراءته ومن قراءة الفاتحة أيضـــا ، واتجه الى شفاعات لينصرف بها :

ـ لا تصغى الى هذا القول . ويكفيك سعادة أن يصبــح ابنك هكذا رجلا . ولو كان لى ابن مثله لكفانى وأسعــدنى أن أترمل عليه الى الابد .

واكفهروجهها فجاة . وزاده عبوسا ، أن بقية النسوة نسين ما كن يتحدثن فيه . وأيدن هذا القول . ومددن أيديهن الى امام يصافحنه ويشدن برجولته ويوصينه خيرا بأمه هذه التى

جعلت منه رجلا . وارتبك امام ولم يجب بل أمن على هــذا القول . وارتبكت هى أيضا . وكأنها خشيت أن ينفجــر غضبها . فمدت يدها وصافحتهم سريعا وانصرفت تســير بالشاب صامتة بين القبور الى أن رفعت اليه رأسها المحترق، ونظرت اليه وقالت ضاحكة فى مرارة كبيرة :

ـ أترى انى أشبهك الى حد كبير ، حتى انهم يظنون دائما هذا الظن ..

ـ انه ظن جميل ويسرنى أن يظنوه دائما ..

ـ لست أرى فرقا كبيرا بين الحقيقة وبين ما يظنون ..

ـ أبدا . أبدا ..

ففطن الشاب الى شىء وقال سريعا فى مجاملة حلوة .

ـ فى شىء واحد فقط ..

فامسكت أنفاسها وهي تقول :
ـ ما هو ؟
فقال مبتسما دون أن ينظر اليها :
ـ في السن ..
فقالت مبتهجة تضحك من قلبها :
ـ أينا أكبر سنا يا ترى ..
ـ أمي من غير شك ..
ـ هذه مجاملة منك ..
فقال الشاب جادا .
ـ أمي عجوز .. تزيد على الاربعين ..
فارتعش قلبها حتى لكأنه أصيب بحجر .. وارتعش معه كيانها كله . ولكنها قالت متماسكة وهي تنظر الى مكان خطواتها على الارض :
ـ والتي في سن الاربعين عجوز ..
ـ تخطت سن الشباب على الاقل ..
فصمتت ولم تجب . وظلت تسير بجانبه ساهمة واجمة تنظر الى مكان خطواتها على الارض . وأدرك هو أنها محزونة ولكنه لم يدرك سبب أحزانها . فنظر اليها وقال :
ـ فيم تفكرين ..
ـ أحس بانقباض شديد ..
فقال في سذاجة :
ـ هكذا نكون دائما بعد زيارة مقابر موتانا . ولكن بذكر الله تطمئن القلوب . فاذكرى الله سبحانه وتعالى واذكرى أيضا أن هذا مصير الخلق جميعا . وأن هذه هي سنة الله في خلقه ..
فقالت وهي تحاول جاهدة أن تبتسم :
ـ أأثقل عليك لو انني طلبت منك طلبا يسيرا ؟
ـ بالعكس يسرني .. وثقي انني لن أرفض لك طلبا ..
ـ أي طلب ؟
ـ أي طلب ..
ـ احلف ..

قالها الشاب فى ثقة وايمان لا حـــد لهما . وسرها ذلك بعض الشيء ولكنه لم يسرها السرور كله . ولذلك صمتت ولم
ـ وجلال الله ..
تجب فسألها باهتمام :
ـ ماذا تطلبين ؟
ـ انني أشعر بضيق شـــديد . والذهاب الى البيت الآن سيزيدنى ضيقا ولذلك أنا أريد أن أتنزه بعض الشيء ... وليس من عادتى أن أتنزه بمفردى لأن نظرات الناس وأحاديثهم السمجة تزيدنى ضيقا .. لذلك أريدك أن تصحبنى ..
ـ الى أين ؟
ـ كما تريد أنت ..
فقال ضاحكا فى ابتهاج :
ـ انني من الارياف ولا أعرف عن القاهرة شيئا ..
ففكرت بعض الشيء .. أو تظاهرت بأنها تفـــكر بعض الشيء ثم بعد حين رنت اليه بعينيها الواسعتـين .. وقالت متمتمة وكأنها مازالت تفكر :
ـ نذهب . نذهب ياسيدى .. نذهب ..
ـ أولا نتناول الغذاء ، ثم الساعة الثالثة نذهب الى السينما
ثم قالت وكأنها تذكرت شيئا جميلا :
فتردد الشاب ثم قال فى شيء من الحرج :
ـ الغداء أمر سهل .. أما السينما ؟
وأطبق شفتيه ولم يجب فقالت :
ـ أتكره السينما ؟
ـ لم أذهب اليها فى حياتى ..
ـ ألأنك تكرهها ؟
ـ لا .. ولكن لانى سمعت فضيلة الشـــيخ الفرجانى فى المعهد يقول انها من المحرمات ..
فقالت فى دهشة :
ـ السينما حرام ؟
ـ مكروهة على أية حال ..
ـ لماذا ؟

ـ يقولون بأنها تعرض أحيانا بعض الصور الخليعة وترى من أعضاء الجسد ما حرم الله أن يرى • وهذا حرام ••

ـ ليست أبدا كما تظن •• وسنذهب الى سينما مؤدبة جدا •• وسوف ترى ••

ـ اذا كان الامر كذلك أوافق ••

فتطلقت أساريرها • وشعرت بنشوة لا حد لها •• اد استجاب هكذا سريعا الى رغبة من رغباتها • وانطلقت معه خفيفة رشيقة مرحة •• كالعصفور الذى انطلق من سجنه يحلق فرحا فى الفضاء الكبير • وراحت تسير معه فى شوارع القاهرة وأحيائها الشعبية كطفلة حديثة السن يسيل لعابها لكل شىء •• حينا يشربان العرق سوس ، وحينا يأكلان الترمس والحلبة وحينا الحلوى ، وحينا تتحدث اليه حديثا جميلا ، يستغلق عليه باطنه فيبتهج لظاهره ابتهاجا شديدا • وحينا يتحدث هو اليها عن دهشته من أهل مصر ، ونساء أهل مصر وكيف يسرن فى الطرقات هكذا سافرات متبرجات ، يبدين من زينتهن ما لا يجب أن يبدى ، ويظهرن من مفاتنهن ما حرم الله ان يظهر • فتروح تحدثه ضاحكة عن هذا التزمت الذى يعيش فيه وعن الحرية التى تتمتع بها فتاة الحضر • والسجن الذى تعيش فيه فتاة القرية ••

وظلا كذلك الى أن انتصف النهار وحل موعد الغداء فذهبت به الى « حاتى العائلات » وهو مطعم معروف فى ميدان باب الخلق • تعودت المعلمة شفاعات أن تتردد عليه من حين الى آخر • وهناك استقبلهما حسان السفرجى استقبالا جسنا ، وأعد لهما مائدة منعزلة كما أرادت • كما استقبلهما عصعص الشواء استقبالا حافلا • وترك فحمه وناره وأسياخه وراح يرحب بها ويسألها عما تريد وعما تشتهى أن تأكل اليوم ••

فطلبت منه فى فرحة زائدة أن يعد لها الكثير من أنواع الشواء •• أما الشاب فكان فى شغل عن هذا كله برائحة الشواء الشهية اللذيذة التى تداعب منخاريه وتنفذ كرائحة العطر الجميل الى خياشيمه • وزاده سرورا عندما حفلت المائدة أمامه بأنواع الطعام المتعددة ذات الرائحة الزكية ، فراح يأكل

بفرحة غامرة ويلتهم الطعام التهـــاما غير ملتفت الى شيء ..
لا المعلمة .. ولا فرحة عينيها التى تراه وهو يأكل بهـــذه
الشهية . ولا الى ملايتها الحريرية التى تركتها تنسدل من على
الرأس والكتفين تاركة الرأس الجميل والشـــعر الكستنائى
اللامع تتهدل خصلاته وتنساب على ظهرها كالبلور .. وفوق
كتفين بلون العاج حتى الصدر العريض العارى الذى يتموج
نوره ويتيه استعلاء بقيمته ودلالا بتوأميه وانلم يفطن اليه ولم
يره .. ولم يغضبها ذلك أو ينغص من سعادتها لان فرحتهـا
بسعادته بالطعام واقباله عليه وأساريره التى فاضت بشرا
بطلعة المائدة كل ذلك أحب عندها من كل ماعداه . انه عنـدها
كل شيء . انه مطلع النور . انه أول الغيث .. أول لبنة فى
صرح الحب .. تحقيق الآمال .. استجابة الرجـــاء .. انه
الوسيلة .. وهل الحب الا الوسيلة ، التى نعبر عليها الطريق
الى الغاية .. انه لم يكن أبدا للغاية نفسها .. اننـــا اذا
بلغنا النهر نكون قد ارتوينا .. نكون قد نلنا كل شيء . لذلك
فان الوفاء والعطف والاخلاص والحنان والدموع والتضحيـــة

والشقاء وانفاق المال ليس كل ذلك الا من أجل الوصول الى
الغاية فقط .. ان هذه كلها مطايا نعبر عليها الطريق للنهر
.. أما اذا بلغنا النهر فلن نكون فى حاجة الى هذه المطايا ..
لن نكون فى حاجة الى شيء منها أبدا .. لأن أمواجه ستأخذنا
قسرا .. ستنسينا حتى متاعب ومشاق السفر .. اذن فكل
شيء هو الطريق . والطريق فقط ..

ونظرت اليه وهو يلتهم قطعة من اللحم يحشو بها فمه ،
فمدت يدها واقتطعت له قطعة أخرى . وناولتها اليه ولاحظ
هو انها لم تأكل كما يأكل هو . ولم تقبل على الطعام بنفس
الشهية التى يقبل هو بها عليها . فقال لها وهو يتناول قطعة
اللحم من يدها :

ـ لماذا لا تأكلين أنت أيضا ؟

ـ يكفينى أن أراك تأكل ..

فقال على الفور فى سذاجة لا حد لها :

ـ هذه عاطفة نبيلة .. لا يستشعرها الا قلب أم فعلا ..

فلم تسمح لفرحتها الغامرة أن يعكرها هذا المعكر الكريه .
ولذلك قالت على الفور ضاحكة فى سرور وهى تنتقى قطعة أخرى من اللحم وتناولها اليه :

ـ كل هذه ..

ـ أكلت كثيرا !

ـ هذه فقط ..

ـ شبعت ..

فقالت غانجة وهى تبعد بطرف أصبعها خصلة خبيثة من الشعر كانت قد تسللت الى مكان ما على الصدر :

ـ وهل ترد لى يدا ؟

فتناولها من يدها سريعا وهو يقول ضاحكا فى بشر :

ـ ولن أرد لك طلبا ما حييت ..

فقالت وهى تمد قدمها تحت المائدة وتضغط فى حنان على قدمه :

ـ ولا حتى هذا الطلب ؟

فأرتعدت قدمه تحت المائدة حتى لكأن لدغتها عقرب . ومد عينه سريعا تحت المائدة . فطالعتها يدها تحمل نقودا . فقال وهو ما زال يضطرب :

ـ ما هذه ؟

ـ ادفع الحساب ..

فتردد وأراد أن يقول شيئا ولكنها سبقته قائلة :

ـ ألم تقل بأننا أهل ؟

ثم قالت وهى تضغط على يده :

ـ وأنا التى أضفتك ولكن هذه أيضا أشياء بيننا فقط .. أما فى نظر الناس فأنت الرجل ..

ثم عقبت ضاحكة وهى تصفق لتستدعى الخادم :

ـ وسوف تكون دائما الرجل ..

وكان الخادم قد اقبل فقدم هو له الحساب . ولما انصرف أراد أن يعطيها ما تبقى معه من نقود . بيد أنها قالت وهى تنهض وتتناول الملاءة الحريرية السوداء . . وتلفها فى أحكام على ذلك النور الذى يشع من الظهر والكتفين :

ـ أنسيت أننا اتفقنا ..
ـ على ماذا ؟
ـ على أنك رجلى .. وانك ستأخذنى اليوم الى السينما ..
فقال فى شىء من الخجل والارتباك :
ـ سوف أدفع أنا ثمن السينما ..
فقالت ضاحكة وهى تضع يدها تحت أبطه وتنصرف :
ـ عيبك انك لا تفهم سريعا ..
وكأنها أدركت ما يؤلم فى هذا التعبير ، فأسرعت قائلة وهى ما زالت تضحك :
ـ أقصد انك سريع النسيان ..
ـ نسيت ماذا ؟
ـ انك ابنى فيما بيننا . ولكنك رجلى أمام الناس ..
فقال وهو يجاريها فى الضحك :
ـ لك الحق .. وسوف لا أنسى هذا بعد الآن ..

وكانا قد انصرفا من المطعم . وكما كانا يتطعان الطرقات ويتفرجان على الناس والمعروضات حتى يحين موعد الغداء ، كذلك فعلا حتى يحين موعد السينما . بيد أنهما كانا هذه المرةأقل تكلفا . وأقل تحرجا أيضا . فمثلا لم يجد الشاب حرجا فى أن يضع يده فى يدها فى الطريق . ولم يجد أيضا تحرجا كلما رأى شيئا جميلا أعجبه وأراد أن يلفت نظرها اليه أمسك بها من ذراعها .. وسرها هذا سرورا لاحد له ، حتى أن الوقت مر سريعا ، على غير ما كانت تنتظر . ولما جاء موعد السينما ذهبا اليها . وراحت تريه الاعلانات، وراح هو فى طفولة يتفرج عليها ويقرأ أسماء الممثلين والممثلات ، وهى تمدح له فيهم جميعا دون أن تعرف شيئا عنهم . ولكن لتحببه فى الدخول .. ولما استقر بهما المكان داخل السينما وأطفئت الانوار سرتها منه أشياء كثيرة جدا كان يجب ألا تسرها ، ولكنها تغاضت عن الكثير من سذاجته البالغة التى كانت تضايقها . فقد جلس الشاب بجوارها قلقا ينظر ذات اليمين وذات الشمال ، وعندما بدأت اشارة الفيلم ظهر عليه الخوف والاضطراب وجحظت عيناه وهو يحملق جيدا فى الصور حتى

انه حدث ما جعلها تنفجر ضاحكة ممسكة بكتفه ضاغطة عليه حتى لكأنها تريد أن تثبته فى مقعده ، فقد حدث أن أقبل على الشاشـــة وابور فى سرعة هائلة وقد تعالى دويه وصفيره المزعجان فخاف الشاب واضطرب وأمسك بيديه المرتعشـتين فى مقعده ٠٠ كما لو كان الوابور سيسير عليه ٠ ولا تدرى هى لماذا سرتها سرورا بالغا هذه السذاجة التى لا حد لها ٠ ولهذا راحت تتحدث اليه مرة فلا يجيب وتضع يدها عـلى كتفه فلا يتحرك ، وبعد حين من العرض ، وكانت الرواية من روايات رعاة البقر التى فيها الكثير من البطولة والفروسية ٠ مما أعجب الشاب كثيرا وجعله فى مقعده يميل ويتحـــرك ويحس بأحاسيس البطل ٠ حتى انه أحيانا كان ينسى نفسه ويندفع فى حماس مع البطل الذى يروح يكيـــل الضربات لعدوه ، ويصرخ بأعلى صوته فى الصالة ، مشيرا بقبضة يده للبطل بقوله ـ اديله ـ اديله ـ وعندما يرى كمينا أعد للبطل الذى يقبل عليه دون أن يدرى حتى يكاد يسقط فيه ، يصرخ الشاب أيضا بأعلى صوته فى الصالة محذرا ـ ارجع ـ ارجع ـ حاسب ـ وبالرغم مما فى هذا من احراج كبير للمعلمة ، التى راحت نظرات الجمهور وسخرياته توجه اليهـا والى الجالس بجوارها ٠٠ الا أنهـــا كانت هى الاخرى سعيدة سعادة لم تستشعرها منذ سنوات ٠ وذلك لسبب واحد فقط وهـــو احساسها بأنها استطاعت أن تصنع شيئا لهذا الشاب يسعده الى هذا الحد ، ويخرجه عن وقاره الجامد الذى يعيش فيه ٠ ولما انتهى العرض وخرج الجمهور ، وكان المساء قد أقبل ، ظـــل الشاب غارقا فى فرحته ، سابحا فى سعادته هذه التى تفيض عليه ناسيا نفسه ووقاره ٠ كما كان تماما فى السينما يعيش مع البطل ٠ لدرجة أنها لما استدعت أحد الحوذية فى الطريق ، ووقفت أمامهما العربة ، وركبت هى ومدت يدها اليــــه لم يرفض يدها كما فعل ذات مرة ، وانما تناول يدها فى فرحـة غامرة وصعد اليها خفيفا رشيقا غير هياب ولا وجل ٠ ولـمـا جلس لم يجلس بعيدا عنها وانما جلس ملتصقا بها يضحـك ويقهقه كما كان يضحك فى السينما ٠ وانتهزت وهى ملتصقة

به هذه اللحظات ، والطريق المقفرة التى تسير فيها العربة ، وراحت تذكره بالاشياء التى أطربته فى الفيلم والتى تزيد من سروره • فراح الشاب يضحك مبتهجا كما لو كان ما زال جالسا فى السينما يشاهد الاحداث أمامه على الشاشة • بيد انه حدث فجأة ما عكر عليه صفو هذا المرح وهذا الابتهاج •• فقد شردت المعلمة فجأة وصمتت منكسة الرأس •• أشبه بمن يعالج ألما حادا • ومدت يدها الى جبينها الذى تتلألأ عليه حبات الترتر وخرج النجف المدلاة من المنديل أبو أوية الذى عصبت به رأسها الجميل ، وراحت تعصر جبينها عصرا فى ألم •• وسألها الشاب عما بها ، فطمأنته فى أول الامر وأفهمته بصوتها الخافت المحموم بأنه الصداع الحاد • فتألم الشاب ألما شديدا محاولا أن يصنع لها شيئا ، وسرها الى حد كبير منه هذا الاهتمام •• محاولة أن تطمئنه ما استطاعت •• بيد انها لما عجزت عن احتمال الالم وعن حمل رأسها أيضا أخذت تزفر زفرات حادة متقطعة وهى تميل برأسها على رأس الشاب الذى راح يمسح عليه بيده وهو يقرأ فى سورة الفلق وكلما أمعن الشاب فى القراءة ازداد وجعها وارتعش جسدها كله وهى ملتصقة به ، طالبة منه فى توسل أن يحضر لها سريعا شيئا يخفف هذه الآلام • وحاول الفتى وهو فى غاية الحزن أن يرفع رأسها من على كتفه لكى ينصرف سريعا ليشترى لها « برشامة » بيد أنها توسلت اليه الا يتركها وأشارت له أن يوقف العربة ويرسل الحوذى ليشترى هو البرشامة وانصرف الحوذى سريعا يبحث عن « البرشامة » •• ونظر الشاب اليها مشفقا جدا وراح بيده يمسح على رأسها النائم على كتفه مرة أخرى • وهالته كثرة الدموع التى رآها تنساب من عينيها ، فأخرج منديله وراح يجفف لها هذه الدموع فأمسكت هى بأصابعه ونظرت اليه من خلال تلك الشبكة المرتسمة على وجهها • وقالت بصوت أشبه بلفحات النار :

ـ اننى أرتعش •• اننى أرتعش •• ان رأسي يكاد يتفتت• ثم انفجرت باكية مرة أخرى وهى تقول متوسلة :

ـ ان رأسى يكاد يحترق • خذنى الى جوارك ••
فالتصق بها الشاب اكثر من ذى قبل وهو أكثر اضطرابا •
ـ خذ رأسى الى صدرك •
قالت ذلك ثم ارتمت برأسها وكتفيها على صدر الشاب الذى من شدة حزنه راح يفسح لها المكان الذى تريد ••

ونظر الشاب الى الجسد الذى يرتعش على صدره والوجه الذى تغمره الدموع وهو يتمتم فى حزن شديد :
ـ اللهم لاحول ولا قوة الا بالله • تشجعى •

ونظرت هى اليه من خلال شبكة الدموع مرة أخـــــرى ، ونظرت اليه جيدا هذه المرة ، ومدت ذراعيها المضطـربتين ، وتحسست بيديها كتفيه وعنقه الضخم • وراحت تبكى فازداد اضطراب الفتى ومال بعنقه الذى بين ذراعيها على رأسها الذى يحترق ، واقتربت برأسها من رأسه • ووجهها من وجهه •• وأنفاسها من أنفاسه • وعيناها من عينيه • وراح ينظر فى اشفاق زائد وأسف مرير ، الى هذه العيون الذى كانت تضحك منذ لحظات فاذا بالدموع تغمرها الآن • وتنظر هى من خلال تلك الشبكة المائية المرتسمة على عينيها الى عينيه القاسيتين اللتين تشبهان عينى صقر ••
وأحست بشىء من الخوف يكتنفها ويخنق أحاسيسها جميعا ويضغط عليها فى عنف • وكما يخشى فاقد الوعى المقدم عـلى الانتحار أن تخونه قواه فيسرع بلا أدنى تفكير بالضغط عـلى الزناد • كذلك أغمضت هى عينيها سريعا • وجذبت بذراعيها الملتفين حول عنقه ، وجهه الى وجهها سريعا أيضا • ومن ثم تمتمت فى حشرجة الميت تماما وهى تطبق بشفتيها على شفتيه :
ـ اممام •• اننى أحبك • قبلنى •
ولم تفطن بعد ذلك الى ما حدث على وجه التحديد •• وانما الذى تذكره تماما انها رأت جسدها كله ملقى فى أرض العربة كما رأت أيضا فيما رأت الشاب يفر هاربا يتخبط فى الظلام •• كما يتخبط تماما الانسان الذى يطارده فى الليل ثعبـان هائل مخيف ••

الفصـــل السادس عشر

« لكل شيء اذا ما تم نقصان »

بهذا كان يتحدث الشاب الى نفسه وهو يسير فى الليــل خائفا مضطربا يتلفت ذات اليمين وذات الشمال كما لو كان ذلك الثعبان الهائل ما زال يطارده

انه كان يقدر كل شيء ، ويفكر في كل شيء وينتظــر أيضا من الدنيا والناس كل شيء ، الا أن تكون هذه المرأة التى تحمل هذا الخلق الطيب وهذا القلب الكبير ، وهذا الكرم الذى اغدقته عليه ، تكون على هذا السوء ، أو هى تريد منه هذا السوء ٠٠ ولكن كيف سولت لها نفسها هذا الاثم الكبير ، الذى دونه الموت من غير شك ٠٠ وكيف هو لم يفطن الى غرضها ؟ ولكن هل هى بهــذا الخبث بحيث جعلته يتخذها كأم له ٠٠ بحيث جعلته يظنها ملاكا بينما هى فى الحقيقة شيطان رجيم ٠ بينما هى تريد منه ٠٠ تريد منه ماذا ، وانفجر باكيا ، وأخرج منديله المحلاوى الكبير وجفف به دموعه التى سالت واختلطت بحبات العرق المتصبب من جبينه ٠٠ وواصل سيره ، كما واصـــل أيضا حديثه الى نفسه ٠٠ ولكن ماذا يفعل الآن وكيف هــو يعود الى هذا البيت الدنس ثانية ٠٠ الى هذا الشيطان الرجيم مرة أخرى ٠٠ الى هذه المرأة الداعر ؟ وهل أساء هو الى أحد حتى يسيىء اليه القدر ، ويوقعه فى هذا السوء ٠٠ وأخــرج منديله مرة أخرى وجفف بعض الدموع ٠٠ وواصل حديثه الى نفسه ٠٠ انه حقيقة استطاع أن يرد عنه هذا الشر بمجرد أن فطن اليه ، فهل هو سيستطيع ذلك مرة أخرى ٠٠ ألم تكن هذه المرأة التى استطاعت أن تجعله يحسن بها الظن ، وكانت لها القدرة على أن تجعله يتخذها أما فعلا ٠٠ فى استطاعتها أيضا ولها من القدرة على أن تجعله ٠٠ تجعله ماذا ٠٠ وجحظت عيناه جحوظا غريبا وهو ينظر الى السماء وكأنه يستجديها ٠٠ ان أسلم الاشياء الا يعود ثانية الى هذا البيت ٠٠ ولكن مـــاذا يصنع وأين يبيت ٠٠ أيذهب الى محمدين ويطلب منه أن يبحث له عن مسكن آخر ٠٠ وماذا سيقول له اذا سأله عن السبب ؟ أيقول ٠٠ واخضلت عيناه وتمتمت شفتاه بألفاظ من القرآن كان يحفظها ٠٠ وظل يقرأ وهو يسير على غير وعى ، ويقطع الطرقات خائفا يضطرب ، الى أن وجد نفسه ودون قصد ، يقف مترددا أمام بيت من البيوت ، ثم وجد نفسه ودون قصد

أيضا يصعد السلم ، ويقف أمام باب احدى الشقق ، ويدق الجرس ، وما ان فتح الباب حتى وجد نفسه وجها لوجه أمام سلوى ، ونظرت الفتاة فى دهشه الى وجهه الاصفر الشاحب ، وعينيه الزائغتين •• وقالت مضطربة قبل أن تدعوه للدخول:
ـ امام ، مابك ؟
فتذكر كل شيء وتمالك نفسه وقال مبتسما :
ـ لا شيء ، لا شيء ، فقط أردت أن أتريض فجئت ماشيا ، والمسافة بعيدة اتعبتنى ••
فانفرجت أساريرها فى ابتهاج وهى تقول وتدعوهللدخول :
ـ أزعجتنى ياشيخ •• حسبتك مريضا •• ادخل
ودخل الشاب ، ولما جلس هدأت أنفاسه ، وعاد الى طبيعته وأقبلت الست صبرية مرحبة ، كل ذلك دون أن يفطن الى دهشتيهما من حضوره المفاجيء ولما أدرك فى نهاية الامـــر ، انتحل لمجيئه هذا عذرا ، وقال :
ـ وجدت عندى من الوقت والفراغ ما يمكننى من أن أبدأ الدرس مع سلوى الليلة ، بدل من أن نبدأه فى الاســـبوع القادم ••
ففرحتالستصبرية ، وشكرته علىهذا الاهتمام ، وتركتهما ليبدآ الدرس ، وانصرفتلتصنع لهما الشاى ، وجلست معه سلوى ، تنظر الى وجهه ، والى الفرق الهائل الذى كان عليــه منذ لحظات عندما فتحت له الباب ، وكيف انه تغير سريعــا من الاصفرار والشحوب والاضطراب ، الى هذا البشر وهــذا الابتسام والهدوء والاطمئنان ، فقالت متخابثة وهى تتعمـــد البحث عن الكراسة التى سيبدأ فيها الدرس الاول :
ـ أظنك مازلت تذكر أيام زمان
ـ وهل تنسى أيام العمر
ـ وتذكر انك تعودت دائما أن تقول لى الصدق ، ولا تكذبي على
ـ وسأتعود دائما أن أقول لك الصدق ، ولا أكذب عليك
ـ قل اذن ماذا كان يزعجك عندما فتحت لك الباب !!
فعاد الاصفرار يرتسم رويدا على وجهه وتأخذ نظـــرته مكان الخوف ، وقال سريعا كمن يريد أن يبعد سوءا عنه :
ـ لاشيء ، لاشيء ، قلت لك لا شيء ••
ـ اذن انت تكذب
فارتبك الشاب وقال :
ـ كلا ، وانما الامر أيسر مما تظنين •••

ـ ما هو ؟
ـ الحقيقة اننى غير مستريح الى السكن الذى أقطن فيه
فعقدت الدهشه لسانها وهى تسأله :
ـ قلت لى أمس انك مستريح الى حد كبير
ـ اتضح أن البيوت كالندس ٠٠ لا نعرفها على حقيقتهـــا الا اذا خبرناها ٠٠
ـ وما الذى يضايقك فى البيت ؟
فعاوده الارتباك وزم على شفتيه فى حزن وتمتم وهو ينظر الى الارض ويضغط على أنامله حتى ليكاد يعصرها :
ـ السيرجة ، ورائحة الزيت ، والعفن الذى يتصاعد من الكسب ٠٠ و ٠٠ وأشياء أخرى ، قذرة ٠٠ قذرة جدا
ولاحظت عليه الحزن الشديد الذى هو فيه ، فتركت مقعدها وانتقلت بجواره وقالت له وهى تربت على ذراعه مطمئنة
ـ من الغد سوف أبحث لك عن سكن ملائم عندنا هنا فى الوايلية
فقال وهو مازال يفرك أصابعه وينظر الى الارض :
ـ وهل سيكون بالقيمة التى أقطن بها الآن
ـ ليست العباسية كما تظن ، ان فيها الكثير من الاحيـــاء الشعبية الملائمة جدا ، ومع ذلك أترك هذا لى وسوف ترى ٠
ـ يفعل الله ما يريد
نطق هذا فى ايمان لا حد له ، ثم نظر اليها وقال :
ـ هه ٠٠ لنبدأ الدرس الاول
فقالت ضاحكة وهى تتنـاول الكراسة من على الطاولة التى أمامها :
ـ سيكون ثقيلا من غير شك
ـ لماذا ؟
ـ لانك غير منشرح الصدر الليلة
ـ قلت يفعل الله ما يريد ، هه لنبدأ الدرس
فقالت وهى تضع الكراسة أمامها وتمسك بالقلم :
ـ اتفضل ٠٠
فصمت حينا طويلا ثم رفع عينيه اليها وقال :
اكتبى أولا فى وسط الصفحة الاولى ٠٠ بسم الله الرحمن الرحيم ٠٠ وبه نستعين
فاشرق وجه الفتاة وهى تكتب ما أملاه عليها بعنـــاية وخط جميل ٠٠ وبعد أن كتبت قال لها :
ـ أى شىء يضايقك فى العربى

فقالت ضاحكة :

ـ صدقنى ! اذا قلت لك •• ان اسمه يضايقنى ••

فقال وهو يجاريها فى الضحك :

ـ لهذه الدرجة !

ـ ثقيل ومعقد ، جر ، ونصب ، وكسر ، واعراب ••

فقال ضاحكا :

ـ وماذا تقولين اذن عندما تدرسين المتن ، والفقه والعروض

ثم نظر اليها وقال :

ـ لعل الاعراب هو الذى يضايقك بعض الشىء

ـ بل ينغص على حياتى •• ذهب عمر لينام •• عمر لم يذهب لينام •• شرب عمر الشاى •• عمر لم يشرب الشاى •• مالى أنا شرب أو لم يشرب ••

فقال بعد أن أغرق ضاحكا :

ـ انك تتوهمين •• اعراب هذه الجمل البسيطة من أيسر مايمكن ، اكتبى ••

فتناولت القلم ونظرت اليه :

ـ احتفظ عمر ب ••••

فقالت ضاحكة :

ـ تانى عمر ؟ ••

ـ دعى عمر هذا الذى يضايقك وليكن مثلا •• مثلا ••

وأخذ يفكر فى اسم علم غير عمر ، فقالت هى ولكن دون أن تنظر اليه :

ـ امام مثلا ••

فقال مبتسما فى ابتهاج :

ـ امام •• امام •• اكتبى ياستى •• احتفظ امام بـ •• بـ ••

فقالت وهى تضحك :

ـ يا ترى بماذا احتفظ ؟ ••

فقال وكأنه عثر على مايريد :

ـ احتفظ امام بذكرياته ••

فقالت وهى تضع القلم ضاحكة :

ـ ليس لهذا محل من الاعراب ••

ـ لماذا ؟ ••

ـ لانك قطعا لم تحتفظ بها كلها •• كما احتفظ أنا بها كلها ••

ـ ومن قال لك ؟

ـ اذن قل لى ماهو الذى احتفظت به •
ـ أيام الطعونة •• القرية •• والحارة •• ودهليز المرعشلى حم نوفل •• عم فضل السقا ••
ـ وماذا أيضا ••
ـ ودار الاستاذ الناظر •• وابنته سلوى
فقالت وهى تخفض عينيها :
ـ وماذا أيضا ؟
ـ والجرن • وفوانيس رمضان •• ولعب الاستغمايهوجمال المالح •• وحلقة ومضرب •• والسهر للفجر
ـ وماذا أيضا ؟ ••
ـ وخالتى مقبولة •• والترمس •• والسودانى •• وكيزان الحلبة والحلوى الطحينية •• و •• و ••
ـ وماذا ؟
فقال ضاحكا :
ـ وسرقة البيض •• والعلقة التى مازلت أذكرها
ـ وماذا أيضا ؟ ••
وانخفض صوته وهو يتمتم فيما يشبه الخجل :
ـ والكرة (الشراب)
فخفق قلبها وتعالت دقاته ، وصعد الدم الى وجهها فورده ، وتمتمت بصوت شبه مختنق وهى تنظر الى الارض وتضغط باصابعها المضطربة على القلم الذى فى يدها :
ـ وماذا أيضا ؟
ـ وليلة السفر ، والقطار الذى يبتعد عن القرية ، والموال الذى كان يغنيه عم غنيم غفير المحطة ، والذى أسال دموعى ، وأنا أستمع اليه وما زالت تسيل كلما ذكرته ••
ـ ماهو ••
ـ زعق الوابور على السفر ••

قلت رايحين فين
ح تغيبوا سنة
ولا تغيبوا اتنين
يالى ملكتو الفؤاد
ياكحله جوا العين

ـ تسمح أكتبه ؟ ••
وبينما هو يمليه عليها وهى تدونه على هامش الكراسة اقبلت الست صبرية حاملة صينية الشاى ، وما ان رأتهاتكتب حتى ابتهجت ابتهاجا شديدا ، وقالت لامام وهى تناوله كوبة الشاى :

ـ أعمل معروف . أحسن دى فى العربى .. حضر قلم ..

وبعد ان قدمت الشاى للاتنين وحاولت أن تخرج عادت ووقفت عند الباب مخاطبه الشاب :

ـ ولكن اسمع .. حاذر أن تشغل بالدرس الذى تعطيه لها عن درسك انت ، ليس المهم أن تنجح هى ، وانما المهم أن تحصل انت على ـ الشهادة ـ هذا العام

قالت ذلك ولم تنتظر جوابا وخرجت ، ولم يدر الشاب لماذا خفق قلبه لهذا القول ، ولم يدر أيضا لماذا رنت فى أذنه كلمةمحمدين له ـ اذا حصلت على الشهادة استطعت أن تحصل على سلوى ـ ونظر الى الفتاة فراها تنظر فى خجل الى الارض وقد تورد وجهها عن ذى قبل ، ومرت لحظة صمت طويلة عليهما ، حانت خلالها نظرة من الفتاة الى وجهه فرأته يسبح فى تفكير عميق ، فقالت له :

ـ فيم تفكر ؟

ـ لا شىء ، لا شىء ..

ـ وهل زال الشىء الذى كان يضايقك عندما اقبلت ؟

ـ الحمد لله ، عندما رأيتك زال كل شىء

نطقها الشاب بسرعة ومن غير أن يدرك ، ولما فطن الى ماقال والى مافيه من حرج ، احمر وجهه خجلا وارتبك ارتباكا شديدا ، وقال وهو يعود ثانية الى يديه ويعصر أصابعه :

ـ أقصد اننى أحس كلما جئت الى هنا ، اننى بين أهلى وعشيرتى ..

فقالت غضبى تزم على شفتيها فى طفولة محببة :

ـ ورؤيتى .. ألا تسرك ..

ـ بل تسعدنى ، وتخفف عنى الكثير من المتاعب ولولا ذلك لما جئت الآن

فسألته جادة :

ـ وما هى الاشياء التى تسبب لك المتاعب ؟

فعاوده الاضطراب بعض الشىء وقال :

ـ أشياء كثيرة .. كثيرة جدا

ـ منها ..

فصمت ولم يجب ، فقالت :

ـ أتنكر عنى شيئا ؟

ـ حتى اذا رغبت فى ذلك لم أستطع ..

ـ اذن قل ، ما الذى يؤلمك الى هذا الحد ..

ـ قلقى على أمى المريضة ، وشوقى الزائد لرؤيتها

ـ انها بخير ، وسوف أجعل أبى يكتب لها خطابا يستفسر عن صحتها ...
ـ شكرا ..
ـ قل وماذا أيضا ..
ـ هذا السكن الذى أقطنه ..
فنظرت الى أساريره التى أظلمت فجأة وقالت :
ـ الى هذا الحد يضايقك هذا السكن !
ـ بل يخيفنى ، اننى أتمثل باب غرفتى الآن أشبه بثعبان ضخم ، فاتحا فكيه ، شاهرا أنيابه ، ليلتهمنى ..
فقالت فى ذعر :
ـ ولماذا قطنت فيه طالما هو بهذه البشاعة ..
فصمت ولم يجب ، وراحت هى تتطلع اليه ، والى العبوس المرتسم على وجهه ، ثم قالت مشفقة فى حنان كبير تسرب مع صوتها الناعم الى قلبه فارضاه وأطربه :
ـ سوف لا أعود الى البيت غدا الا بعد أن أجد لك السكن الذى تطمئن اليه ..
ـ أنا لا أعرف كيف سارد لك كل هذا الجميل ..
فقالت ضاحكة :
ـ ان هذا ميسور جدا ، عليك أن تسرق ثلاث بيضـــات أخرى ، وتشترى لى بها حلاوة طحينية ..
فضحك حتى استلقى ، وتركته يضحك ، ثم قالت جادة وهى ترنو الى عينيهالجميلتين ووجهه الذى يقطر صفاء وطهرا :
ـ كنت أظن أن الذى يشغلك هو نفسه الذى يشغلنى بل ويسبب لى بعض القلق ..
ـ ماهو الذى يشغلك ؟
ـ رغبتى فى أن تنال الشهادة هذا العام
ـ عندى ايمان صادق باننى سأنالها باذن الله
فقالت فى فرحة غامرة وهى ترنو اليه نصف ارناءة :
ـ اذن ، أعد لك هدية النجاح من الآن
فتذكر ما قاله له محمدين ، ونظر اليها بعينيه الواسعتين . وقال بصوت لا يعرف لماذا خرج خافتا أشبه بالهمس :
ـ ولكن ماهى الهدية التى ستعدينها لى ؟
فتمتمت متوردة الوجه وهى تغيب بعينيها عن وجهـــه وتنظر الى الارض متمتمة فى خجل :
ـ لا أعرف
ـ أنا أعرف ..

فقالت وهى مازالت تنظر الى الارض :

ـ ماذا تعرف ..

ـ أعرف ..

وأمسك ولم يتمم ، ومنعه الحياء من أن يقول لها الشيء الذى يريده ، يحدثها عن السعادة التى يعيش فيها ، والتى يستمد منها قوته ، وظل صـامتا ينظر الى الارض ، وظلت هى أيضـا صامتة تنظر الى الارض ، وطالت فترة الصمت هذه بينهما طويلا .. طويلا جدا ، وامتدت بالاثنين الى أشياء كثيرة مجهولة . تستشعرها الاحاسيس وتهزج بها القلوب ، وتترنم بها العواطف وتجعل الجسد كله أشبه بالطائر الذى يحلق فى عوالم شتى من البهجة .. واللذة .. والسرور تماما كتلك التى حلقـا فيها ذات ليلة .. ذات ليلة خالدة .. ليلة لا تنسى .. ليلة كانت هى الحياة .. وكانت هى الدنيا .. وكانت هى العمر .. وكانت هى الذكرى .. ليلة انهارت عليهما كومة التبن .. واكتشفت فيها سرقة كورة من الكور .. فارتعشت الاصابع وخفقت القلوب ، واشتعلت الاحاسيس ، وهزج الجسد ، وغنت الحياة ، ورقصت الدنيا ..

وظلا كذلك يحلقان الى أن هزج عصفور فى السماء ، وأرسل صوتا أشبه ما يكون برعشة وتر .. أو رجفة قلب أو اختلاج شفاه .. ورن الصوت فى أذن الفتى :

ـ قل .. تعرف ماذا ؟

ففتح الشاب عينيه ، محاولا أن يفيق من ذلك الحلم الذى يعيش فيه ، ومسح على لسانه بشفتيه ، وقال وهو ينظر الى صورة صغيرة لسلوى بملابس المدرسة أمامه على الحائط :

ـ أعرف انك ستهدينني هذه الصورة .

فقالت وهى تخرجها من الاطار وتقدمها اليه :

ـ ظننتك ستطلب شيئا كبيرا ..

فقام وهو يتناولها من يدها متلهفا ويضعها فى جيبه وينهض سريعا كمن يريد أن يهرب بشيء ، ولما رآته يتجه الى الباب قالت :

ـ ولكننا لم نبدأ الدرس .

فقال ويده مازالت على الجيب الذى فيه الصـــورة فوق القلب :

ـ دائما اليوم الاول فى الدراسة ، ينفق فى الاعدادللدرس

فقالت وهى تنظر الى الارض ، وتمد يدها لمصافحته :

ـ ومتى ستعود ؟

ـ غدا ان شاء الله ٠

وبينما كما هبط هو السلم يحرك أصابع يده ، التى كانت فى يدها ، ويضغطها ويفردها ، وهو يتحسس حائط السلم ٠ كانت هى فى الغرفة ، تحرك أصابعها وتضغطها وتفردهـــا وهى تتحسس الكراسة ، التى كتبت عليها بخط يدها ٠٠

ـ احتفظ امام بذكرياته ٠٠

الفصل السابع عشر

وهبط الى الطريق ، وغمرته وحشته واكتنفته ظلمة الحوارى والازقة التى راح يسير فيها ، بيد انه تجلد وتماسك وراح يسير ، لانه كان لابد له أن يسير ، الى أن بلغ أول الزقاق ، وطالعته الخوخه ، والجنزير الضخم المعلق فى وسطها ، فاذا به يتراجع خائفا ، وأخافه هذا المنظر ، وأراد أن يرتد راجعا ، وحرك قدميه ، وحاول أن يدير وجهه وينطلق راكضا ، بيد أن رجفة ارتجفتها عيناه فتغير المنظر أمامه ، ورأى الباب قائما تتوسطه الخوخة ذات الجنذير الضخم ومد يده التي كانت ترتعش وجفف العرق البارد الذى كان يتصبب من وجهه ، واقترب خطوات ومد يده الى الجنزير وهو يبسمل ويستعيذ بالله ويتلو آية الكرسى وما ان فرغ منها حتى انفتح له الباب فى يسر اطمأن اليه كثيرا ٠٠ لان الجنزير لم يحدث تلك الاصوات المزعجة التى تعود أن يحدثها ، وكان ذلك يهمه جدا ، لان الذى كان يطمع فيه ويرجو من الله تحقيقه هو أن يبلغ غرفته وأن يتمكن من احكام غلق بابها خلفه قبل أن يشعر به أحد ، حتى اذا ما طلع النهار استطاع أن يدبر من أمر نفسه الكثير ، حتى ولو أدى به الحال أن يعود ثانية الى لوكاندة المدينة المنورة ، حتى ولو أنفق بدل القروش الخمسة ٠٠ عشرة ، وبدل أن يمكث يوما بغير طعام يمكث أياما ، فكل ذلك أحب اليه مما يدعونه اليه ، وقد كان فعلا حذرا الحذر كله ، موفقا التوفيق كله ، فقد استطاع أن يعيد الخوخة الى ما كانت عليه ، والجنزير الى مكانه ، وأن يخترق الدهليز دون أن يشعر به أحد ، ولا حتى الاستاذ حسبو الذى كان فى السيرجة مع بهلول ، يرتب له شئونه ويعد له عليقة وهو مخمور يترنح ويتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، ويغنى مبتهجا ، وزجاجة الخمر فى يده :

سبع سواقى بتنعى لم طفوا لى نار
يا منية القلب قول لى ازاى عشق الجار
يبقى النظر فى النظر والقلب قايد نار

وكما يطمئن الغريق ويلفظ آخر أنفاس الخوف ، عندما يمسك بحبل النجاة ، اطمأن الشاب ، وتطلقت أساريره عندما

دخل غرفته دون أن يراه أحد ، وأغلق بابها خلفه اغـــلاقا محكما ، واطمأن الى قوة رتاجها والى انه لا يمكن لقـــوة ما أن تقتحم عليه غرفته أو تحرك حتى هذا المزلاج الضخم السميك ، وراح وسط الغرفة يجفف عرقه وينزع ثيابه رويدا بعـــد أن أشعل المصباح ، وهو يبتسم من حين الى آخر ، فقد تذكر حديثه مع سلوى ، ونظرات الخجل التي تبودلت بينهما وعبارات الاخلاص والحب التي ترددت على شفاههما وتذكر مع ما تذكر الشهادة ورغبة سلوى في حصوله عليها ورغبة أمها أيضـا في ذلك ، ورنت في أذنه كلمة محمدين له مرة أخرى ــ اذا حصلت على الشهادة استطعت أن تحصل على ســـلوى ــ وانفرجت أسارير وجهه وهو ينظر الى الصورة ويتأملهـــا وانفرجت أساريره مرة أخرى وهو يمد يده في ايمان لاحد له الى الرف الخشبي الذي فوقه بعض الكتب التي عليه أن يدرسها ويستوعبها ويحل طلاسمها ، ولم يشعر هذه المرة بصعوبة هذه الكتب أو ثقل موادها كما كان يشعر من قبل عندما يتناولها ويبدأ القراءة فيها ، كما أشعل في حذر مابعده حذر وابور الغاز وأعد عليه كوبة من الشاي الثقيل الاسود الذي يساعده على السهر ، وجلس على الارض أمام المصباح ، يقرأ ويدرس ويذاكر وكلما نسي نفسه ونسي أيضا حذره الذي يجب أن يحذره ، وارتفع صوته بالقراءة كما تعود أن يرفع صوته وهو يقرأ ، عاد سريعا وزم على شفتيه في اضطراب ، وراح يتلفت حواليـــه خشية أن يكون قد سمعه أحد ، وحين يطمئن الى أن أحدا لم يسمعه يعود الى القراءة سرا ، وظل كذلك زمنا لايدري تحديده وهل طال أم قصر .. وانمـــا الذي يدريه انه أغرق نفســه اغراقا في الكتاب الذي بين يديه ، وراح يقرأ ويعيد ويحفظ وراح أيضا يهتز ذات اليمين وذات الشمال ، وهـــو مغمض العينين يتلو مايريد أن يحفظ بصوت مرتفع كعادته عنـــدما يريد أن يحفظ جيدا ، واذا به فجأة يسمع شيئا .. لم يسمعه بأذنه كما تعودت الناس أن تسمع بآذانها ، وانما سمعه بقلبه وباحساسه ، ففتح عينيه فاذا بشذاءات منتصبة أمامه كالسحر أو كالخيال ، أو كالقدر لا يعرف كيف نفذ اليه ، وهل هـــو هبط عليه من السماء ، أم خرج من الارض .

ونظر اليها مرتاعا ، ممسكا بشفتيه آخر لفظ كان ينطق به وهو يقرأ ، كما تصلبت أصابعه على الكتاب الذي كان في يده ، وراح ينظر خائفا .. ورأت نظراته المضطربة فيما رأت الباب الذي بين الغرفتين والذي كان خلفه دولابها الكبير ..

رآه مفتوحا بعد أن نقل الدولاب الذى كان خلفه من مكانه ، فعرف عند ذلك انها حقيقة ، وانها لم تكن خيالا كما كان يظن ولم تكن أيضا عفريتا خرج اليه من الارض أو هبط عليه من السماء ، وانما هى شفاعات جاءته من هذا الباب الذى لم يكن يذكره أو يذكر أن له وجودا ، وارتعدت فرائص الشاب ، وهو جالس أمامها القرفصاء على الارض ينظر اليها ، وتنظر اليه ، وامتدت هذه النظرات بينهما لحظات ، انحنت خلالها عليه وراحت تربت على كتفه التى ترتعد تحت يدها وهى تقول :

ـ ماالذى يخيفك الى هذا الحد ؟

فلم ينطق وانما انفجر باكيا ، وراح يولول كطفل ، فاخذته الى صدرها وراحت تمسح على رأسه بيدها وهى تجفف له دموعه التى انسابت على صدرها العارى دافئة فزادتها هى أيضا اضطرابا وهى تقول :

ـ قلت لك ما الذى يخيفك الى هذا الحد ؟

فرفع الشاب وجهه المبلل بالدموع من على صدرها وفتح عينيه . ولما رأى صدرها ، قال يخاطبها بصوت راعش مضطرب ، كما يخاطب القتيل قاتله قبل أن يجهز عليه :

ـ اننى أخاف منك ..

فقالت وهى ما تزال تمسح على رأسه ، وتتحسس شعره باصابعها :

ـ تخاف منى أنا ..

ولما لم يجب قالت وهى تمسك بذقنه وتنظر اليه :

ـ قل .. تكلم .. تخاف مما ..

ـ قلت منك أنت .. منك أنت !

ـ وهل أنا أخيف الناس الى هذا الحد ؟

فقال الشاب باكيا :

ـ أجل .. أجل ..

فجحظت عيناها فى دهشة وهى تسأله :

ـ أنا أخيف الناس .. كيف .. قل .. تكلم .. كيف أخيفهم ومم يخافون ..

ـ من الله .. من الله ..

فزمت على شفتيها ثم قالت هامسة بعد حين :

ـ وهل فيما بيننا ما يغضب الله ..

ـ أخشى أن يكون ..

ـ يكون ماذا .. تكلم ..

فصمت ولم يجب .. فمدت يدها ومسحت على رأسه مرة اخرى .. ولما لاحظت اطمئنانه بعض الشيء قالت وهى ماتزال تمسح بأناملها المرتعشة على رأسه المحموم :

ـ قل .. تكلم .. تخشى ماذا ..

فأراد أن يقول شيئا ولكنه لم يقدر .. فصمت مطرقا .. ولما طال صمته قالت :

ـ لماذا لا تريد أن تتكلم ؟

ـ ماذا أقول ؟

ـ ما الذى جعلك تتركنى فى العربة وتفر هاربا ..

ـ لأننى .. لأننى ..

ثم أطبق على شفتيه ، فقالت هى :

ـ لأننى أردت أن أقبلك ..

وكأنه ظفر بالرد الذى لا يحرجه ، لذلك نطق على الفور :

ـ أجل .. أجل ..

فسرحت طويلا ثم قالت وكأنها تريد أن تغمض عينيها :

ـ ألم تقل لى بأننى كأمك ؟

فنظر اليها الشاب ذاهلا وقال :

ـ أجل .. قلت لك ذلك ..

ثم عاد فتمتم وهو يحول نظـــــراته عنها فى الم ، وكأنه يخاطب نفسه :

ـ وكنت أقولها من قلبى .. علم الله ..

فصمتت لحظات ثم قالت له :

ـ هل بين الام وابنها هذا الذى تظن ..

فلم يجب ، وأطرق الى الارض . فاقتربت منه قليـــــلا ، وقالت وهى تربت على كتفه :

ـ ألم أقل لك يا بنى اننى يتيمة لا أب ، ولا أخ ولا زوج ولا ولد .. ولما قلت لى اننى كأمك . ظننتك ابنى حقيقة ..

وأردت أن أقبلك . فهل فى هذا ما يغضب الله .. ويغضبك الى هذا الحد ..

فقال فى فرحة لا حد لها :

ـ حقيقة ان بعض الظن اثم .. و ..

بيد انه عاد فأغمض عينيه سريعا .. عندما رأى صدرها العارى ، وقميصها الخفيف الذى انشق من أمام علـى ثديين بارزين مخيفين . ولما عاودته اطراقته قالت وهى تربت أيضا على كتفه :

ـ تكلم .. ماذا كنت تريد أن تقول ..

فتمتم بصوت خافت وهو ما زال ينظر الى الارض :

ـ اذا كان هذا حقيقة . فأرجو أن تغفرى لى هذا الظن ..

فنظرت اليه طويلا هذه المرة . ثم قالت بصوت متهدج فيه الكثير من البكاء :

ـ والآن أظل ساهرة حتى تجىء ، لـكى أسألك ، لمـاذا هرب الابن من أمه . فتقابلنى هذه المقابلة الجافة ؟

ـ قلت لك اننى أخطأت . وحقيقة أنا أسأت الظن .

فأدارت وجهها بعيدا وقالت وهى تبكى بصوت مرتفع :

ـ وما الذى جعلك تسىء بى الظن ؟

ـ صور لى الشيطان أشياء كثيرة .. ووسوس لى أيضـا بأشياء كثيرة .

فالتفتت اليه والدموع فى عينيها قائلة :

ـ ماذا صور لك ؟

فأطرق الشاب الى الارض ، ولم يجب .. فقالت وهى تمد يدها الى ذقنه مرة أخرى ، وترفع وجهه الى وجهها :

ـ تكلم .. قل .. ماذا صور لك الشيطان ..

ـ أشياء كثيرة كلها فتنة واغراء .. وخشيت .

ثم زم على شفتيه ولم يتمم . فقالت له بصوت لا يكاد يبين، ويدها الممسكة بذقنه ترتعش ارتعاشا عنيفا :

ـ خشيت ماذا يا امام .. قل .. تكلم .. انا أمك ..

ـ خشيت أن ..

وزم على شفتيه مرة ثالثة أو رابعة .. وقال وهـو يكاد يبكى :

ـ ارجو أن تعفينى من هذا الحديث ..

فقالت وظل ابتسامة حلوة تتألق عــلى شــفتيها المبللتين بالدموع :

ـ أنت تسيء بى الظن الى هذا الحد .. وأنا قلبى يحــرم على العشاء ، حتى تجيء ..

ـ أنا سببت لك كل هذه المتاعب ..

قالها الشاب في اشفاق وأسف لا حد لهما .. فقالت هى الاخرى فى أسف مرير :

ـ وما زال العشاء أمامى لم أقربه ..

ـ أرجو لك عشاء هنيئا ان شاء الله ..

فقالت على الفور ضاحكة فى بشر :

ـ سيكون هذا اذا تناولته الام ، مع ابنها العزيز ..

ـ أنا تعشيت ، والحمد لله ..

ـ اذن ، فلن أتعشى أنا ..

ـ قلت لك أنا تعشيت ..

فقالت وهى تنظر الى عينيه الجميلتين :

ـ على الاقل .. اجلس مع أمك حتى تتناول عشاءها ..

ولم تمهله حتى يجيب ، وانما مدت يدها اليه وأنهضته ، وسارت أمامه ، وسار هو خلفها ، وحانت منه التفاتة ، وجاءت منه مصادفة على الرغم منه . فرأى ظهرها الذى يكاد يــكون عاريا ، والقميص الاملس الناعم ، الذى يتماوج فوقه ويهتز فتتماوج معه وتهتز أشياء . فأغمض الفتى عينيه سريعــا فى ألم ، كما يغمضهما الانسان تماما على نار تلفحــه . وراح يتمتم وهو يدلف خلفها الى الغرفة فى الليل ببعض آيات من القرآن . ويتلو سرا فى سرعة واضطراب : « أعوذ برب الناس .. ملك الناس . اله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صدور الناس . من الجنة والناس » .

ولما دخل الغرفة وفتح عينيه وكان قلبه قد اطمأن بعض الشيء . لفت نظره السرير الضخم المرتفع عن الارض ارتفاعا كبيرا والدرجات الثلاث المبطنة بالقطيفة التى توصلك اليه . ورأى الكلة الحمراء التى تشبه قبة السماء المنقلبة ، والمساند

الثلاثة ذات القطيفة الخضراء والصفراء • فقال ضاحكا ، وكأنه يتذكر شيئا :

ـ مازالت هذه الاسرة باقية الى الآن ••

فقالت له ، وهى تنظر فى ضيق الى الدولاب الذى ازدحمت به الغرفة بعد أن نقلته من خلف الباب :

ـ وهل رأيت سريرا مثله ••

ـ سرير أمى كان مثله تماما ••

ثم عقب ضاحكا :

ـ وكنت لا أستطيع أن أصعد اليه الا اذا قفزت كما يقفز الحصان تماما ••

فقالت ضاحكة :

ـ وهل كنت تنام فى أحضانها ••

فقال وهو يضحك في سذاجة لا حد لها :

ـ وظللت أنام فى أحضانها الى أن بعنا السرير • والبيت أيضا وانتقلنا الى دهليز المرعشلى •

فقالت و هى تحاول أن تزحزح الدولاب من مكانه ، لتفسح الغرفة :

ـ أنت طيب القلب ••

فقال وهو يبعدها عن الدولاب ويقترب هو منه :

ـ أين تريدين وضعه ؟

فقالت وهى تشير الى حائط آخر غير الذى به الباب الموصل للغرفتين :

ـ هنا ••

فلم يفطن أبدا الى شىء •• وقال وهو ينظر الى ضخامة الدولاب :

ـ عليك أن تسندى فقط •

وفى أسرع مما كانت تظن ، حمل الدولاب على كتفه ، ونقله الى المكان الذى أشارت اليه به • وراحت هى تنظر اليه والى عضلاته التى نفرت مرة أخرى كما نفرت وتجمدت يوم رفع بهلول من البئر • وقالت ضاحكة فى بشر وهى تجره من ذراعه الى الكنبة المقابلة للسرير ، والتى أمامها العشاء :

ـ أنت ضيفي الليلة ..

ثم أردفت وهي تجلسه بجوارها على الكنبة ، وترفع الغطاء من على الطعام :

ـ ستأكل معي ... أليس كذلك ؟

فنظر نظرات سريعة الى الطعام الذى حفلت به المائدة وقال وهو ينظر بالذات الى دجاجة سمينة كانت تتصاعد منها رائحة حلوة :

ـ قلت لك تعشيت .

ـ واذا استحلفتك بأمك ..

ـ هذا يمين عزيز ..

فقالت وهي تنقل الدجاجة من مكانها ، وتضعها أمامه :

ـ اذن فأنت تعزني حقيقة . واذن ستأكل ..

وراح الشاب في غفلة من نفسه يلتهم الطعـــام التهاما ، وراحت هي تنظر اليه فرحة في صمت كما كانت تنظر اليـه تماما في المطعم . وطالت فترة الصمت بينهما حينا ، الى أن حانت التفاتة من الشاب الى الباب الذى بين الغرفتين والذى كان لا يزال مفتوحا . فأحس بشيء من الريبة أو الخوف يعود اليه ثانية . فأنهى طعامه سريعا وفجأة قال لها :

ـ ولكن لماذا أتعبت نفسك ونقلت الدولاب من وراء هـذا الباب . ولماذا أيضا دخلت على منه ولم تدخلي من باب الدهليز كالعادة ..

فأدركت على الفور كل ما يجـــول بخاطره ، وقالت وهي تنهض لترفع المائدة وتعد له الشاى :

ـ أهذا الذى أغضبك ؟

ـ بل زاد من شكي ..

فقالت في حزن وهي تحسر عن ساقيها وبعض فخذيهـــا وتجلس القرفصاء لتتناول وابور الغاز من تحت السرير :

ـ صنعت هذا الذى صنعت . ودخلت عليك من هـــذا الباب . لأن الايام علمتني أن الناس لا ترى دائما الا الجـانب الاسود فقط ..

فقال وهو يحاول أن يبعد عن عينيه تلك الساق التى انحسر عنها الثوب حتى ثنية الفخذ :

ـ أى جانب أسود فى هذا ..

ـ لو انني طرقت بابك فى هذا الوقت من الليل ، ورآنى حسبو ، أو أحد من الذين يعملون فى السيرجة . فماذا كانوا يظنون ..

فقال الشاب فى حدة تشبه الغضب :

ـ كانوا يظنون ماذا .. قاتلهم الله ..

فقالت ضاحكة ، وهى تنهض ، وتجلس بجواره ، ملقية بذراعيها العاريتين على كتفه ، ووجهها لوجهه :

ـ يظنون الذى ظننته أنت تماما ..

فقال وهو يغمض عينيه ، عن شىء ما على الصدر :

ـ أنا لم أظن شيئا ..

فمدت احدى ذراعيها ، وأمسكت به من أذنه ، متصنعة الغضب تنظر اليه بنصف عين :

ـ بل ظننت ..

ثم قالت وهى تعرك أذنه مستطردة :

ـ قل . لا تكذب . ظننت أم لا ..

فتمتم ووجهه الى الارض :

ـ ظننت ..

فقالت وهى تمسك به من ذقنه وترفع وجهه الى وجهها الذى التهب فجأة :

ـ ظننت ماذا ؟

فلهثت أنفاسه . وهو يقول :

ـ قلت لك انه الشيطان .. ومع ذلك اعتذرت لك .

فتهدج صوتها وهى تأكل من وجهه بعينيها :

ـ أهذا الاعتذار من قلبك ..

فاضطرب وهو ينظر الى فخذها التى تعرت بجـــواره ، وتمتم :

ـ من قلبى ..

ـ أتقسم ..

ـ أجل .. أقسم .. أقسم ..

فاقتربت منه حتى لفحت أنفاسها الدافئة وجهه كله ، وقالت وكل شىء فيها يرتعش :

ـ وتقسم على شيء آخر •
فتمتم مرتعشا بين ذراعيها :
ـ ما • ما هو •
ـ أن لا تعود ثانية الى هذا الظن السيىء •
فقال مضطربا ينظر الى ذلك الشيء الذى على الصدر :
ـ أبدا • أبدا •
حتى ولو أحسست احساس الامومة الذى أحسه الآن •
و •• وعانقتك •
ـ أ •• أبدا •• أ •• أبدا •
ـ و •• وقبلتك •
ـ أ •• أ •• أبدا • أبدا •
وأخذتك هكذا بين أحضانى •

وفجأة جحظت عيناه جحوظا مخيفا • وتصلبت أسارير وجهه • واكفهرت سحنته • حتى غدت مغبرة قاتمة • فخافت وارتعدت فرائصها ، وأغمضت عينيها متراجعة تريد أن تصرخ أن تستغيث •• أن تهرب من بين ذراعيه • ولكنه كان قد أطبق عليها فى عنف ، كما يطبق الوحش على فريسته فى عنف • فلم تستطع أن تهرب • ولم تستطع أيضا أن تستغيث وكل الذى فعلته أنها مدت ذراعا مرتعشة تضطرب • الى مصباح زجاجى كان بجوارها على البريه • ومن ثم أطفأته رويدا •• ورويدا أيضا تسلل من الباب الذى بين الغرفتين ، والذى كان لا يزال مفتوحا • تسلل نور شاحب مصفر • وتسلل مترنحا على الارض • يقصر ظله حينا ويمتد ظله حينا آخر • ويلتمع نوره الشاحب مرة ويخفت مرة أخرى • حتى لكأنه شعاع ضئيل ينبعث من عين راهب كهل يبحث عن ـ انسان ـ لم يعد •
فى حين ظل السراج نفسه فى الغرفة الاخرى طوال الليل تتأرجح زبالته فوق كتابين من كتب الفقه والدين • حتى لفظ آخر أنفاسه ، مع الفجر •

الفصل الثامن عشر

منذ ذلك اليوم • أو منذ هذه الليلة تغيرت أشياء كثيرة •• تغير حتى فضاء الدهليز وغدت ظلمته الداكنة ظلا ظليلا تستريح له العين • وغدت وحشته المقبضة أمنا جميلا وهدوءا محببا ترتاح اليه النفس • وتغير أيضا صوت السرجة الاجش الذى كان يشبه فحيح الافاعى فى الليل ، ورائحتها الكريهة التى كانت تضيق بها النفس ، وغدا الصوت ينبعث فى الليل كاللحن الجميل ، وغدت رائحتها الكريهة كالمسك أو الطيب حتى ـ الخوخة ـ ومنظرها البشع ، والجنزير الضخم الذى يشبه الثعبان الكبير الفاغر فكيه ، الشاهر لأنيابه • غدا حبلا رفيعا كأوراق الورد ، ناعما كنسج الحرير • وتغير كذلك الشاب • فلم يعد أبدا امام بلتاجى حسنين كما كان من قبل أو الشيخ امام المجاور فى الازهر • وانما غدا شابا وسيما ، وأفنديا أنيقا للغاية • يرتدى البذلة الفخمة ذات اللون الجميل، والازرار الستة المصفوفة على الجانبين ، والطربوش الاحمر الفاقع بدل العمامة والكاكولة • كما راح المنديل الاحمر ورباط الرقبة الذى من لونه يزينان صدره ويتألقان نورا على الصدر • حتى شعر رأسه الخشن الكث الذى كان لايعرف الحلاق الا نادرا غدا ناعما لامعا مصففا تنبعث منه رائحة عطر القسيس الزكية التى تشمها على بعد أمتار •

وتغيرت غير ذلك أشياء أخرى هامة منها أو لعل أهمها ، وجه المعلمة شفاعات نفسه • فقد غدا وجها جديدا تكاد لا تربطه صلة بالوجه القديم • فقد ذهبت تلك الغبرة وذلك العبوس الذى كان يكتنفه دائما ، وغابت تلك الخطوط السوداء وتلك التجاعيد والاخاديد التى كانت قد بدأت ترتسم معالمها على الوجه كما زالت أيضا تلك الدائرة الزرقاء التى كانت تتراءى حول العين حتى لتكاد تلتف بها • وغدا الوجه فى مجموعه ، مشرقا فتانا يقطر شبابا وبهاء ونورا • تزينه عينان جميلتان تشعان نورا يشبه الابتسام ، أو ابتساما يشبه النور • ويتوسطه فم لاينى يضحك دائما ، يضحك لنفسه • ويضحك للناس • ويضحك أيضا للنهار اذا أدبر • ويضحك ويغرق فى الضحك لليل اذا أقبل ولاتنى أيضا شفاهه الغليظة الحمراء تتلمظ وتبتسم حتى فى النوم • كما غدا الشعر الطويل الناعم

الذى كانت تتهدل خصلاته حيثما اتفق • مرة على الظهر ومرة على الصدر وأخرى بين النهدين ، والذى كان لا يعرف الغسل الا من الحين الى الحين ، غدا فاحما ناعما تطرحه دائما على الكتفين العاريتين ، كما تنطرح الرقعة السوداء الناعمة على العاج • وغدا الجبين تزينه القصة الملتفة به كما يلتف الغمام حـــول الفجر ليزيد من بهائه ويزيد هـــو من ظلمته ، وتتمايل عليه - أى على الجبين - كله حبات القرنفل وخرج النجف والبلابل السبع التى انسابت على عقدة المنديل آبو أوية وتدلت مع أطرافه ومع خصلة شعر واحدة على يمين الاذن ، فيحدث صوت البلابل السبع مختلطة بصوت القبقاب المصنوع من الصدف ، يحدث صوتا أشـــبه ما يكون بهزيج الطير أو وسوسة الحلى ، أو أنغام الموسيقى فى الليل تنبعث الى أذنك من مكان بعيد •

وتغيرت غير ذلك أيضا أشياء أخرى كثيرة ، كانت لها أهمية كبرى فى حياة بعض الناس ، لعلها زادتهم بؤسا على بؤس • أو لعلها أضفت عليهم أمنا وهدوءا وراحة بال • فهم أنفسهم لا يعلمون • ومن هـؤلاء الناس الاستاذ حسبو القط الذى اخذت حياته تسير سيرا مرضيا الى حد كبير - فى نظر من يراه على الاقل - فلم تعد المعلمة كما كانت من قبل ثائرة عليـــه دائما غاضبة عليه أبدا • تغلظ له فى القول كلما رأته • وتعنفه تعنيفا مرا كلما التقت به ، وتتطاول عليه باللسان وباليدين بين الحين والحين بل أخذت تلاطفه ، وتداعبه أحيانا ، بل وتتندر معه فى بعض الاحايين • ولم تعد تحاسبه ذلك الحساب العسير اذا ما أخطأ فى شىء ، أو أهمل فى خدمة بهلول ، أو أســاء التصرف فى أمر من أمور السيرجة • بل أعطته الكثـــير من الحرية ، وأعطته أيضـــا مطلق التصرف فى شئون السيرجة جميعها • ونفضت هى يدها من هذه المتاعب • وانصرفت الى شأنها ، تغيب ما تشاء وتعود الى البيت متى تشاء • ونتج عن هذا ، أو عن تغيبها الدائم ما مكن الاستاذ حسبو من مضاعفة دخـــله • فجميع الاوقات التى كان يقضــيها فى العمل فى السيرجة راح يقطعها فى كتابة « العرضحالات » وخطابات العشق والغرام • مما جعـــله يملك القروش العديدة ، التى يشترى بها الخمر ، ويشتريها بكثرة ملحوظة • وبعد أن كانت الزجاجة صغيرة يتسع لها جيب بنطلونه الخلفى فقط • أصبحت كبيرة وممتلئة بصفة دائمة • بل أصبحت أكثر من زجاجة ، يعب منها عبا ، يعب منها كلما قام أو قعد ، ويعب منها ان

غفل أو استيقظ .. ويعب منها أيضا كلما سالت دموعه .
فقـــد كان من عادته اذا أغرق فى الخمر أن يبكى .. يبكى أحيانا وهو يضحك . ويبكى أحيانا وهو يبتسم .. ويبكى أحيانا أخرى اذا ابتهج وأرسل صوته الاجش مغنيا ومرددا مواله الحبيب الى نفسه :

سبع سواقى بتنعى لم طفو لى نار
يا منية القلب قول لى ازاى عشق الجار
يبقى النظر فى النظر والقلب قايد نار

* * *

ولا يدرى . ولا يدرى أحد أيضا ، لماذا كان يردد هـــذا الموال دائمـــا وترتفع به عقيرته كلما أغرق فى الخمر ، ورأى بعينيه المحمرتين المقرحتين اللتين كانتـــا تبدوان من خلف منظاره الزجاجى الملوث أشبه بقطعتين من القطن منغمستين فى الدماء كلما رأى شبح امام مقبلا على الزقاق ، أو خارجا منـه يتيه فى حلته الانيقة ورباط رقبته الفاقع وشعره المصفف الذى تنبعث منه رائحة عطر القسيس فيحس الشاب بشىء من الخجل فيسرع الخطو أو يخففه . أما اذا التقى به وجها لوجه ، واضطر الشاب الى مصافحته . قال له حسبو ـ وهو يتمايل من الخمر ضـاحكا ـ جملته التقليدية التى لا يغيرها كلمـــا التقى به أو تحدث اليه فى أيامه الاخيرة :

ـ أين أراضيك .
ـ فى المدرسة .
ـ قواك الله ...

ثم يتركه وينصرف يتمايل مخمورا وهو يضحك كعادته ، وتسيل الدموع من عينيه كعادته أيضا كلما أغرق فى الضحك ويظل يسير حتى يبلغ نهاية الزقاق ، ويهبط على مهل متحسسا بيديه الواهنتين سلالم السبيل حتى يبلغ نهايتها ، ثم يسير بضع خطوات حتى يبلغ « خمارة كرياكو » وهى ما زالت قائمة الى الآن فى ميدان باب الخلق . ويقف بجوار البرميل فاذا بده المرتعشة بالزجاجة الفارغة والقروش الثلاثة يدفعها الى كرياكو وهو يقول ضاحكا :

ـ السولار ..

وتغير ضـــمن ما تغير أيضـــا أشياء أخرى ذات بال .. أشياء رقيقة ناعمة . ذات أحاسيس ومشـــاعر وقلب ينبض بالحياة وآمال عراض تكاد يبلغ العمر . وتمتد الى الدنيا والحياة، تغيرت هى الاخرى أو لعلها تأثرت على الرغم من بعدها البعيد

عن كل شيء ... تغير وجـــه « صبوح » كان أشبه بالقمر الوليد يقطر ضياء وطهرا ، فاذا بالغمام الداكن يكتنفه ويغرقه فى لجة من السواد . وتغير فم رقيق رقة الورد كان لاينى دائما عن الافترار والابتسام لكل شيء كما تبتسم الاقحوانة لكل شيء لسكون الليل .. وقطرات الندى .. وطلعة الفجر ... وطلعة الصبح واشراقة النور .. تغيرت وجفت واصفرت كما تصفر ورود الصيف وتجف أوراق الشجر . ولـولا رعشة تكتنف الشفتين من حين الى حين ، لظننتها أى شيء غير أنها شفاه حلوة لثغر جميل . وتغيرت أيضا عيون ومحاجر وأهداب ذات ظلال كانت تبعث السحر وترسل النور . فغدت معتمة مظلمة تبعث الوحشة وترسل

السواد . وحدث هـذا كله من يوم أن انقطع الاستاذ عن تلميذته ، أو المدرس عن دروسه بلا مقدمات . فقد انتظرت التلميذة أستاذها فى اليوم الثانى ولكنه لم يعد . وهو لم يعد أيضا منذ أيام ، بل ومنذ أسابيع وشهور وهى قد ظنته فى أول الامر مريضـا أو أصيب بسوء . وظنته كذلك الست

صبرية . وظنه كذلك أيضا الاستاذ الشرنوبى . وازداد قلقه عليه . فذهب اليـه فى المدرسة وهى المكان الذى يعرفه . حقيقة لم يجده . وحقيقة أيضـا أنه لا يذهب الى المدرسة بانتظام . وحقيقة ثالثة أنه بخير ، وأنه لم يصب بسـوء .

وترك له خبرا يرجوه فيه أن يعوده فى البيت وأنه فى انتظاره من وقت الى آخر . وحقيقة رابعة أن هـذا الرجاء قد بلغه . ولكنه لم يعمل به . وبذلك قام الاستاذ الشرنوبى بكل ما يجب أن يقوم به رجل طيب . يهمه أمر انسان يعزه . أما أن ذلك

الانسان لم يستجب الى الرجاء ولم يعمل بما يجب أن يعامل به الاهل والاصدقاء ، فهذا شأنه هـو . وليس للاستاذ الشرنوبى أو أسرته دخل فيه . ولكن هذا القلب .. هـذا القلب الطفل الاخرس الذى لا يعرف النطق هل ينسى الانسان

الذى أنطقه بأول حرف من أحرف الكلام . وألهب أحاسيسه كما تتحرك شفاه الطفل وتنطق بأول لفظ فى الحياة . هل

ينسى هـذا . هل ينسى حياته .. هل ينسى دنياه .. هل ينسى وجوده كله .. وأخيرا هل ينسى القلب .. القلب الذى عاد فأصيب بالخرس سبع سنوات ، ثم فجأة عاد الى النطق

ليلة أن عاد اليه الذى أنطقه أول مرة • هل ينسى ذلك • وهل من الممكن نسيانه • هل فى طوق بشر أن ينساه • ولاحظت الست صبرية هذا كله • وأحست به احساسا عميقا أقلقها ، وأشفقت على ابنتها الوحيدة من هذا الضنى الذى تعيش فيه • والذى شقيت به هى أيضـــا لا باعتبارها الام فقط ، ولكن باعتبارها أيضا امرأة تعرف كيف تحس قلوب النساء وتشعر وتتعذب بالحب الاول • ولذلك اختلست من وقتها ساعة من الزمن كما هربت من الناس جميعا حتى ابنتها وزوجها وذهبت فيها الى الكليـــة لمقابلة الشـــاب • وكم لاقت السيدة المحافظة الخجول ، التى لم تتعود الخروج من البيت ، من صعاب ومشاق ومتاعب فى السؤال والاستقصاء ، ومعرفة الطريق الموصل للمعهد • وركوب الترام وزحام النـــاس الى أن بلغت المعهد ووقفت على بابه تنتظره خجلة مرتبكة يكاد يوقعهـــا الخجل والارتباك فى شر ما تقع فيه سيدة مثلها • الى أن جاء امـــام مقبلا من بعيد فأنكرته ولم تتعرف عليه أول الامر • حتى انه عندما أقبل عليها أدارت وجهها خجلا من هذا الافندى الوسيم الرقيق الذى يسير فى دلال ولولا أنه مد يده لمصافحتها لظلت فى مكانها تنتظر الشيخ امام بلتاجى حسنين الذى جاءت من أجله وطلبت مقابلته • ولذلك كانت دهشتها بالغة عنـــدما صافحها وحياها ، فلم ترد عليه التحية ، بل لم سحبت يدها من يده من فرط المفاجأة التى أذهلتها وراحت تنظر اليـــه وتتفحصه جيدا • الحلة الانيقة التى يرتديها ، والقميص الحرير الذى تزينه ربطة العنق الحمراء ، والشعر المصفف الذى يتضوع مسكا من تحت الطربوش الاحمر الذى مال زره الاسود على مؤخرة الاذن • وبعد فترة صمت طويلة قضاها الشاب ناظرا الى الارض فى ارتباك شديد ، راحت تتحدث معه حديثا طويلا• انتهى بأنها تركته وانصرفت غير مؤمنة بكلمة واحدة مما قالها لها • لا بالمرض الطويل الذى أقعده عن زيارتهم وعن مواصلة الدروس الى الفتـــاة • ولا بقصة خاله الذى مات وورثت أمه ماله ، الذى مكنه من أن يعيش ميسورا ويرتدى الزى الافرنجى، ويتحلى بالذهب الخالص ، الســـاعة الثمينة التى يزين بهـــا صدره ، والخاتم الغالى الذى يتألق فى يده ، وأزرار قميصـــه الذهبية ذات السلاسل الدقيقة اللامعة • لم تصدق شيئا من

هـــذا كله ، ولا حتى بالوعد الذى قطعه على نفسه بزيارتهم الليلة أو غدا ، واستئناف الدرس من جديد للفتاة •

وكمــا خرجت الست صبرية من البيت صــباحا صــامتة لا يعرف أحد وجهتها عادت اليه ظهرا صامتة أيضا لا يعرف أحد أين كانت • بيد أن الصمت أحيانا لغة تفهمها القلوب التى شفها الحزن ، وصهرها الالم • وقد فهمت الفتاة كل شيء كما لو كانت فى صحبة أمها لزيارة الشــــاب ورأته رؤيا العين وسمعت حديثه كله • ولذلك حاولت ما استطاعت فى ذلك اليوم أن تتجنب أمها حتى تتجنب حديثا عرفته من ألفه الى يائه • كما حاولت أن تكون أكثر مرحا وضحكا وابتساما لعلها بذلك تستطيع أن ترسل بصيصا من نور يزيل ولو بعض هذا السواد الذى يكتنف وجه الام • وقد نجحت الفتاة فى هــذه الرواية المرحة التى نقلتها ، وفصــــول الضـحك والابتسام والهناء التى لعبتها • مما خفف كثـــيرا عن قلب الام ، وأعاد اليها والى البيت بعض الامن والهدوء وبعض الاطمئنان وراحة البال •

وظلت الفتـــاة كذلك الى أن جاء الليل ودخلت حجرتها بيد أنها لم تكد تغلق الباب خلفها حتى نزعت ثياب التمثيل التى ارتدتها طوال اليوم • فعاد القلب الى وجيبه والثغر الى ارتعاشه واللحظ الى رجفته واضـــطرابه • فصعدت الى الفراش لاهثة مغمضة العين والقت بجسدها الذى جطته فى ثياب النوم على الفراش فى غير انسجام • فبدت فوق الفراش أكثر من فتاة ، وأكثر من جسم • فهنا ذراع وهناك يد • وعلى الشمال ساق ، وعلى اليمين عنق • وهناك فى آخر الوسادة شعر ، وهنا فى أولها وجه • حتى ذلك النور الذى كان يرسل اشعاعه الهادىء فى الظلام وهي نائمة اذا ما انحسر الغطاء عن فخذ أو انشق الثوب عن صدر • تلاشى نوره ، وذهب ضياؤه وان كان قد بقى أصله يذكرك به • تماما كالمصباح الجميل المنطفىء الذى تراه عيناك ، فتكاد ترى معه النور الذى كان يرسله والذى كان يشعه •• وظلت الفتاة كذلك منطفئة مظلمة معتمة الروح والجسد ، نائمــة كاليقظانة ويقظانة كالنائمــة الى أن انقضى الليل رغم طوله المرير ، لانه كان لابد له أن ينقضى •• ونهضت

من فراشها مبكرة كما تعودت أن تنهض مبكرة وحاولت أن ترتدى ثياب التمثيل مرة أخرى ولكنها لم تقدر • فارتدت ثياب المدرسة بدلا عنها وراحت ترتب حقيبتها المدرسية وتضع فيها ما تحتاج اليه من كتب وكراريس وأقلام • فوقعت عيناها على كراسة معينة بالذات ، كراسة بيضاء خالصة البياض لم يكتب فيها سوى جملة واحـــدة فقط • حاولت أن تقرأها ولكنها لم تقدر • ولما أعادت اليها النظر واستطاعت أن تقرأها لم تعرف لها معنى • ذلك لان دمعة من تلك الدموع التى كانت تقطر من عينيها سقطت على لفظ معين من الجملة فطمســــته وطمست معه المعنى كله •• والا ما معنى«احتفظ •• بذكرياته» ولكن لماذا تتطر هـــذه الدموع على هـــذا اللفظ بالذات على ـ الاسم ـ دون سواه • الآن صاحبه مات • وهل من الحتـم علينا أن نشيع أمواتنا بهذه الدموع • ولكن هل تموت الناس وهى أحياء • وهل هكذا تكون دموعنا على الذين يموتون وهم أحياء • أشد حرقة ، وأشد مرارة ، وأشد لوعة •• وأشـــد أيضـــا نارا • من تلك الدموع التى نشيع بها الذين يودعون الحياة • الذين يموتون موتا حقيقيا •

العمر..

الفصل التاسع عشر

كان لابد لشيء ما أن يحدث .
هـذا ما كان يؤكده بينه وبين
نفسه أكثر من واحد فى الزقاق
وفى الحارة ويؤكده أيضاحسبو
بينه وبين نفسـه كلمـا رأى
المعلمة فرحة مرحـة تتيه فتنة واشراقا . وتتضوع شـبابا وجمالا ، كما تتضوع الزهرة اليانعة وترسل أريجها العبق فى الخمائل .. ويؤكده أيضا بينه وبين نفسه كلما رأي الشاب يرتدى حلة أنيقة فى النهار وأخرى أكثر أناقة فى الليـل . ورآه يروح ويجيء فى الزقاق كمـا يروح ويجيء الطاووس مزهوا بوسامته فخورا بالالوان المتعددة البراقة التى حباه بها الله ... ويؤكده أيضـا بينه وبين نفسه كلما فرغت الزجاجة وراح مترنحا يجر ساقيه جرا فى الظلام ، وهو يهبط سلالم السبيل فى طريقه الى كرياكو ليأتى بزجاجة أخرى من الخمر .

وتؤكده كذلك المعلمة شفاعات نفسـها ، وتكاد تؤمن به كلما استشعرت النعيم الذى تعيش فيه . وأحست الهناء الذى يفيض عليها . وأظلتها شجرة اللذة التى تتفيأ ظلالها . كانت تؤكده دائما وتؤمن به كلما أغرقتها لحظات هذه اللذة .

كانت تحس احساسا غريبا . كلما نهلت من هذا السلسبيل الذى يغـرق الجسـد ويفيض على القلب وتنتشى له الروح . أحسست انها أشـبه بمتسول كان يطمـع فى قرش . فاذا بك تتصدق عليه بآلاف الجنيهات . حقيقة أن هذه الصدقة أصبحت ملكا له ، وحقيقة أنه ينعم بها ويعيش فى خيرها . ولكن هـل حقيقة أن متصدقا يتصدق بكل هذا النعيم . كان هـذا هـو احساسها ، وكان هذا هو الذى يسبب لها القلق أيضا ويجعلها تؤكد بينها وبين نفسها أن شيئا ما لابد أن يحدث .

ولكن ما هـو هـذا الشيء . ان أحدا من هؤلاء جميعا كان لا يعرفه . لا الأستاذ حسبو ، ولا المعلمة شفاعات ، ولا امام أفندى أو الأستاذ امام كما كان ينادى ، ولا حتى الست صبرية أو ابنتها ، لأن واحدا من هؤلاء جميعا ولا حتى الشاب نفسـه كان ليظن أو يقدر أن مجرد زيارة الست صبرية للشـاب فى المعهد سوف يترتب عليها هذه الأحداث الجسام . فقد حدث أن طالبا خبيثا كان على صلة بامام ومعه فى فصل واحد ، ويعرف عنه كل شيء . كان هذا الطالب يجلس فى مكانه فى الفصل ،

فحانت منه نظرة عابرة الى النافذة المطلة على الفناء ، فرأى الست صبرية وهى تتحدث الى الشاب فظنها تلك ـ المرأة ـ التى تعيش فى حياة الشاب • فأشار الى الطلاب جميعا وعندما عاد امام مختالا كالطاووس يقطع فناء المدرسة يتيه عجبا بألوان ثيابه انفجر الطلاب فى قلب الفصل يضحكون ضحكات عالية •

وما أن قال الطالب هذا ، وفرغ من نكتته ، حتى ضج الفصل جميعا بالضحك المدوى والقهقهة العالية ، حتى الاستاذ واحد فقط هو الذى لم يضحك • هذا هو امام الذى ظل يتصبب عرقا وخزيا فى مكانه لايتحرك • الى أن انتهت الحصة وانتهى الدرس • واليوم أيضا ، وراح يسير فى الطريق ساهما واجما مطأطىء الرأس ينظر الى الارض التى يسير عليها وكأنه يبحث عن شيء عند قدميه •

وظل يسير مغمض العين لا يفتحها الا على اضطراب شديد ، فكلما سمع أحدا يضحك فى الطريق ، يظن أنه يضحك منه ويسخر به كما ضحك الطلبة وسخروا هذا اليوم • وكما ضحك الاستاذ أيضا حتى كاد يستلقى هو الآخر • ولكن لماذا كانوا يضحكون جميعا هكذا ؟ أ لانهم جميعا كانوا يعرفون ؟ اذن هم جميعا يعرفون أن هناك امرأة فى حياته •• امرأة تنفق عليه • وأن هذه الثياب الانيقة التى يرتديها ، وهذه الحياة الرغدة التى يعيشها ، انما هى من صنع امرأة ـ امرأة •• ب • وأغمض عينيه وثقلت قدمه على الارض حتى غدا لا يستطيع أن ينقلها الا بجهد ••• وهل الطلاب والاساتذة هم الذين يعرفون ؟؟• والحارة •• والزقاق •• ونظرات النسوة التى كانت توجه اليه • وأطفال الزقاق الذين كانوا يتفرجون عليه عندما انقلب أفنديا • وكانوا ينادونه أحيانا بيا « خواجه » والاستاذ حسبو الذى كلما رآه مقبلا ، أو مدبرا • أغمض عينه عنه وأخرج الزجاجة من جيبه وأفرغ فى جوفه جرعات • ماذا يقول عنه هؤلاء جميعا • بل وماذا قالت عنه الست صبرية عندما التقى بها هذا اللقاء العابر الفاتر ورأته هكذا كالطاووس يختال مصفف الشعر مزركش الثياب التى اختلفت الوانها • ماذا قالت عنه • وماذا قالت لسلوى عنه وسلوى • سلوى •

وأغمض عينيه • وظل يسير الى أن بلغ الزقاق • وحانت منه التفاتة وهو يدلف الى الدهليز فرأى بهلول وهو يدور فى السيرجة مغمض العينين يجر خلفه ذلك الحجر الثقيل الضخم وكأنه يجر أثقال الحياة ومتاعب الدنيا • وراح يتأمله طويلا •• ولا يدرى الشاب لماذا كانت هذه الوقفة الطويلة ، وهذا

التأمل الطويل أيضا • ان هــذا ـ الحمار ـ يدور هكذا ليل نهار فى هذه الغرفة المسماة بالسيرجة • وهو مغمض العينين لكى لا يرى هذا الثقل الذى يجره لانه ان رآه ، ان رأى هذا الحجر الضخم فسوف لا يجره وسوف يمتنع عن الدوران • ولابد أن حميرا غيره رأت هذا الحجر الضخم فامتنعت عن جره • والا لما اخترع هــذا الغماء الذى يوضع على العينين فيجعل صاحبه يظن أنه يسير فى طريق سهل معبدة كما تسير بقية الحمير • ولعله من هذا الاختراع الذى روضت به الخيل والبغال والحمير • اخترعت تلك الاغطية التى توضع على عيون بعض النــاس لكى لا يروا تلك الاثقــال التى يجرونها خلفهم ، والا كانوا امتنعوا هم أيضا كما امتنعت البغال والحمير • ولكن هل يقدر هذا الحمار على أن يقضى العمر هكذا يجر هذا الحجر الثقيل • وحانت منه التفاتة الى ركن من أركان السيرجة فرأى كميــة وافرة من شعير الحنطة والفول والكسب أعدت لطعام الحمار • أنهم يطعمونه بكثرة ، ويغدقون عليــه كل هــذه الخيرات لكى تكون له القــدرة على الدوران • اذن هــو يطعم ويشرب ، ويعنى به لا لشىء الا لكى تكون له المقدرة على أن يجر خلفه هذا الحجر الكبير •

ومــد الشــاب يده وفتح باب غرفته فطالعته على الطاولة الكبيرة أشياء فوقها غطاء أبيض نظيف ، فمد يده وكشف عنها الغطاء فاذا بها عدة ألوان متباينة من الطعام الشهى أعدته له شفاعات التى اضطرت للخروج قبل أن يجىء •

ونظر الشــاب الى ألوان الطعام المتعددة ، وتأمل أوراك الدجاج وشرائح اللحم ، وراح يتفرس فى هذا كله ويتأمله • وكلما نقل عينيه من صنف [illegible] اليه مرة أخرى وراح يتفرس فيه ويتأمله • ثم بعد أن استوعبه جيدا تمتم وهو يدير وجهه بعيدا عنه :

ــ تماما • نفس الشىء • • الشعير • • والحنطة • • والفول • • والكسب • •

وجلس الشاب على المقعد ـ بين السرير والمائدة ـ جلس صامتا واضعا يديه على خديه دون أن ينبس أو حتى يتنفس ، أشبه ما يكون بآلة صماء • وجلس كذلك طويلا جدا الى أن سمع نقرا على الباب • فأعترته رجفة ، هزت كيانه كله ، كتلك الرجفة التي هزت كيانه ، عندما دوى ضحك الطلبة فى الفصل وقبل أن ينطق ، أو يقول شيئا • رأى أمامه الاستاذ حسبو يتمايل بزجاجتين فى يده ، احداهما فارغة • وهو يضــحك ضحكا متصــلا • وقد وضع طربوشه فوق أرنبة أنفه التى برزت عظمتها ، كما تبرز قطعة الحديد الصــدئة من الارض •

وترك صديريته مفتوحة على قميصه البالى الممزق • وعظام صدره البارزة منه • ووقف أمامه أشبه ما يكون بمسخ فى سيرك • يريد أن يلعب شيئا يضحك به الناس • ونظر اليه الشاب ، ونهض مادا يده اليه ليصافحه ، ولكن حسبو لم يلتفت اليه ، ولم يصافحه وانما نظر الى المائدة الحافلة بالطعام الشهى وهو يضحك ويقول مغرقا فى الضحك :

ـ كل •• لماذا لا تأكل •

فصمت الشاب ولم يجب • فصاح حسبو ضاحكا وهو يمد يده الى صدر حمامة محشوة • ويشير الى الزجاجة التى فى يده :

ـ كما أن هذا (الغاز الوسخ) لا غناء لى عنه لكى أنقل قدمى • فكذلك هذا الحمام ، لا غناء لك عنه لكى تستذكر دروسك جيدا •

فاطرق الشاب مغمض العينين وكأنه يغمضهما على نار تتلظى وظل كذلك الى أن قال حسبو ضاحكا فى ابتهاج وهو يجلس الى الحائط •

ـ أعرف أننى استضفتك يوما على نصف رطل من السمك المقلو • ولكنى لم أعرف بأنك هكذا سريعا ستردها لى حماما ، ولحما طازجا له هذه الرائحة الزكية •

فلم يجب الشاب أيضا وظل فى اطراقته مغمض العينين ، الى أن قال حسبو وهو يأكل :

ـ منذ أيام ، وأسابيع • لم أرك الا أمس •• فأين كنت ؟

فاضطرب الشاب وارتبك ارتباكا شديدا • وقال وهو يرفع اليه طرفه المخضل :

ـ المدرسة • والدروس • والمذاكرة •

فقال حسبو بعد أن ابتلع شيئا كان فى فمه وهو يضحك :

ـ أعرف أنها أشياء متعبة ، متعبة جدا •• أنا أيضا ذقت الامرين من هذه المذاكرة •

فادرك الشاب ما تنطوى عليه عباراته من تهكم لاذع وقال :

ـ وغير ذلك • فقد اشتقت الى أمى ، فذهبت لزيارتها فى القرية •

فقال حسبو وهو يحشو ثغره بشىء :

ـ وكيف صحتها •

ـ بخير ••

ـ لعلها شفيت من المرض الذى حدثتنى عنه •

ـ الحمد لله •

فضحك حسبو مرة أخرى وقال :

ــ كيف حال القرية ومن فيها ٠
ــ كلهم بخير ٠ الحمد لله ٠
وكان حسبو قد فرغ من طعامه ٠ ومسح أصابعه بورقة كانت أمامه ٠ ثم قال وهو ينظف تلك الاصابع فى أطراف ثيابه الرثة ٠ ويخرج من بين ثنايا هذه الثياب ٠ رسالة ناولها له ٠

ــ هذه رسالة من أمك اليك ٠ تقول لك فيها أنها تشرف على الموت ، وأنها أرسلت اليك عدة رسائل فلم ترد عليها بواحدة ٠

فارتعشت يده وجحظت عيناه وهو يتناول منه الرسالة وما أن قراها حتى انكفأ على حافة السرير الذى يجلس بجانبه وانفجر باكيا ٠ وراح حسبو ينظر اليه وهو يبكى فيضحك حينا ويبتسم حينا آخر ، وكلما أمعن الشاب فى بكائه ونحيبه٠ أمعن حسبو فى ضحكة وابتسامة ٠ وظل كذلك الى أن قال له وهو يفرغ شيئا من الزجاجة فى جوفه :

ــ لاتبك ، نفس الشيء الذى الهاك عن أمك ، هو نفسه الذى ألهانى عن أولادى ٠

فعقدت الدهشة لسان الشاب ، وهو ينظر اليه ويقول :
ــ ألك أولاد ؟

فاستلقى الاستاذ حسبو ضاحكا ٠ وظل يضحك بصوت عال ، ولما فرغ من ضحكه وأراد أن يقول شيئا ، اغرورقت عيناه فجاة وانفرطت منها الدموع بغزارة وسالت على وجهه المغضن ولحيته المغبرة ٠ وكانت أول مرة يرى فيها الشاب الاستاذ حسبو يبكى ، فانتقل الى جواره ٠ وقال له وكأنه لا يصدق ما يرى :

ــ أتبكى ٠

فمسح الاستاذ حسبو على شفتيه المبللتين ونظر الى الشاب بعينيه المنغمستين فى الدم وقال :
ــ اننى أشفق عليك يابنى ٠
فأطرق الشاب الى الارض وهو يتمتم بصوت خفيض :
ــ أعرف ٠ أعرف كل ما تريد أن تقول ٠
ــ لا ٠ لا ٠ أنت لا تعرف شيئا ٠
فأشاح الشاب عنه مزورا ، وأدار له كتفه وهو يقول وينظر الى الارض :
ــ قلت لك أعرف أكثر مما ستقول ٠
فابتسم حسبو وهو يخرج شيئا من جيبه ويريه للشاب

وهو يربت على كتفه فى حنان كحنان الاب تماما :
ـ أتعرف صاحب هذه الصورة ٠
فتأمل الشاب صورة جميلة لرجل وقور وسيم مكتمل الرجولة يزين صدره وشاح أحمر يتوسطه هلال ذهبى وثلاثة نجوم لامعة ٠ تماما كذلك الوشاح الذى يزين صدر القاضى وهو جالس فى كرسى القضاء ٠ تأمل الشاب الصورة طويلا ٠ ثم قال وهو مازال ينظر اليها :
ـ صورة من هذه ؟
ـ ألم أقل لك أنك لا تعرف شيئا ٠
ثم نظر حسبو الى الصورة وابتسم وهو يتناول الزجاجة ويفرغ منها شيئا فى جوفه ، ويقول :
ـ هل لو قلت لك أنها صورتى ستصدق ؟
ففغر الشاب فاه وقال فيما يشبه الذهول :
ـ صورتك أنت ٠
فقال حسبو وهو يضحك ويعيد الصورة الى جيبه :
ـ وغدا أيضا سترى الناس صورتك فلا تصدق ٠
ـ أكنت قاضيا ٠؟
ـ كاتب أول محكمة « ٠٠٠٠ » ٠
ـ وما الذى حدث ؟
ـ نفس الذى حدث لك ٠٠ امرأة ٠
ـ امرأة !
ـامرأة لا نظير لها بين النساء ٠
ـ من هى ؟
ـ كانت لها قضية ، وكانت تتردد على فى المحكمة ، فحدث أن انتهت قضيتها ، وبدأت قضيتى أنا ٠
ـ أى قضية ؟
ـ قضية الحب ٠
ـ أحببتها !
ـ وما زلت ٠
فقال الشاب وهو ما زال ينظر اليه فاغرا فاه :
ـ قل ٠٠ كيف حدث هذا ٠
ـ نفس الذى يحدث فى قضايا النساء جميعا ٠
ـ أحيلت الاوراق الى المفتى ٠ فاعدمت أنا وبرئت هى ٠
ونظر الى حسبو ، فلم يدهش وانما أغمض عينيه حينا فقد أحس ان تلك الضحكات المدوية من حوله فى الفصل تغرس فى قلبه ٠ وظل كذلك الى أن استعاد قواه وفتح عينيه وتذكر الحديث فقال :
ـ وما زالت هى تعيش ٠

ـ وتبحث عن آخر لتتقدم [illegible]
[illegible] ويضحك :
[illegible]
فقال الشاب [illegible]
ـ أنا لا أفهم شيئا مما تقول.

فقال حسبو وهو ما يزال يضحك :

ـ والله ولا أنا .

فقال الشاب على الفور [illegible]

ـ ما هذا الذي تقول . انك تهذي [illegible] كيف أفقدتك تلك المرأة حياتك . أين وظيفتك ؟ وأين أولادك ؟ وأين أسرتك ؟

ثم نظر الى لحيته الملوثة . وثيابه الرثة [illegible] قدميه التي برزت [illegible] جوانبه . [illegible] وقال :

ـ ثم أين أنت ..

فقال حسبو بصوت كأنه يبعث من قبر

ألم أقل لك بأنه مات .

فامسك الشاب بكتفي حسبو [illegible] وهو يصرخ في وجهه :

[illegible] أنا أيضا .

فقال حسبو وهو يضحك :

ـ اطمئن . اطمئن جدا . سوف لا تموت [illegible] ان يموت شبابك أولا .

ثم قهقه وهو [illegible]

ـ أما طالما لك هذا الشباب [illegible] الذي ينبثق من عينيك . [illegible] ترتديه .. [illegible] التي تعينك على السير الى [illegible] الطريق [illegible]

فقال الشاب وهو يكاد يبكى :

ـ أنا لا أفهم حرفا مما تقول . ولا أعرف شيئا من هذه [illegible]

فاغمض حسبو عينيه حينا . ثم عاد ففتحهما على شيء من الدموع وكأنه يخاطب شخصا آخر لا وجود له :

— وأنا كذلك كنت مثلك أجهل أشياء كثيرة . ولا أعرف شيئا عن حقائق كثيرة ، مثلا كنت أجهل أن للرجل شبابا واحدا . أما المرأة فلها شبابان [illegible] من سوء حظ الرجل الذي في سنها أن [illegible] في الليلة التي يولد فيها [illegible]

[illegible]

الجواد الجامح الذى لا يصده أو يكبح جماحه الا (أجير) قوي [illegible]

[illegible]

— لا تتكلم قلت لك أنى كنت مثلك أجهل أشياء كثيرة [illegible] ولا أعرف أيضا أشياء كثيرة [illegible]

[illegible]

وسائل [illegible]

هي قضيتها : [illegible]

وعاد فأغمض عينيه واطبق شفتيه وظل كذلك [illegible] قال الشاب :

كيف خسرت حياتك .. قل .. تكلم .

فقال وهو مغمض العينين :

— سقطت [illegible] ميكروبها الا في الدم .. في القلب [illegible] في الرئة .

— أى مرض هذا ؟

.. [illegible]

. [illegible]

العادة • وأول المطر قطرة كمـا يقولون • استلفت من كل الناس حتى من عم أحمد فراش المحكمة • حتى من القاضى • كل واحد كنت أروى له رواية تختلف عن الاخرى • مـرة زوجتى فى المستشفى •• ومـرة ابنى مريض •• وأخـرى مصاريف المدارس • ومع ذلك لم أشف • وعجـزت عن الاثنين •• عجزت عن الشـفاء ، وعجزت عن سـداد الدين • وكان لا بد ••

وزم على شفتيه فجأة وأغمض عينيه سريعا كمن يستشعر ألما •• وظل لحظات وكأنه يتوجع الى أن تمتم بصوته الذى يشبه الانين :

ـ كان لابد أن أمد يدى الى شىء آخر •

فمددتها الى نفسى هذه المرة •• الى حياتى •• الى مستقبلى •• مددتها الى الخزانة •• زورت أختاما •• وزورت شيكات • ورسوم قضايا • ومرتبات موظفين • ١٥ ألف جنيه صرفتها على هذا الداء الخبيث • هذا السرطان الذى فى الدم •

وكان الشاب قد استعاد بعض قواه •• فقال له :

ـ بتقول كم ؟

ـ ١٥ ألف جنيه •

ـ وبعد •

ـ ١٥ سنة سجن •

فاضطربت أنفاس الشاب وهو ينظر اليه ذاهلا :

ـ انت سجنت ١٥ سنة •

ـ من يناير سنة ١٩٠٧ الى يناير ١٩٢٢ •

ـ وبيتك • وزوجتك • وأولادك •

ـ كانوا أطفالا • لا يزيد عمر كبيرهم عن أربع سنوات •• فلما كبروا ، وسألوا عن أبيهم •• قالت لهم أمهم أنه مات • وحسنا فعلت • وقبل أن أخرج بسنتين ماتت هى •• ولمـا خرجت وعرفت أنهم كبروا • وفيهم من تزوج • وأنهم سعداء •• بعدت عنهم • كان لابد لى أن أفعل ذلك • كنت لا أستطيع أن أخرج عليهم من السجن • وعصر المعجزات انتهى فلا أستطيع أن أخرج عليهم من القبر •

ـ وهل تعرفهم الآن •

وهل تجهل العين نورها ٠
ـ وكيف تراهم ٠
ـ عرفت أنهم فى كل عيد يذهبون الى ـ القرافة ـ ويقرأون الفاتحة على روح أبيهم ٠ فأذهب أنا الى هناك وأقف من بعيد أنظر اليهم وأقرأ معهم الفاتحة على روحه ٠
قال ذلك وهو يضع يده على كتف الشاب مبتسما يربت عليها وهو يقول ضاحكا :
ـ ألم أقل لك بأنه مات ٠
فنظر اليه الشاب طويلا ٠ ثم قال دون أن يدرك شيئا :
ـ وهل ما زلت تحبها ٠
ـ لانني ما زلت مريضا ٠
فتأثر الشاب الى حد كبير ٠ وقال وهو ينظر اليه :
ـ وهل ما زلت تراها ٠
ـ كلما رأيتك ٠
فاندهش الشاب وقال :
ـ كلما رأيتنى أنا ! ٠٠
ـ أقصد كلما رأيت شبابك الفتى ٠ وحيويتك الجارفة ٠ وزيك الوسيم ٠ أنسيت أننى قلت لك كيف يخلق الرجل بشباب واحد ٠ والمرأة بشبابين ؟
فقال الشاب :
ـ تقصد أنها عرفت رجلا غيرك ٠
فقال حسبو ضاحكا وهو يمسح على شفتيه :
ـ وغدا ٠ شفاعات ستعرف رجلا غيرك ٠
ـ عم حسبو ٠
نطقها الشاب فى ذعر لاحد له ٠٠ وفجأة انفجر باكيا ٠ فنظر اليه حسبو وهو منكفىء على الحشية ، وتركه حينا يبكى ويولول كطفل ٠ ثم اقترب منه ٠ وخلص من بين ذراعيه وجهه المبلل بالدمع ، ونظر اليه وقال فى حنان جم ٠٠ وأشفاق كبير :
أتتوجع من شىء :
ـ لا ٠٠ لا ٠٠
ـ هل أصابك المرض الذى أصابنى ٠٠

فانتفض الشاب مرتعشا وهو يقول :

ـ لا .. لا ..

ـ هل أنت تحبها ؟

ـ أنا أكرهها .. أكرهها ..

ـ يالك من محظوظ .. وماذا تنتظر اذن ؟

ـ لا أعرف ماذا اعمل .. قل أنت .. ارشدنى .

فصرخ الرجل فى هياج شديد :

ـ اهرب . انج بنفسك .. قبل أن تصبح حسبو آخر . انظر .. أنظر الى هذا المسخ الذى أمامك . هذا الجسد الهزيل وهذا الوجه الذى شوهه الزمن .. أنظر الى هذه الثياب البالية .. هذه الخرق الممزقة هذا الحذاء التى اختلفت الوانه . أنظر .. أنظر .. أيضا .

ومد أطراف الخشـــنة الى القميص الذى يرتديه ومزقه فى عنف وهو يصرخ :

ـ أنظر الى هذا الجسد الذى مات . هذه العظام التى برزت أتريد أن تكون كذلك . أتريد أن تصفع فى الليل ويبصق على وجهك فى النهار . أتريد أن تبحث عن اللقمة فلا تجدها الا تحت أرجل الدواب . أتريد أن تكون خادما للبهلول .

فصرخ الشباب . صراخ من تمزق جسده السياط التى تنهال عليه :

ـ لا .. لا أريد أن أكـــون كذلك .. لا أريد أن أكـــون كذلك .

ـ اذن اهرب . انج بنفسك .

ـ واين اذهب .

ـ الى الشارع . الى الرصيف . تسول فى الطرقات . مد يدك للسؤال . الق بنفسك تحت عجلات الترام . كل ذلك خير من المصير الذى ينتظرك .

فابتلع الشباب دموعه وهو يقول :

ـ سأفعل ذلك . أجل سأفعل ذلك .

ـ والآن .. فى هذه اللحظة . وقبل أن تجىء انها ان جاءت ووجدتك فلن تتركك تفلت من يدها .

ثم ابتلع حسبو انفاسه وهو ينهض من مكانه ويستطرد :

ـ قم .. انهض .. [illegible] انج بنفسك .. بحياتك .
بدنياك .. بما بقى من شبابك ..
[illegible] عينيه [illegible] بالدموع .. ونظر الى المسخ
[illegible] صدره وينتفض كالقربة
[illegible] اد الحديد تماما .. ثم
[illegible] ينظر الى اشياء أخرى فى
[illegible] أن حسبو سبقه هامسا
[illegible] الباب [illegible]
[illegible]
[illegible] أكون فعلا [illegible]
[illegible] الغرفة [illegible]
[illegible]
فقط انج انت .
[illegible]
بوجهه على يد الاستاذ حسبو يقبلها [illegible]
[illegible]
[illegible]
فى الليل . حتى مد حسبو [illegible]
[illegible]
وترديد هذا الغناء فى الليل : [illegible]

أنا رحت [illegible]
[illegible]
من اللى رمـــاك على الهـــوى يا [illegible]
[illegible]
عشـــق الصبايا بحـــره ماله قرار .
فى أوله فرحة وفى آخره عذاب ومرار

الفصـــل العشرون

فى مســـجد سيدنا الحسين ، وفى ركن قصى من أركان المسجد الكبـــير جلس ثلاثة عند القبلة ، وبجوار المنبر يتحدثون حـديثا هاما . كان أحدهم جالسا القرفصاء أمام شيخ عجوز تغطى رأسه عمامة خضراء كبـيرة ، وتعبث أنامله من حين الى آخـــر بحبات عـــدة مسابح طويلة ملتفـــة حول صدره كالاوســـمة والنياشين . وجلس الثانى بجواره يصغى الى الحديث بانتبـاه وكلما اضطرب الذى يتحدث أو تقطع حديثه أو تلعثم وهويريد أن يقص أشياء يمنعه حياؤه أن يذكرها ، نظر اليه الثانى نظرات مشجعة وهو يقول له :

ــ قل .. قل لسيدنا الشيخ كل شىء . لقد جئت بك اليه لعله يكون شفيعك عند الله .

فيواصل الشـــاب حديثه المضطرب المتقطع الى أن انتهى من الحديث وقال كل شىء . فنظر اليه الشـــيخ وقال وهو يتأمل وجهه الشاحب وعينيه المحمرتين :

ــ المهم فى هذا كله .. هل تركت أيضـــا مع ما تركت من أشياء غالية . دروسك أم لا ؟

فقال الشاب وهو يتميز غيظا :

ــ ان لم تتخل عنى عناية الله ، فانى أقول لا .

فقال الشيخ :

ــ اذن اذهب الى فتاتك وانت مطمئن ، فهى لن يعنيها سوى مستقبلك .

فقال الشاب :

ــ وهل ستحسن لقائى اذا ذهبت اليها .

فقال الشيخ :

ــ من رحمـــة الله يا بنى ان القلوب الطاهرة تلتصق بهـــا الرحمة وتنطبع عليها المغفرة ، كما يلتصق القلب بالجـــوانح ويصبح جزءا منها . وتصبح هى جزءا منه .

ثم أغمض الشيخ عينيه وتمتم بصوت شجي : « الا من تاب وآمن وعمل عملا صـــالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات • وكان الله غفورا رحيما » •

ثم فتح الشيخ عينيه ونظر الى الشاب ، ومد يده الى رأســه ومسح عليها وهو يقول :

ـ اذهب اليها •• فليس أحب اليها من عودتك •• وسوف تجدها ان شاء الله من الصابرين •

فانحنى الشاب على يد الشيخ وقبلها ثلاثا ثم انصرف • وعند باب المسجد ودعه محمدين على أن ينتظره فى اللوكاندة ، وسوف يعد له غرفةمناسبة يبيت فيها الى أن يبحث له عن سكن جديد •

وفى الطريق أحس الشاب أنه ألقى عن كاهله عبئا ثقيـــلا بعد هذا الحديث القصير الذى دار بينه وبين الشيخ • كما أحس الشاب وهو يسير فى الطـريق أنه الآن غيره بعد أن خرج من المسجد • فقد أحس أنه ألقى هنـاك بآثامه وأوزاره جميعا • وأنه الآن كما كان قبل تلك الايام السود يفيض قلبه بالايمان وانه الآن أن التقى بسلوى فسوف يلتقى بها خالصا لها مخلصا لها كما تريد هى له أن يكون ، وانها هى أيضا سوف تلقاه كذلك خالصة له مخلصة اليه • ولكن هل قلوب الناس جميعـا كما قال الشيخ تلتصق بها الرحمة وتنطبع بالغفران ، أم هى القلوب التى تحب فقط ؟ هل ستلقاه الست صبرية صـــافية القلب مخلصة الود كما كانت وكما يريد لها أن تكون ؟؟ وهل سيلقاه كذلك الاستاذ الشرنوبى أبو اسماعيل ، أم سينظر اليه نظرة من صنع الخير فى غير أهله •• نظرة من أراد أن يكـــون بك حفيا ولك وفيا وعليك عطوفا فكنت له منكرا لذلك كله أشد الانكار ؟ ان سلوى من حقها أن تصفح وتغفر لان بيدها الامـر •• لانها تحب •• والذى يحب له قلب •• عرف الحسنة وتناسى السيئة •• اذن هو الى حد كبير جدا يؤمل الخير فى سلوى أكثر ممـــا يؤمله فى شـخص آخر •• أكثر مما يؤمله فى الســت صبرية ، وان كانت أمها •• وفى الاستاذ الشرنوبى ، وان كان والدها • اذن من الاصوب ان يلتقى بسلوى أولا وقبل كل شىء •• ولكن كيف يلقاها وماذا ســيقول لها ! أيقول لها كل الذى قاله للشيخ ؟ •• انه لايستطيع •• يقول لها ماذا ؟ ••

وأخرج منديلا من جيبه وجفف بعض الدموع ومن ثم أخــذ

يروح ويجيء وهو ينظر من بعيد الى مبنى كبير يلتف به ســور ضخم .. وينتظر خروج التلميذات من المدرسة [illegible]
ومن بينهن سلوى . انها كالعهد بها لم يتغير فيها شيء .. [illegible] طاهرة
كالملائكة .. صافية كالنور .. رقيقة كالزهر [illegible]
تلك الاشراقة التي كانت تنير ذلك الوجه [illegible] الابتسامة
التي كانت تتألق على الثغر صـــفاء كطلعة الصبح [illegible]
النظرة التي كانت رقيقة كالورود .. حلوة كالدنيا [illegible] راحـــة
كأيام الطفولة ؟ وما بالهـــا هكذا [illegible]
الارض ما بال هذا الوجه الجميل [illegible] اللون [illegible] ؟
ما بال ذراعها هكذا [illegible] تكاد [illegible] تحمل [illegible] الا
بجهد ؟ أكانت مريضة [illegible] انها كانت [illegible]
[illegible] ووقفت بقية [illegible] التي [illegible] على [illegible]
ولم يستطع [illegible] يستطيع ان ينادها
[illegible] لا يستطيع ان يتكلم [illegible] لا يستطيع ان يقول لها
شيئا [illegible] حرفا واحدا من الحقيقة [illegible] لا يستطيع
وادار ظهره سريعا وراح يسير ووجهه الى الارض [illegible]
جدا . لا يدري أهو يريد ان يسرع ليبتعد ، أم هو يريد أن يبطئ لتسبقه .. ولكن الذي يعرفه انه كان يسير على الرصيف وهو يود أن تنشق به الارض وتبتلعه حتى لا يراه أحد في الوجود كله .. بيد أنه فجأة سمع صوتا خافتا بجواره يناديه :

— [illegible] قف .. امام ..

فأدار وجهه وما ان التفت اليها ورأته حتى نطقت على الفور

— أتبكي ؟

فانهلت دموعــه بغزارة ، وانتابته رعشة مفاجئة ، وراح ينشج بصوت عال لفت نظر المارة جميعا وجعل الطالبات يلتففن حولهما .. وتسائل سلوى من هذا وما به . مما أحرج الفتاة وسبب لها ارتباكا شديدا .. ولم ينقذها من هذا الحـــرج الشديد الا مركبة كانت مارة .. فأشارت الى الحوذي وركبت وأركبته معها .. وفي داخل العربة راحت تسأله في لهفة عدة أسئلة سريعة : هل هو مريض ؟ هل أصيب بسوء ؟ هل مات له أحد ؟ ثم هل هو كان يمر الآن مصادفة أمام المدرسة .. أم انه كان ينتظرها ؟ .

وأحس الشاب بشيء [illegible] الا [illegible]

[illegible] على [illegible] المخبول [illegible] مثلا أين [illegible] كيان

طيلة تلك الشهور الماضية .. وما هو الذى شغله عنها [illegible]

كان اضطرب وارتبك وتضاعفت آلامه ، وكذلك [illegible] أنه

[illegible] أحسن

لقاءه كما أحسنته الآن [illegible] الفتاة [illegible] شيء [illegible] الا [illegible]

كنها يسرى فى كيانها . شيء أشبه بقطرات [illegible] تمس

الزهور فى الخمائل ، لقد أشرق وجه الفتاة [illegible]

[illegible] ان [illegible] جلس

[illegible] اليه [illegible]

[illegible] تستطيع أن [illegible]

المنديل من يده وجففت له دموعه .. ثم قالت [illegible]

[illegible] .

وكان [illegible] الفتاة [illegible]

[illegible] عالية [illegible] المدينة [illegible]

[illegible] أن [illegible]

عليها فى نفسه [illegible]

ثم [illegible]

[illegible] ..

— المهم فى؟ [illegible]

هذا هو خير ما تقدمه الى [illegible] الطويل [illegible] بالقف

يالله .. ويا للقلوب [illegible] نفس قول الشيخ

.. انها نفس [illegible] الألفاظ والعبارات التى

نطق بها اليه . ان هذا الشيخ لنبى [illegible] اذن [illegible] لم

يكن هازلا عندما قال له [illegible] الشيخ المرشدى [illegible]

[illegible] اليه

الفتاة وأحست أنه يفكر فى غير ما قالته له .. فسألته [illegible]

تنظر اليه [illegible] تمسك بيده [illegible]

— فيم تفكر ؟ ..

— فى الشيخ المرشدى .

وقص عليها [illegible] الشيخ

المرشدى ونفس الالفاظ التى صدرت منه . فضحكت الفتاة

حتى كادت تستلقى وهى تقول :
ــ الى هذا الحد كنت تخشى أن تلقانى ؟
ــ لانني الى ما قبل هذه اللحظة كنت لا أعرف حقيقة هــذا القلب ..
ــ أى قلب .. ؟
ــ الذى تلتصق به الرحمة والمغفرة كما يلتصق هو بالجوانح فتصبح جزءا منه .. ويصبح جزءا منها .
ــ كلام من هذا ؟
ــ الشيخ المرشدي .
ــ وددت لو انه كلامك انت .. وددت لو ان ثقتــك فى الناس الذين يحبونك ويخلصون لك .. تظل دائما حتى ولو كانت تلك الشهور التى مضت سنين واحقابا .. حتى ولو كان فراقا الى الابد ..
ثم اختنق صوت الفتاة واحتبست الدموع فى عينيهــا وهى تقول وتجفف بعض النقاط التى انسابت خلسة من عينيها :
ــ شىء أحب أن أقوله لك .. شىء علمتنى أنت اياه وهــو أن الذكرى الطيبة يعيش عليها الانسان طــوال العمر . وان صفحات الخير فيها تظل بيضاء دائما ناصعة البياض .. وكلما أظلمت الحياة ، وعتمت الدنيا ، كان ذلك البياض هو النــور الــذى نهتدى به .. واظن أن ذكرياتنا كلها كانت طيبــة صفحاتها كلها خير .. فمم كان الخوف من اللقاء ؟ ..
فقال الشاب وهو ينظر الى الارض :
ــ أخافنى الخطأ الكبير الذى ارتكبته .
ــ أحيانا تكون الاخطاء التى نرتكبها بارادتنا .
فقال الشاب . مفجوعا :
ــ هل انت تعرفين شيئا من الحقيقة ؟
ــ كل الذى أعرفه ان سعادتى الآن بعودتك لا تعادلها سعادة فى الدنيا ..
قالت ذلك وقفزت من جواره ، كما يقفز العصفور تمــامــا وقالت وهى تجفف آخر دمعة :
ــ هيا بنا لنذهب الى البيت ..
ــ وبأى وجه ألقى أمك .. وماذا أقول لابيك ؟

ــ أبى على سفر ولو أنــه فى البيت الآن لما قلت ســـعادته برؤياك عن سعادة أمى بلقائك هذه الليلة ..

قالت ذلك ومدت يدها اليه فأنهضته .. وراح يسير بجوارها وهو غير مصدق لشيء من كل هذه السعادة التى يعيش فيها . وظل كذلك غير مصدق لشيء لا لنفسه ولا لوجـوده ولا لتلك الفرحة الكبيرة التى فرحتها الست صبرية برؤيته .. ولا لتلك الحفاوة البالغة التى استقبلته بها .. ولا لتلك الجلسة الممتعة التى قضاها مع سلوى وأمها .. ولا حتى لذلك الخطاب الطويل الذى كتبه مع سلوى لامه يستفسر عن صحتها ويعدها بأنــه سيزورها ، ويقضى معها اجازة الاسبوع القادم . انه لم يذكر شيئا من هذا كله الا بعد وقت طويل . بعـــد أن انصرف من البيت وذهب الى لوكاندة المدينة المنورة والتقى بمحمدين ويجلس معه يشربان الشاى ، ويتحدثان ، ويذكران الشيخ المرشـدى وقوله : « ان القلوب الطاهرة تلتصق بها الرحمة ، كما تلتصق هى بالجوانح ، فتصبح جزءا منه . ويصبح جزءا منها » .

الفصل الحادي والعشرون

[illegible]

وهنا على [illegible] تسقط [illegible] على
الكتف اليمنى لتظهر القرط الذهبى الكبير الذى صنعته على هيئة دائرة كبيرة وتركته يروح ويجىء على الكتف مع خصلة فاحمة من الشعر الناعم ، يداعبها النسيم فتميل حينا على الكتف وحينا تختلط بحبات الترتر وخرج النجف على الجبين

وتصادف وقت مرورها أن كان الاستاذ حسبو جالسا الى مكتبه ، على ناصية الزقاق • فلم تلتفت اليه ولم تعره اهتماما، وكل الذى صنعته أنها سألتهدون أن تنظر اليهودون أنتتوقف أيضا عن السير قائلة :

ـ كل شىء عال ؟ ••

ـ بأنفاسك يا ست •

ونهض سريعا وخلص ساقيه المتخاذلتين من تحت الترابيزة التى يجلس اليها ، وهم أن يلحق بها ، ولكنها كانت قدقطعت شوطا بعيدا ، فراح يسير خلفها متخاذلا يترنح من فرط الخمر وكلما كاد يسقط استند على الحائط • انه لم يرها فى يوم ما أجمل منها الآن ، ولا حتى فى أيام الشباب الاول • ولا حتى فى أيام الصبا •• أهكذا تستطيع النساء أن تستعيد شبابها بين يوموليلة • تستعيد فتنتها بينعشية وضحاها كماتستطيع

الشجرة أن تورق وتينع وتثمر وتنضج ثمارها وتتدلى على
الأغصان [illegible] وتنظر الى ساقيها العاريتين الجميلتين [illegible]
[illegible] التي تخرج [illegible] الذهب [illegible]
يقطر [illegible] ويسيل [illegible] الطحلب [illegible]
[illegible] تمسيل [illegible] الموسيقى
[illegible]
أيضا [illegible]
عندما [illegible]
تخرج [illegible] الذي [illegible] ثم [illegible]
الذهبي وتلك [illegible]
فتنام على الكتف العارية وحينا [illegible]
التي [illegible]
الملوث • وراح يضحك [illegible]
لتدخل • ويردد بذلك الصوت الاجش المبحوح الذي يشبه
تماما صوت خوار حيوان يموت :

يا [illegible]
يا [illegible]
يا [illegible]
يا [illegible]
يا [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
بالقدم [illegible]

• • • • • •

ووقف لحظات فى الدهليز لا يعـــرف أين يذهب [illegible]
ينظر الى النور الوهاج الـــذى [illegible] الغرفة
المعلمة • ذات الزجاج الذى اختلفت ألوانه [illegible]
عليها [illegible]
خارجة تعودت أن تغنيها فى ليالى [illegible]
[illegible] الأغنية .

وبعثت فى نفسه الكثير من الذكريات • وأحس بشىء يكاد يطبق على أنفاسه وهو فى الظلام فرفع الزجاجة الى ثغره وتجـــرع منها عدة جرعات • ثم عاد وتجرع غيرها أيضا • حتى كاد يأتى على ما فى الزجاجة كله • وحانت منـه التفاته فى الظلام فرأى بهلولا فى السيرجة مغمض العينين يجر خلفه ذلك الحجر الضخم •• فنظر اليه طويلا • ولا يدرى لماذا أراحته رؤية بهلول • ولا لماذا ذكرته بأشياء هامة كان قد نسيها تماما • فابتهج وتمتـم فى ابتسامة عريضة وهو يسحب نظراته من على بهلول ومن على الغماء الذى على عينيه والحجر الضخم الذى يجره خلفه :

ـ سوف تستريح أيها الشقى •

وقبل أن يتم كانت يده تدق دقات متواصلة على باب غرفـة المعلمة •• التى أجابت من الداخل بعد حين :

ـ من ؟

ـ حسبو •

ـ لا أريدك أن تثقل على الآن • أترك كل شىء الى الصباح •

فقال ضاحكا من خلف الباب :

ـ انها أشياء لا صباح لها يا ست •

فقالت صارخة من الداخل فى ضيق :

ـ اننى نزعت ثيابى •

ـ اننى أريد أن أحدثك عن بهلول •

ـ انطق •• تكلم •• ماذا تريد أن تقول •

فقال وهو يدقق بعينيه المحمرتين فى كل أنحاء جسدها الذى انتصب أمامـــه عاريا الا من قميص رقيـــق هفهـاف كأوراق الورد :

ـ انه حمار فعلا •

ـ من هو ••

فقال وهو يغرق فى الضحك :

ـ بهلول •• بهلول ••

فقالت مبتسمة تنظر اليه مشفقة اذ ظنته مخمورا لايفقه :

ـ وماذا كنت تظنه اذن •• ؟

ـ انسان • بنى آدم • له قلب يقدر الجميل •• وعين ترى الجمال •

ــ من تقصد ؟

ــ هذا الحمار الذى كان يقطن هذه الغرفة ٠

فقالت شاهقة وهى تحس بقلبها يسقط بين جنبيها :

ــ امام آ

ــ قال لى أن اسمه الحقيقى بهلول ٠ واليوم سقط الغمــــاء الذى كان على عينيه ٠ ولما رأى ضخامة الحجر الثقيل الذى كان يجره خلفه ٠ خاف وفر هاربا ولن يعود ٠

وكما يقف التمثال صامتا صلبا متحجر الوجه ٠ وقفت هى لحظات تنظر الى حسبو الذى ظنته خيالا أو حلما ٠ ولما رأتــه يتحرك ويريد أن يسير تحرك الدم الذى يغلى فى كيانها وصــعد الى وجهها فيما يشبه لسعات النار فجحظت عيناها جحوظا مخيفا وتصلبت أصابع يديها وهى تطبق بها فى قسوة على عنق حسبو فى عنف ٠ وهى تقول شبه صارخة :

ــ تكلم ٠ أعد الذى قلته ثانية ٠

فقال حسبو ٠ وهو يحاول أن يجد لعنقه متنفسا بين أصابعها ليضحك :

ــ قال لى أن اسمه الحقيقى بهلول ٠ واليوم سقط الغماء الذى كان على عينيه ٠ ولما رأى ضخامة الحجر الثقيل الذى كان يجره خلفه ٠ خاف وفر هاربا ولن يعود ٠

فقالت وهى تضغط على عنقه بيديها لتكتم أنفاسه :

ــ وماذا قلت أنت له ؟

ــ قلت أننى مثلك ظللت أجر هذا الحجر سنوات ولكننى لم أهرب رغم أننى استبدلت ببهاليل كثيرة ٠ وقلت له أيضــــا ٠

بيد أنها فجأة دفعته دفعة قوية فسقط مترنحا على الارض ٠٠ وتركته وعادت سريعا الى غرفتها محمومة كاللبؤة التى تريد أن تفترس كل من أمامها ٠ وفتحت غرفة الشاب ونظرت اليهــــا ذاهلة ٠ ان كل شىء فيها كما هو لم يتغير ٠ لم ينقصها الا هو ، هو ٠٠

ونظر اليها حسبو وهى خارجة كاللبؤة المسعورة واغرق فى الضحك ٠ وظل يضحك وهو فى مكانه ملقى على الارض وظــل يضحك أيضا وهو يلقى بجسده الخائر على فراشه الخشن محتضنا الزجاجة التى تعود أن يحتضنها اذا أراد أن ينام ٠ وظل يضحك

حينا . ويحتضن الزجاجة حينا آخـــر . ويغمض عينيه مـرة
ويفتحهما مرة أخرى دون أن يدرى من أمره شيئا ولا من أمر
الليل الذى يمر به شيئا . وظل كذلك الى أن [illegible] على
دوى هائل [illegible] أى شىء الا باب غرفته الذى فتح فى عنف [illegible] على
مصراعيه ورأى تلك الاصابع المتصلبة القاسية التى تشبه مخالب
الهرة الغاضبة تنشبها فى صدره [illegible] تنظر اليه بعينيها
اللتين ما زالتا [illegible] الغريب المخيف [illegible] وهى تطرح فى
وجهه تلك الصرخات المتقطعة :
— قل أين ذهبت . بحثت عنه فى كل مكان فلم أجده [illegible] تكلم
[illegible] انطق أين أخفيته ؟؟؟ [illegible]
[illegible] وأنه لما زال يضحك ويغرق فى الضحك [illegible] بقدميها
[illegible] الى غرفتها ووقفت على الباب بين الغرفتين
ذاهلة [illegible] تنظر بعينيها [illegible] الى محتويات
غرفة الشاب ، وأثاثها الذى أنفقت فيه المبالغ [illegible] وملابسه الفاخرة
التى صنعتها له . والاحذية التى [illegible] والحلل الغالية
التى [illegible] والكرافتات ذات الالوان البراقة
الزاهية . والملابس الداخلية التى كلها من الحرير . كل [illegible]
[illegible] ومع ذلك يهرب منها [illegible] عيناها مرة أخرى
وتصلبت أصابع يديها [illegible] أظافرها فى هذا
كله ، وتلقى به وسط الغرفة لتمزقه [illegible] لم يبق شيئا فى
الغرفة ولا حتى [illegible] التى كانت فى غرفته .
تناولت المصباح الزجاجى من مكانه ، لتفرغ ما فيه من بترول
على كل هذا الذى تريد أن تحرقه [illegible]
المصباح الذى [illegible] على الرف [illegible] فظننته كتابا [illegible] التى
يجب أن تحرق [illegible] تلقى به فى النار
[illegible] صورة لفتاة فى الثالثة
عشرة [illegible] المدرسة التى [illegible] براءة وطهارة
[illegible] الكتب التى
تحملها فى يدها ..
ونظرت الى الصورة [illegible]
[illegible] المصباح ما زال مشتعلا فى غرفتها وتأملتها طويلا .. وحدقت
فيها النظر ذاهلة [illegible] فيها النظر [illegible]
[illegible] .

الصورة فى عينيها [illegible] حتى رأت الفتاة أمامها ، بجمالها الرائع وقوامها الرشيق ، ووجهها الذى يكـــاد [illegible] تشبه حمرة الشفق • وراحت تعيد النظر الى [illegible] •• وتدقق فيه من جديد بيد ان [illegible] تلك النظرات الزائغة التى تتدهور من عينيها [illegible] ، حانت منها الى مرآة البوريه [illegible] غريبة مذهلة • رأت وجها لم تكن [illegible] المســـاحيق التى عليه عدة خطوط سوداء [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] كانت تدقق فى وجه الفتاة منذ لحظة [illegible] وقارنت بين الوجهين [illegible] رأت وردتين احداهما تتضـــوع مسكا [illegible] الحمراء والبيضاء [illegible] وتتألق [illegible] الغصن [illegible] الوردة الثانية جافة ذابلة تساقطت أوراقها جميعا [illegible] كادت [illegible] ولم يبق [illegible] سوى تلك [illegible] [illegible] الوردتين [illegible] وقارنت بين [illegible] القمر وآخره [illegible] [illegible] الصورة [illegible] الارض [illegible] [illegible] [illegible] .. [illegible] وظلت كذلك زمنا لا تدرى أطال أم قصر [illegible] [illegible] أطال أم قصر • [illegible] انه لما رآها تتسلل من البيت مع الفجر وسألها أين ذاهبة [illegible] انفرطت الدموع من عينيها [illegible] توالت عن عينيه ..

الفصـــل الثاني والعشرون

ان الزوج الذى تخونه زوجته
ويعرف بخيانتها ويطلقها ، يكون
قد أراح ضميره . فلم يعد يهمه
بعد ذلك تقول الناس عليـــه ،
ولا نظراتهم اليه ، ولا ضحكاتهم
الخبيثة كلما مر بهم . ما دام هو فى قرارة نفسه قد اطمأن الى
شرفه الذى دافع عنه .

وكذلك تماما كان الشاب عندما عاد الى مدرسته صـــباح
السبت راضيا كل الرضى مطمئنا كل الاطمئنان . بعد أن فر
هاربا من يد الخطيئة . وطلق حياة الرذيلة طلاقا لا رجعة فيه
.. وأجتث جذور الدنس من أساسها فلم يعد لها فى حياتـه
أثر . ان شيئا ما لا يهمه الآن . لا تلك الضحكات الصـــفراء
التى كانت تأكل جسده أكلا . ولا تلك النظرات الخبيثة التى
كانت تخترم صدره وتنفذ الى القلب فتدميه . بل راح يشفق
على الذين ينظرون اليه ، ويضحكون منه ، ويسخرون بـــه .
لانهم جهلاء لا يعرفون . وظل كذلك الى أن إنتهى اليوم وخرج
من المدرسة مع الخارجين . بيد أنه لـــم يكد يخطو بعد الباب
خطوة واحدة على الرصيف ، حتى وقف شاخصا فى مكانـــه
ينظر بعينين زائغتين الى الارض التى تدور به حينا ، وحينـا
الى وجوه الطلبة الذين تزاحموا حوله بالضحكات التى يوجهونها
اليه والالفاظ الجارحة التى يصفونه بهـــا .. وحينا آخر الى
شفاعات الجالسة أمامه فى العـــربة الحنطور ثائرة متنمرة ،
مربدة السحنة ، مكفهرة الوجه . ترســـل عيناها الحمراوان
الجاحظتان بريقا كأنه اللهب ، وهى تأمره فى ابتسامة صفراء
أن يركب وتعالت ضـــحكات الطلبة مرة أخـرى ، وتهافتت
نظراتهم وتزاحمت داخل العربة . ووضحت ألفاظها الجارحة .
وبعد ان كانت تلميحا مستترا غدت تصريحا مكشوفا ومفضوحا
أيضا . وتقدم طالب قوى من الشباب ودفعه فى قوة الى قلب
العربة ، وهو يقول ضاحكا :

ـ اركب ..
وحين ركب الشاب وسارت به العربة قالت له :
ـ لماذا هربت منى ؟ ..
ـ .. ..
ـ فى أى بيت قضيت ليلة البارحة ؟
ـ .. ..
ـ أى امرأة من النساء أخذتك منى .. أهكذا يكون دخول الحمام سهلا كالخروج منه ؟
ـ .. ..
ـ أهكذا يكون جزائى منك .

لم يكن أمامها أحد حتى يرد عليها أو يجيب على هذه الاسئلة . ان الانسان الجالس بجوارها فى العربة انما شبه لها ، وانه انسان ميت تماما لا حياة ولا روح .. كأنه بجوارها جثةهامدة يتفصد منهاالعرق ويسيل قنوات علىالوجه الشاحب والعينين الذاهلتين . وظل كذلك وقتا طويلا جدا . ظل كذلك حتى بلغت بهما العربة نهاية الطريق ، وهبطت منها ، وجرته فى يدها صاعدة بهسلالم البسيل ، وتخترق به الحارة والزقاق حتى حسبو الـذى عندما رآه إضطرب وسقطت الزجاجة من يده ، وكما كانت تجره فى الطريق جرته وهى تدخله الغرفة وتلقى به على المقعد وتغلق الباب خلفها ..

وفتح الشاب عينيه ونظر فيما حوله ، ثم عاد فاغمضهما ثانية ، وظل كذلك الى أن تسربت الى أنفه رائحة كريهة تشبه العفن ، رائحة سوداء يعرفها جيدا ، لانه عاش فيها زمنا ، وأحس بها تنفذ الى أنفه وتتسرب الى خياشيمه وتطبق على انفاسه حتى لتكاد تزهق روحه ، فعاد وفتح عينيه ثانية ونظر الى المرأة المتنمرة المتحفزة الواقفة أمامه كالهول وقال :
ـ لماذا جئت بى ثانية الى هنا ؟
ـ جئت بك الى بيتك ..
ـ لم يكن لى بيت ، وانما لى ماخورة وتركتها .. هربت منها ، ولن أرجع اليها أبدا ..
ـ اذن ماقاله حسبو كان حقيقة ..
فقال الشاب وكأن قوى الارض جميعا تجمعت على شفتيه :

ـ أنا الذي يقول لك الحقيقة ..

ـ وما هي الحقيقة ؟ ..

ـ انني أبغضك .. أكرهك .. أحتقرك .. لن ترى وجهي بعد اليوم ..

فقالت ضاحكة في ثقة :

ـ هل هذا في يدك ؟ ..

[illegible]

ـ حقوقي التي عندك ، مالي الذي انفقته عليك [illegible] الذي أبحته لك ..

ـ كل ذلك دفعت ثمنه غاليا ..

ـ أي ثمن دفعت ؟ ..

ـ ديني الذي هجرته ، خلقي الذي فقدته ، شرفي الذي [illegible]

[illegible]

فقالت ضاحكة في غيظ [illegible]

ـ أهكذا قال لك حسنو ..

ـ لم يقل حسنو شيئا ، ولكن ثقي انني لن أكون حسنو [illegible] سأنصرف الآن [illegible] سأعود بالجمال الذي سينقل لي متاعي [illegible]

ثم نظر اليها والنار تندلع من عينيه وقال [illegible]

[illegible]

ـ [illegible] الخير الذي تظنين .. قلت [illegible]

قال ذلك ومد يده ليفتح الباب [illegible] ذراعه جذبة قوية [illegible]

ـ لقد كان كل أملي أن أجيء [illegible] تفلت من يدي ..

[illegible] ضحكة عالية [illegible]

ـ أتظن انني الى هذا الحد مجنونة ، أتظن انني بعد أن

أطعمتك وكسوتك وجعلت منك رجلا ، أدعك تفلت من يدى لتذهب الى تلك [illegible] تلك التلميذة التى تفضلها على ! ..

[illegible]

فمدت يدها في عصبية الى درج من الادراج [illegible] واخرجت أجزاء صورة ممزقة ، وقالت تصرخ في وجهه وهى [illegible] الصورة

— صورة هذه الفاجرة التى تخطف الرجال وهى بعد لم تشب عن الطوق

— اخرسى

وقبل أن يتم كانت ذراعه الثقيلة التى ارتفعت الى أعلى قد سقطت على رأسها في ضربة موجعة أسقطتها على الارض ، وهم أن يخرج بيد أنها زحفت سريعا على الارض ، وامسكت بقدميه ، وانهالت عليهما تقبلهما بدموعها المنسابة ، وشفاهها المرتعشة وهى تنتحب مولولة في صوت مختنق متقطع

— [illegible] أحبك ، [illegible] أحبك ، ثق أن لا غناء لى عنك ، ثق أن الموت أحب الى من فراقك .

ورأت مصادفة وهى تتمرغ عند قدميه أجزاء الصورة الممزقة على الارض ، فتعالى نحيبها وهى تقول بنفس الصوت المختنق المتقطع

— حقيقة اننى امرأة عجوز انحدر بى العمر ، انحدر بى [illegible] الشباب ، [illegible] وهى فتاة صغيرة .. شابة .. حقيقة لا ذنب لك فى هذا ، ولكن أنا أيضا لا ذنب لى فيما صنعته الايام ، حقيقة ان الايام انحدرت [illegible] وحقيقة اننى أصبحت امرأة عجوزا [illegible] ولكننى أحبك [illegible] فاشفق على عجوز تحب ..

قالت ذلك سريعا ، سريعا [illegible] عن كتمانه ، ثم نظرت اليه [illegible] كلمة قاسية موجعة ، ألقت بها فى ركن الغرفة ، فلم تصنع [illegible] من [illegible] الصورة [illegible] فى جيبه ويخرج ..

الفصل الثالث والعشرون

ذهب الشاب بعد خروجه من البيت الى مسجد سيدنا الحسين فصلى المغرب جماعة مع المصلين ثم ذهب الى لوكاندة المدينة المنورة ، وقص على محمدين كل ما حدث ، واتفق معه على ضرورة نقل متاعه الليلة من بيت هذه المرأة ، فذهب معه محمدين الى المنزل الجديد الذى استأجر له فيه سكنا ملائما ، وأعطى له مفتاحه ، ثم استأجر له عربة لينقل له متاعه كله دفعة واحدة ، وتركه وانصرف الى اللوكاندة ، فى حين ركب امام على العربة بجانب الحوذى الى أن بلغا الزقاق ، فأوقفا العربة أمام سلالم السبيل وانصرف امام الى المنزل ، فوجد المعلمة شفاعات واقفة على باب الزقاق مستندة بظهرها الى الخوخة وأمامها بعض العمال ، تصدر اليهم أمرها وترتب معهم شئون السيرجة ، كأن شيئا لم يحدث على الاطلاق ، وعندما رأت امام مقبلا ومعه الحوذى صرفت من معها سريعا ، وظلت هى فى مكانها الى أن اقترب امام من الباب وأراد أن يدخل دون أن يحييها أو حتى ينظر اليها ، فابتسمت ضاحكة وهى تمد يدها اليه لتصافحه قائلة :

ــ أظن الصباح رباح ، وكل تأخيرة وفيها خيرة ..

ــ فلم يرد عليها وحاول الدخول ، فاعترضته وقالت وهى مازالت تضحك :

ــ النهار له عيون ، والملائكة تغضب اذا أقلقتها فى الليل ألم تقل بأنك مسلم وحنبلى وتعرف الله جيدا ..

فغاظته منها هذه السخرية وقال فى صوت عال :

ــ لن يطلع على النهار وأنا فى هذا البيت كما قلت لك ..

فقالت وهى تضحك أيضا :

ــ أخفض صوتك ، الناس تسمعك ...

فقال :

ــ لو استدعى الامر أن أجمع سكان الحارة جميعا لفعلت ...

ــ أنا لا يهمنى الحارة ولا سكانها ، وانما الذى يهمنى أمك المريضة النائمة فى غرفتك ..

ــ أمى ؟! ..

نطقها الشاب فى دهشة لا حد لها دون أن يصدق أذنيه ، فقالت وهى تكتم فرحة فى القلب تريد أن تنبثق نورا من العين :

ــ جاءوا بها بعد أن خرجت مباشرة محمولة على عربة ،

لانها لا تقوى حتى على النطق ، ومعها رجل ضرير ، فأكرمتها ونظمت لها غرفتك بيدى .. وأنمتها بنفسى على السرير .. لا تنس أنها أمى أنا أيضا ..

فلم يسمع الشاب نهاية الحديث ، لانه كان قد اندفع الى الداخل ، وما أن فتح البـــاب ورأى أمه مسجاة على الفراش وبجوارها عم نوفل ، حتى ارتمى عليها يبكى ويقبل يديهـــا ويبلل شفتيها بدموعه ، ويسألها عما بها ، ولما أحست به ، وأفاقت من اغمائها بعض الشيء ، وجاهدت نفسها حتى فتحت عينيها قليلا ، ونظرت الى امام فلم تصدق ، ثم عادت ونظرت اليه ثانية وهو منكفيء على صدرها يبكى ، ولما عرفته جيدا تمتمت فى صوت لا يختلف كثيرا عن صـــوت ابنها الباكى وقالت :

ــ انت يا امام لبست أفندى فى مصر ..

ثم أغمضت عينيها وعادت الى اغماءتها الطويلة التى لازمتها منذ ثلاثة أيام كما قال له عم نوفل ، الذى راح يقص على امام قصة الشقاء الطويل الذى عاشت فيه الام فى أيامها الاخيرة ، بسببداء الكبد الذىكان يلازمها ، والذى حار فى أمرهالاسطى شلبى حلاق الصحة ، ولما استفحل بها الامر وساءت حالهـــا ذهبت الى حكيم المركز الذى قال بأنها مصابة بخراج فىالكبد ولابد من ذهابها الى مصر لاجراء عملية لانه من غـير المتيسر اجراؤها عنــدنا فى الريف ، فجئت بها الى مســتشفى القصر العينى ، لاننى لم أستطع أن أذهب بها الى مســتشفى خاص لضيق ذات اليد ، ولكنهم هناكاهملونا ، وقالوا لنا عودوا بعد ثلاثة أيام لعدم وجود أسرة خالية ، وحالتهـــا كما قال حكيم المركز وعمك الاسطى شلبى ، تستدعىعملية عاجلة والا ماتت فى الحال ، ولما خشيت أن تموت منى فى الطريق ، ســـألت أولاد الحلال عن عنوانك فدلونى عليه ، فجئت بها الى هنا ، وأنا كما ترى رجل ضرير لا حـــول لى ولا قوة ، وليس فى استطاعتى أن أفعل أكثر مما فعلت ..

وأنهى الشيخ نوفل حديثه ببعض الدموع التى تفجرت من بين أهداب عينيه المقفلتين ، فقال الشاب وهو يتميز حـزنا وألمـــا :

ــ وتحتاج هذه العملية الى نفقات كثيرة؟ ..

فقال عم نوفل وهو يمد أصبعه الى احدى عينيه المقفلتـين ويمسح بعض الدموع :

ــ يقولون يا ابنى أشياء خيالية ، يقولون انهم يطلبــون

[illegible] ، انهم يا بني لا يفقهون شيئا لا انهم لو [illegible]
المريض نفسه لما وجدوه يساوى هذا الثمن الذى يطلبونه
لشفائه . انهم يا بني لا يفقهون شيئا ، لا يفقهون شيئا .
قالها الرجل فى غيظ وحزن شديدين ، ثم سكت عن
الكلام ومرت لحظات صمت طويلة كانت ستزداد طولا
لولا أن صوت [illegible] يقول [illegible]
أين الطبيب الذى [illegible] ؟ [illegible]
[illegible] فخرج [illegible]
[illegible] الى الغرفة [illegible]
[illegible] النطق [illegible] التى [illegible]
وجوه الاموات تماما ، ثم غادر الغرفة لا يلوى على شىء ، [illegible]
على باب الزقاق فى الظلام [illegible] ؟
[illegible] الليلة [illegible] لقد
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] ، ربما [illegible]
[illegible] الى [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] الى [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
وانهلت الدموع من [illegible]
[illegible] الحس
[illegible]
يقل شيئا وسار كالسائمة خلف تلك اليد التى تجره [illegible]
ادخلته المعلمة [illegible] طرف
[illegible]
تقول : [illegible]
[illegible] —
— انها فى حاجة الى اجراء عملية سريعة والا ماتت ..

ـ تجرى لها العملية حالا ..

فأطبق في غيظ على شفته السفلى حتى كاد يقطعها وهو يقول :

انهم يطلبون خمسين جنيها ، خمسين جنيها :

ـ ليطلبوا ما يريدون ، خذ كل الذى تريده ، وأعطهم كل الذى يطلبون ..

فنظر الشاب اليها فاغرا فاه وهو يتمتم :

ـ ماذا تقولين ؟

ـ أقول اننى ومالى كله ملك لك ؟! أظنك لا تصدق ..!

ثم مدت يدها الى منديل فى صدرها وأخرجته فاذا به يضم عشرات من أوراق النقد الكبيرة أخرجت من بينها خمس ورقات ثم أضافت اليها ورقة سادسة قدمتها اليه :

ـ وهذه عشرة جنيهات أخرى لما قد تحتاج اليه انت من نفقات [illegible]

فلم يصدق الشاب شيئا مما يرى ولا مما يسمع ، ولكنه فتح عينيه جيدا ورأى نقودا حقيقية ، وانه فى حقيقة وليس فى حلم [illegible] عليها بدموعه المنسابة :

[illegible]

فصمتت [illegible] الارض :

ـ انك ولا شك تعرف جيـدا العلاقة التى بيننا وكيف أن هذه العلاقة امتدت الى سكان الحارة والزقاق جميعا حتى راحوا يتقولون علينا السوء ، وتعرف جيدا أيضا .. أنك لى ، وانى لك ، وأن لا غناء لاحدنا عن الآخر .. وما دام الامـــر كذلك ، فلماذا لا نخرس تلك الالسنة وبدل أن يكون هذا الذى بيننا سرا وفى الظلام ، يكون علانية وفى النور ، وبدل أن يكون أمامنا فقط .. يكون أيضا أمام الناس ، وبدل أن نغضب الله نرضيه ، ويكون ذلك سريعا ، أقصد الليلة مثلا ، بل الآن ..

فلم يفهم الشاب حرفا واحدا من كل هذا القول ، ولذلك سألها جادا :

ـ قولى ماذا تريدين ٠

ـ أن نتزوج ٠٠

فشهق الشاب شهقة عالية ، وقال فىذعر شديد وهو يلقى بالنقود التى فى يده على الارض ، ويخرج سريعا ، كمن يريد أن يهرب من هول مخيف :

ـ أنا أتزوجك أنت ؟! ٠٠

فنظرت اليهوهو يخرج سريعا وابتسمت ، ووقفت فىمكانها لحظة ، ثم مدت يدها الى النقود المتناثرة علىالارض عند قدميها وجمعتها وابتسمت أيضا ، ولـم تعدها الى مكانها فى المنديل الذى تحتفظ به فى صـــدرها ، وانما وضــــعتها على البوريه وصعدت الى السرير ، وانطرحتبظهرها عليه ، باسطة ساقيها وذراعيها فى استســـــلام عجيب ونشوة زائدة ، وهى تنظر بعينيها الواسعتين الى سماء الغرفة ، وكأنها تنظر الى ســـماء دنيا جديدة ٠٠ تقبل عليها ، لقد كانت واثقة من انه سيعود

وظلت كذلك وقتا ، لميطل كثيرا فى حسابها ٠٠ ولم يطل كثيرا أيضا فى حساب الزمن نفسه ، وان كان قد طال وبعد وامتد سنوات فى حساب غيرها من الناس الى أن رأت يدا مرتعشة تفتح عليها الباب ، ورأت الشاب يدخل عليها مطبق الشفتين ، ويقف وسط الغرفة مغمض العينين جامد السحنة متحجر الوجه ، لا يطرف ، ولا يتحـرك ، فلم تأبه به ، ولم تلتفت اليه ، وظلت كما هى مستلقية علىظهرها فوق الفراش منبسطة الساقين والذراعين فى استســــلام عجيب ، الى أن سمعته يتمتم بصوت خافت جدا يشبه الهمس ٠٠

ـ قومى ٠٠

ـ الى أين ؟ ٠٠

ـ نتزوج ٠٠

الفصـــل الرابع والعشرون

لم يستطع الشاب أن ينقل أمه الى المســـتشفى فى تلك الليلة كما كان يود ، ولا حتى فى صبيحة اليوم الثانى لان مراسيم الزواج لم تتم الا عند الظهر تقريبا ، وذلك بسبب تغيب المأذون عن بيته فى هـذه الليلة ، وعدم العثـــور على مأذون آخر بعد منتصف الليل ، رغم تلك الجهود التى بذلتها المعلمة فى تلك الليلة ، ورغم أن قدميها كاد الدم يسيل منهما من كثرة سيرها فى الطرقات ليلا وتنقلها من حى الى حى تبحث عن المأذون ، والشاب خلفها يتبعها خطوة خطوة ، يسير كمـا تسير ويضع قدميه مكان ما تضع قدميها ، ويطرق البـــاب الذى تطرقه يدها ، دون أن يفتح فمه ، أو تطرف له عين ، أو تتحرك له شفة ، أو يقـــول غير ما طلب منـه المأذون أن يقول ، وكل الذى قاله من عنده هو انه بعد أن عقد العقد ، وخرج معها من بيت المأذون سألها قائلا :

ـ لماذا أردت أن يكون مؤخر الصداق مبلغا ضـخما هكذا وأثبت فى العقد انه مئتان من الجنيهات بالتمام ؟ ..

فقالت ضاحكة :

ـ لكى أسجنك اذا أردت أن تهرب منى يوما ..

فلم يجب بشىء ، ولم يلتفت الى شىء مما قالت ، فقد أنسته فرحته ، بدخول أمه المستشفى واعداد العدة لاجراء العملية لها كل شىء ، وظل طوال النهار والى أن جاء الليل حركة نشاط دائمة ، يتحدث الى الاطباء ويسدد حساب المستشفى ويدفع أجر العملية مقدما ، ويشترى لها كل ماتحتاج اليه ، الى أن انتصف الليل تقريبا ، وأفاقت أمه بعض الشىء من اغماءتهـا وفتحت عينيها وعرفت انها فى المستشفى وأن العملية ستجرى لها فى الصباح أى بعد ســاعات ، فنظرت اليه وربتت عـلى كتفه فى حنان أزال كل متاعبه ، ثم أغمضت عينيها ثانية بيد انها بعد لحظات قصار عادت وفتحتهما ثانية ، وسألته وكأنها تريد أن تطمئن :

ـ امام ، من أين جئت بهذه النقود ؟ ..

فجفل الشاب كما يجفل الجواد وقال وشىء ما يكاد يعصر قلبه :

ـ انها ارادة الله ..

ـ و .. ونعم بالله يابنى ..

وكان الام أحست بما يعانيه ابنهـــا من ألم مميت فنظرت
اليه وهي تحس أيضا بشيء وقالت :

ـ هل من سر يخفى على الام يا امام ؟ ..

فارتعد الشاب [illegible] عرفت شيئا وقال :

ـ أي سر ..

ـ [illegible] الاحزان [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ثم نظرت [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] وهي [illegible]

[illegible]

تعالج تلك الآلام التي [illegible]

[illegible]

كان يبكي [illegible]

ـ هل أتعبك اذا طلبت منك شيئا ؟ ..

ـ ليتك تطلبين حياتي [illegible]

[illegible]

[illegible] البقجة [illegible] القرنية [illegible]

[illegible]

[illegible] هذه الآلام [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] البقجة [illegible]

[illegible] الفاتحة [illegible]

[illegible]

في طريقها الى غرفته ، عندما شعرت بمجيئه ، وكانت [illegible]

ثوبا جديدا لم يكن قد رآه [illegible] وهمت أن تقول له

[illegible]

الخارج والزجاجة في يده ينظر اليها ويضحك ، فغاظها [illegible]

في هذه اللحظة ، وقالت له وهي تنظر اليه [illegible] :

ـ فيم تلصصك على زوج وزوجته فى الظلام ؟ ..

ففهم كل شيء الا الذى قالته وودت لو أذنه كلمة زوج وزوجته ـ كزجاجة وزجاجات ـ فقال ضاحكا يرد عليها وهو ينظر الى الزجاجة التى فى يده :

ـ لاننى لا أستطيع النوم ، وهى فارغة .

ثم نظر الى الشاب الذى أدهشه جدا وجوده وقال :ـ

ـ شرفت ياسيد بهلول ..

فاغتاظت ودفعته فى عنف حتى كاد يسقط وهى تقول :

ـ من اليـــوم لا أريد لاحد ما أن يمس زوجى بكلمة .. أسامع ؟ ..

ـ زوجك !! ..

نطقها الرجل وهو فاغر فاه يستمع الى رنين الكلمة فى أذنه وكانه يستمع الى حكم يصدر بالاعدام على شخص يعزه ..

ـ أجل ، زوجى وأعلن هنا على زوجى الاشهاد جميعا ، وهذه قسيمة الزواج ..

فلم يسمع الرجل شيئا ولم يقل شيئا ، ثم قالت للشاب وهى تسحبه من يده الى غرفتها وتنظر الى وجهه الشاحب الذى يقطر صفرة وعرقا

ـ ما بك ؟ ..

فقال وهو يلقى بجسده القاء على المقعد الذى قبالته :

ـ أكاد لا أتمالك جسدى ..

ـ مم ؟ ..

ـ لم أنم منذ أول أمس ..

فقالت ، وهى تتناول من على المشجب ثوبا من ثياب النوم التى كانت قد أعدتها له ..

ـ قم ، قم ..

ـ لا .. لا ، لن أبيت هنا ..

ـ تبيت فى المستشفى !؟ ..

ـ فقط جئت الآن لآخذ هذا المصحف ..

فقالت ضاحكة وهى مازالت تنظر اليه :

ـ وهل يبيت العريس خارج البيت ليلة عرسه .

فتذكر الشاب أنه زوجها ، وقال وهو ينظر الى الباب الذى سيخرج منه :

ـ على الرغم منى .. انها أمى ..

فقالت وهى ما زالت تضحك وتنظر اليه :

ـ أهكذا حتى فى ليلة زواجنا • تأبى حماتى الا أن تطفىء شمعتى ••

فقال الشاب محاولا أن يجاريها فى الضحك :

ـ انها مريضة وستكون ليلة زواجنا يوم شفائها ان شاء الله .

ثم حاول أن يخرج فقالت له :

ـ اجلس قليلا ••

ـ انها تنتظرنى ••

ـ تناول عشاءك ثم اذهب اليها ••

ـ لست جائعا ••

فقالت وهى تقرب المقعد الى المائدة التى في وسط الغرفة ، وتجلس عليه :

ـ قلت لك تناول عشاءك ثم اذهب اليها •••

فقال وهو ينظر الى الطعام الذى اكتظت به المائدة على غير العادة • بعد أن رفعت الغطاء عنه :

ـ ما هذا كله •• انه يكفى لعدد كبير من الناس ••

فقالت وهى تضع فى الطبق الذى أمامه • صدر الديك الرومى الذى كانت تزين به المائدة :

ـ عيبك انك تنسى دائما •

ـ أنسى ماذا ••

ـ ان هذه ليلة دخلتنا ••

فقال وهو ينهض :

ـ سآخذ قطعة من اللحم وكسرة من الخبز •• آكلهما فى الطريق ••

قلت لك تناول عشاءك ثم اذهب الى من تريد •••

ـ هل أنا ذاهب الى عشيقة ••• قلت لك أنها أمى ••

ـ وأنا زوجتك ••

فاضطرب فى خوف • وأراد أن يقول لها شيئا • ولكنها شدته من ثيابه مرة أخرى وأجلسته وهى تقول غاضبة بصوت عال :

ـ لن تخرج الا اذا أكلت

فجلس فى حنق ومد يده الى الطعام الذى تمثل له سما

ناقعا . وتناول قطعة من اللحم وراح يلوكها بين شـدقيه ..
ونظراته الى الارض لم ترتفع عنها . بيد أنه لم يكـد يبتلع
اللقمة الاولى حتى استشعرت أحاسيسه لذة الطعام . وسر هذا
المعلمة شفاعات الجالسة أمامه .. تترقبه خلسـة . وازداد
سرورها عندما رأت أسارير وجهه تتهلل شـيئا فشـيئا .
وقسمات وجهه التى كان قد طمسها الحزن كما تطمس الامطار
والاوحال الاشياء النظيفة .. تعود الى ما كانت عليه من الجمال
والاشراق والبهجة . وازداد هذا السرور وتضـاعف حتى كاد
يبلغ ذروته عندما تفتحت عيون الشاب واستطاعت أن تبصر
المرئيات وتميز بينها . وتتعرف عليها . وترى جيدا ثوبهـا
الجديد الذى ترتديه والذى انشق من أمام الى ما بعد الثديين .
والذى انشق أيضا من خلف حتى كشف عن الظهر كله ، وكاد
ينزلق الى ما فوق الردفين . والذى سألها عنه قائلا وهو ينظر
اليه ويتفحصه فى امتعاض :

ـ لم أر هذا الثوب قبل هذه الليلة ..

ثم أطبق شفتيه على قطعة من اللحم كانت فى فمه .. كما
يطبق الانسان عينيه على منظر كريه . ثم حاول أن يقـول
شيئا فقال غيره :

ـ انه ثوب جميل على أى حال .

فقالت ناهضة من على المائدة وقد اكتملت فرحتها واتجهت
الى البوريه :

ـ أعجبك ..

فقال وهو يشيح بوجهه عن ظهرها الذى تعرى أمامه :

ـ فقط كنت أود لو ترتدين ثوبا يحجب هذا العرى ..

فقالت وظهرها ما زال اليه :

ـ يحجبه عن من ؟ ..

ـ عن العين !

ـ حتى لو كانت عين زوجى ..

ثم استدارت اليه حاملة زجاجة من النبيـذ تفرغ منها فى
كأسين وتقدم له احداها :

ـ ماهذا ؟

ـ عصير العنب .

فقال في ذعر :
ـ لا • لا • لن أشرب •
ـ ولكنك كنت تشرب •
ـ اننى أصلى منذ ثلاثة أيام •
فقالت في غضب وصوتها يتخذ صفة الجد :
ـ قلت لك انه عصير العنب •
ـ انه مسكر • وكل مسكر حرام • وأنا أصلى كما قلت لك•
ـ وأريدك أن تصلى كل يوم وأنا أيضا سأصلى معك كل يوم
•• ولكنى لا أريدك أن تموت •
ـ أموت !
نطقها الشاب في خوف فلم تلتفت الى قوله وانما استطردت في نفس الغضب :
ـ أنظر الى عينيك الغائرتين •• أنظر الى وجهك المصفر •• أنظر الى سحنتك المغبرة التى تشبه سحنة الاموات •• أنظـر الى رقبتك وقد نفرت عليها عروقك الزرقاء • فغدت كالثعابين التى تسبح على ماسورة فى الليل •• انك •• انك تموت فعلا•
فقال الشاب مضطربا جدا • وهو ينظر الى الكأس التى فى يدها :
ـ لكن ما علاقة هذا بالخمر ••
ـ ليست هذه خمرا وانما هى دواء • لو أردت أن أسقيك خمرا كما تظن لجئت لك بالخمر التى تحبها • بالكونياك الذى كنت تشرب منه حتى تفقد وعيك •
ـ و •• و •• ولكن •
ـ ولكن اشرب •• وقم اذهب الى أمك التى تنتظـــرك فى المستشفى •
فتناول الكأس من يدها سريعا وأفرغها فى جوفه مرة واحدة ووقف ليخرج ، بيد أنها اعترضته وهى تملأ له الكأس الثانية :
ـ اشرب هذه أيضا •
ـ أيضا ••
ـ اشرب ••
ـ ••••••
ـ وأيضا هذه ••

ـ ان رأسى تدور ..
ـ اشرب ..
ـ ......
ـ هذه وكفى ..
ـ أيضا ؟
ـ اشرب . قلت لك .
ولما شرب الكأس الرابعة . أجلسته وجلست بجواره وهي تقول :
ـ وما رأيك لو ذهبت معك الى المستشفى ؟
فقال فى دهشة :
ـ تذهبين معى الى المستشفى ؟
ـ أليست أمى أيضا هي المريضة هناك ؟
ـ ولكن أين ستبيتين ؟
ـ كما ستبيت أنت .
ـ أنا سأظل ساهرا .
ثم ألقت برأسها على كتفه . وقالت وهى تعبث باصبعها فى أذنه التى تغمرها أنفاسها الدافئة :
ـ لن أدعك تخرج وحدك .
ـ كما تشائين .
فنقلت اصبعها من أذنه ، وربتت على شفتيه وهى تقول :
ـ لحظة . أرتدى ثيابى .
وتركته وذهبت الى الدولاب . وأخرجت بعض الملابس الداخلية . وثوبا غير الذى ترتديه . وحملت كل هذا على يدها واتجهت الى البوريه ، وقالت وهى تنظر اليه ضاحكة . وتمد يدها الى المصباح :
ـ سأطفىء النور .
ـ لماذا ؟
ـ حتى لا ترانى عارية وأنا أرتدى ثيابى .
وأدارت مفتاح المصباح الزجاجى شمالا بعض الشىء ، فانخفض نوره . وخفتت ذبالته التى راحت تتهافت وتتراقص فى شحوب . أحال كل ما فى الغرفة الى خيالات لا تكاد العين تميزها . ثم ذهبت الى جانب السرير بجوار الحائط وراحت

تنزع ثيابها . وتقول له كلما رات ظلال جسدها الذى يتعرى رويدا تمتد على الارض موضحة كل شىء :

ـ أغمض عينيك .

ـ انني لا أرى شيئا .

ـ بل ترى .

فقال وهو ينظر الى تلك الظلال التى تمتد أمامه موضحة كل شىء :

ـ الحقيقة أننى أرى .

ـ ترى ماذا ؟

ـ أرى أننى فى حاجة الى كأس أخرى .

ـ لماذا ؟

ـ لاننى أريد أن أنام .

ـ وأنا أيضا .

وظلا يسبحان فى نوم عميق . حتى أطل عليهما من النافذة شىء أبيض ، أما هو فقد تبين فيه وجه الصبح ، وأما هى فلم تتبين شيئا ، لانها كانت لا تزال منسحقة تئن من فرط ما وهبت طوال الليل .

وفتح الشاب عينيه مرة أخرى وراح يتلفت حوله . دون أن يصدق شيئا مما يرى .. وفتح عينيه مرة ثالثة وراح يلتفت حواليه .. حقيقة أنه نهار .. وحقيقة أنها شمس .. وحقيقة أيضا .. أن هذه بقايا طعام .. وهذه بقايا خمر .. وهذه أيضا .. ملابس نسائية ملقاة ذات اليمين . وذات الشمال .. وحقيقة أيضا أن هذه .. غرفة .. وهذا سرير .. وهذه .. امرأة .

وهب الشباب مذعورا كمن لدغته أفعى . وارتدى ثيابه فى عجلة لاحد لها . ومن ثم انطلق كالسهم خارجا . بيد أنه فجأة عند الباب وقف مرتعبا مأخوذا . ينظر بعينيه الجاحظتين الى شىء رهيب أمامه .. شىء يخاف أن يمسه ، أن يلمسه ، ولكنه لا يستطيع أن يخرج بدونه . انه جاء ليلة الامس من أجله . ان أمه أرسلته ليجىء لها به . فاذا به .. اذا به .. ماذا ؟؟ وجحظت عيناه مرة أخرى ، وهو يخرج من جيبه

منديلا نظيفا يضعه على المصحف الكبير حتى لا تلوثه يداه ٠٠ ومن ثم خرج سريعا ٠ وذهب الى المستشفى ، ولكن بعد الساعة السابعة ، وهو الموعد المحدد لاجراء العملية ٠

وراح يصعد درجات السلم فى جنون ٠ وانطلق الى الغرفة التى فيها أمه كالسهم ، ولكنه وجد الغرفة خالية ٠ ووجدهم قد نقلوها الى غرفة العمليات ٠ وهو لا يعرف اين تقع غرفة العمليات فى المستشفى ٠ ورأى احدى التمورجيات تقبل على الغرفة الواقف على بابها ٠ تحمل أثاثا جديدا ، من أثاث غرفة المستشفيات ٠ فسألها على الفور :

ـ أين تقع الغرفة التى تجرى فيها العملية لأمى ؟

فقالت التمورجية ، وهي تدلف الى الغرفة ، لتبدل أثاثها ٠ دون أن تقدر على النظر اليه :

ـ البقية فى حياتك ٠

الفصل الخامس والعشرون

ـ ان لم يخنى ذكائى . فانت
السـت سلوى .
ـ وكيف عرفتنى ؟
فقال محمدين :
ـ حدثنى عنك امام أفندى كثيرا
وأرانى صورتك . انه يحبك جدا .

فقالت الفتاة وهى تنظر الى الارض فى خجل :

ـ شكرا وأين هو ؟

ـ ألم يذهب اليكم ؟

فقالت وهى تحاول ما استطاعت أن تحبس دموعها :

ـ كان عندنا من ثلاثة أيام . وقال انه سيعود فى الصباح ، والى الآن لم يعد . وكنت أسمعه يذكر اسمك ، ويردد اسم لوكاندة المدينة المنورة . فجئت أسألك عنه . خشية أن يكون الذى أقعده الآن ، هو نفس الشىء الذى أقعده ستة أشهر ..

ـ حقيقة أن أمره غريب . منذ ثلاثة أيام كما تقولين جاءنى بعد أن انصرف من عندكم . وأعطيته مفتاح المسكن الجديد الذى استأجرته له هنا بجوار اللوكاندة ، واستأجرت له عربة كارو لينقل عليها متاعه . والى الآن لم أره :

ـ وأين يقع المنزل الذى يقطنه الآن ؟

فوصفه لها محمدين وصفا دقيقا . ثم قال وهو يودعها الى ما بعد اللوكاندة :

ـ معذرة . ولولا أننى فى اللوكاندة وحدى ولا أستطيع تركها . لذهبت معك .

ـ شكرا .

وانصرفت الفتاة تحمل حقيبة كتبها التى خرجت بها من المدرسة . وذهبت الى ميدان ـ باب الخلق ـ وراحت تسأل عن سلالم السبيل . وزقاق الجناينية . والسيرجة التى فى نهايته . ووقفت أمام الخوخة . وشعرت باضطراب وهى تمد

يدها الى الجنزير الملتف على الخوخة • كما تلتف السلاسل على باب سجن من السجون • بيد انها لم تكد تفعل ، حتى فوجئت بامرأة أمامها ، تقف شبه عارية فى ثوب قد انشق من أمام حتى أسفل الثديين • وانشق من خلف حتى كشف عن الظهر كله وانزلق الى ما فوق الردفين • فارتدت نظرات الفتاة عنها سريعا فى دهشة زائدة وخجل مربك • وازدادت هذه الدهشة كثيرا عندما سمعت الفتاة هذه المرأة • ترحب بها ترحيبا حارا وكأنها تعرفها :

ـ أهلا • أهلا • خطوة عزيزة يا حلوة •• اتفضلى •

فقالت الفتاة فى ارتباك دون أن تقوى على النظر اليها :

ـ حضرتك تعرفينى ؟

ـ ومن ينكر القمر • أو يخفى الشمس • أو ينسى الصورة التى لا توضع الا على القلب ، ولا تحفظ الا فى المصحف •

ـ صورة من ؟؟

ـ صورة التلميذة المؤدبة الجميلة ، ابنة المدرس ••

ـ من أنت ؟!

فقالت غانجة ، وهى تنظر اليها بنصف عين ، وتضحك ضاغطة على اللبانة التى بين شدقيها ، فتبرز عمق فجوة الغمازة التى على الخد :

ـ عشيقة • مغرمة •• متيمة • خاصم النوم عينى • وأضنى السهر قلبى •• مثلك تماما وحياتك •

فقالت الفتاة فى ذهول لاحد له :

ـ مثل من تقولين ؟

ـ مثل التلميذة ابنة المدارس • التى ما زالت بالفيونكة والجورب الابيض • والحبريلوث أصابعها • وتعشق الشبان • وتتمرغ فى أحضانهم • ولا تخجل من أن تقتحم عليهم بيوتهم وتسأل عنهم ••

فقالت الفتاة لاهثة الانفاس ، والدموع فى عينيها :

ـ أى بيوت • وأى شبان ؟ اننى اسأل عن امام •

ـ وأنا أيضا أحدثك عن امام •

فصرخت الفتاة دون أن تصدق :

ـ أنت تعرفينه .

فقالت وهى تضحك ضحكة عالية . رنت فى فناء الدهليز .. واخترقت أذن حسبو . النائم فى غرفته يحتضن الزجاجة ويضحك :

ـ انه زوجى .. فكيف لا أعرفه .

ـ زوجك ؟

نطقتها الفتاةمشدوهة ، وهىتنظر اليها هذه المرة ، وتتأمل كل شىء فيها . ولما لم تنطق ثانية . قالت لها شفاعات ضاحكة :

ـ مالك تنظرين الى هكذا . الا تصدقين ؟

ـ أجل . لا أصدق . وانت كاذبة .. كاذبة .

فلم تثر ولم تغضب . وانما استغرقت فى الضحك . وهى تمد يدها الى صدرها العارى . وتخرج شيئا من بين الثديين . وتقول :

ـ اتفضلى . يا حلوة . اقرأى قسيمة الزواج .

ولما طالت نظرة الفتاة . وطال تأملها . وطال أيضا وجومها .قالت شفاعات ، وهى تضحك مرة أخرى :

ـ ان جئت ثانية . فسوف أشترى لك نظارة معظمة . لكى ترينني جيدا .

ثم عقبت . وهى تغلق الخوخة فى وجهها وتلف عليها الجنزير :

ـ مع ألف سلامة ... يا حلوة .

الفصل السادس والعشرون

استدارت المعلمة شفاعات الى غرفتها . بعد أن طردت الفتاة . وأغلقت باب الخوخة في وجهها ولفت عليه الجنزير . وراحت تقطع فناء الدهليز تصغى فى نشوة زائدة الى صوت البلابل السبع التي تنبعث من القبقاب الصدف . مختلطة بصوت فرقعة اللبانة التى بين شدقيها ، والتى كلما ضغطت عليها برزت واستدارت ولاح عمق الغمازة التى على الخد .. بيد أنها لم تكد تسير بضع خطوات ، وتتجه الى غرفتها ، حتى حانت منها التفاتة عابرة الى السيرجة . فرأت بهلول ، واقفا فى مكانه لا يتحرك . يهز رأسه ذات اليمين وذات الشمال .. وقد سقط الغماء من على عينيه . فراحت تنادى بأعلى صوتها :

ـ حسبو .. يازفت يا حسبو .. ياهباب .. يا حسبو .

وكان الاستاذ حسبو فى غرفته . مستلقيا على فراشه الخشن بنفس ملابسه . البنطلون الذى لا يعرف له لونا . والصديرى (الألاجة) الذى لم يبق فيه غير أزراره الستة الغالية . تغالب الزمن . لتبقى على الاصل القديم . والمجد الدارس . وقد عقد منديله المحلاوى على رأسه الذى وضعه مع نصف ظهره على حافة الوسادة . ووضع على النصف الآخر الذى عليه الصدر ، مؤخرة الزجاجة . لان مقدمتها كانت فى فمه . وكان مخمورا لا يكاد يفقه . ولهذا ترامى اليه صوت المعلمة ، وصراخها الذى ينبعث من الدهليز . ترامى الى أذنه أشبه بهمس لذيذ فى حلم أبيض جميل . ولهذا لم يرد . وكل الذى فعله أنه رفع الزجاجة الى ثغره . وهو يضحك ، وأفرغ منها عدة جرعات فى جوفه وهو يضحك . ثم أعادها وهو يضحك أيضا . ويواصل أغانيه التى تعود أن يغنيها بصوت عال كلما أسرف فى الشراب وراح يأتي بكلمة منغمة من هنا . وكلمة مسجوعة من هناك . وشطرة من موال . وشطرة من موال غيره . وظل كذلك الى أن اقتحم عليه باب الغرفة فجأة فى عنف . ودخلت منه المعلمة كالهول ، أو كالصاعقة . فلم ينطق . ولم يتحرك . أو تطرف له عين . وما أن رأته فى منامته هذه مخمورا . والزجاجة على صدره يحتضنها ويضحك حتى انفجر مرجل غضبها . ودوى صوتها فى قلب الغرفة صارخا :

ـ أطرش .. فقدت سمعك .. أصبت بالصمم .

فلم يسمع شيئا مما قالت . ولم يتحرك أيضا من مكانه .

وانما تعلقت نظراته بقميصها الخفيف • الذى انشق من امام حتى أسفل الثديين • وانشق من خلف حتى كشف عن الظهر • وأنزلق الى ما فوق الردفين• وأنساه هذا كل شيء ، الا الزجاجة التى فى يده ، والغناء الذى يغنيه • ولذلك راح ينظر اليها ، وهو يرفع الزجاجة الى ثغره ويشرب • ثم أعادها الى مكانها من صدره • وهو ينظر الى الوردة الحمراء • التى تدلت مع القرط الذهبى فوق الكتف العارية • ويردد مواصلا الغناء :

يا رابطة على الصدر وردة فى مكان حساس

فاحتدم غيظها • وهجمت عليه ممسكة بالزجاجة من يده لتلقى بها فى الارض •• لتحطمها • ولكن أصابعه الخشنة تكالبت على الزجاجة • وراح يشدها من يدها • فى قوة وخوف وهو ينظر الى جسدها العارى والوردة الحمراء التى تروح وتجىء على الكتف العارية • ويقول ضاحكا وهو يشد منها الزجاجة •

ـ السولار ياست •• البنزين يامعلمة •• الغاز الوسخ ياعروسة الشباب •

فبرقت عيناها وهى تصرخ وتشد منه الزجاجة فى قوة هائلة :

ـ أعطنى هذه الزجاجة •

ـ لماذا ياعروسة •• يازوجة الافندى •

ـ أحطمها • لن تشرب الخمر بعد اليوم •

ـ الماكينة تقف •• تتعطل •• الدينامو •• ما يشتغلش• حرارته تبرد •• الكهرباء تروح •

فضغطت بكل قوتها • وكل ثورتها أيضا تشدها منه • ولما لم تستطع انتزاعها من بين يديه • تركتها فجأة • فدفعته شدة الجذب الى الوراء • فسقط على ظهره فوق الارض • والزجاجة بين يديه • فنظرت اليه وهو مستلق أمامها على الارض • وغلبها الضحك • وكادت تضحك • لولا أنها قالت ، وهى تنظر اليه وتزم على شفتيها :

ـ قم اذهب الى بهلول ••

ـ أى بهلول فيهم •• بهلول الزوج • أم بهلول الحمار ؟

فاحتقن الدم فى وجهها على الفور • واندفعت اليه كاللبؤة ، تركله بقدمها فى قلبه وصدره ركلات موجعة وهى تقول فى غيظ يشبه الجنون :

ـ قلت لك ألف مرة • لا تذكر اسمه على لسانك •• لقد أصبح زوجى • زوجى • أفهمت •

فأراد أن يقول لها شيئا . يقول لها .. كفى عن الضرب .. يقول لها ضرباتك توجعني .. تميتني .. يقول لها ان كان ولا بد من الضرب .. فليس بالقبقاب .. وان كان لابد من الضرب بالقبقاب . فعلى الاقل يكون لغير هذا السبب .

أراد أن يقول لها هذا أو بعضه . ولكنه رأى مرة أخرى الوردة الحمراء التي تدلت مع القرط الذهبي وخصلة ناعمة من الشعر الفاحم . ما زالت تروح وتجيء فوق الكتف . فتذكر أنه كان يغني . فقال مستطردا يغني وهو يضحك ، وعينه عالقة بالوردة لم تتزحزح عنها :

يا رابطة على الصدر   وردة في مكان حساس

وكأن هذه الكلمات انصبت نارا في أذنيها . فانقضت عليه في هول هائل . وأنشبت أظافرها في عنقه . فخاف وارتعد وأفزعته رؤية ذلك الوجه الذي لم ير له مثيلا بين الوجوه ، وأرعبته رؤية تلك الاذرع التي تتلوى أمامه كالثعابين الضخمة زاحفة الى عنقه لتطبق عليه وروعته رؤية ذلك الرأس الذي يشبه رأس الافعى الزرقاء تدنو منه لتعضه بأنيابها الحادة . فأغمض عينيه . وهو يرفع ذراعه سريعا الى أعلى .. وظل يرفعها .. ويرفعها .. ويرفعها ثم هوى بها فجأة على ذلك الرأس فترنحت الافعى على الفور . وارتكنت على الحائط تتلوى خائفة أن تسقط . ولكنه .. فاجأها من الخلف بضربة أخرى أسقطتها أمامه على الأرض . ولما نظر الى يده . ووجد أن الزجاجة مازالت فيها . وأنها لم تتحطم بعد . وانما الذي تحطم هو رأس الافعى . ابتهج ضاحكا وهو يحتضن الزجاجة ويخرج . بيد أنه عند الباب . أحس بأن ذيل الافعى ما زال يتحرك . فرجع اليها في هدوء وراحة بال كان لا يعرف أن لهما وجودا في قلوب الناس . وجلس أمام رأسها في نفس الهدوء .. وأغمض عينيه .. ومن ثم راح وبنفس الهدوء يرفع ذراعه الى أعلى .. ويهوى بها على الرأس .. ويرفعها الى أعلى ويهوى بها على الرأس .. وظل يرفعها الى أعلى ويهوى بها على الرأس .. ولما فتح عينيه بعد حين .. ولم ير أمامه غير كتفين اثنين فقط لاشيء بينهما .. ازداد هدوءه .. وانفرجت

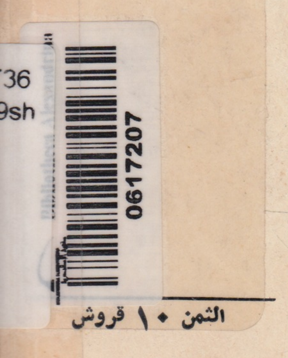
أساريره • ونهض مطمئنا •• بيد أنه وهو ينهض رأى شيئا فوقف ينظر اليه ، ويتأمله جيدا ، ولما عرفه ، مد يده اليه واخرجه من وسط بركة من الدماء • كانت أمامه • ومن ثم انصرف به من الغرفة واخترق به الدهليز • وفى الزقاق راح يتأمله ثانية على ضوء النهار •• ويتفحصه جيدا على نور الشمس الساطعة • فاذا به وردة حمراء • كانت فيما مضى تروح وتجىء على كتف كالبللور •• فابتسم •• وضحك •• وظل يضحك وهو واقف •• ويضحك أيضا وهو يسير •• الى أن بلغ سلالم السبيل فراح يهبط درجاتها • على مهل • درجة درجة وهو يضحك •• يهبط درجة ثم يضحك •• ويهبط درجة •• ثم يضحك •• ويهبط درجة •• ثم •• يضحك •

تمت .

مؤسسة



٨٩ أ شارع القصر العينى - القاهرة



الثمن ١٠ قروش